كريستيان جاك

رواية

آخر أحلام كليوباترا


المركز الثقافي العربي

كريستيان جاك

آخر أحلام كليوباترا

رواية

ترجمة: محمد المزديوي



كريستيان جاك

آخر أحلام كليوباترا

العنوان الأصلي للرواية:

Christian Jacq

Le Dernier Rêve de Cléopâtre

الكتاب

آخر أحلام كليوباترا

تأليف

كريستيان جاك

ترجمة

محمد المزديوي

الطبعة

الأولى، 2016

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-835-0

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com



مصر في عهد كليوباترا

انظر إلى فوق بعيون القلب،
اجمع في نفسك أحاسيس كل
الخلق، النار والماء، تخيّل
أنك في كل مكان، على الأرض،
في البحر، وفي السماء.

هرمس

1

كانت الملكة عارية.

من شرفة قصرها، أخذت كليوباترا تتأمل، ربما لآخر مرة، عاصمتها العزيزة، الإسكندرية اللامعة.

لم تُخفّف رياح الليل اللطيفة الحمّى التي ألمّت بها؛ هي، ملكة مصر، أرض الآلهة المحبوبة، الأرض التي ظنت أنها فازت بها والتي تفلت منها، هي، السيدة المُطلَقة لبلد غني، ينتهي بها الأمر إلى الوحدة والعجز!

أضاءت الشعلة اللامعة في قمة المنارة البحرَ، مؤكدة مجد المدينة التي أسَّسها الإسكندر[1] الأكبر بعد انتصاره على الفُرس وتحريره أرض الفراعنة القديمة من براثن الاحتلال. المكتبة، والمتحف، والمعابد، والمسرح، والقصور، والمرفأ، والمنارة... كم من روائع أصبحت المالكة الشرعية لها عند موت والدها خلال خسوف القمر التام في السابع من مارس سنة (51-)[2]!

---

(1) في سنة 331-. اعتمدنا اتفاق أغلب الأعمال التاريخية المعاصرة، أي 51- وليس 51 ق.م. كما كان من قبل.

(2) بالنسبة إلى التواريخ، انظر سيلفي كوفيل، **عين رع. تاريخ بناء دندرة**، باريس، بجماليون، 1999.

والدها، الذي كان ترتيبه الثاني عشر في أسرة البطالمة، جبان وفاسد ومهووس جنسي باع مصر للرومان! لقّبه شعبه «الزّمّار[1]»، كان يستمتع بالعزف على تلك الآلة خلال العربدة ويظهر علناً خاسراً كرامته. بعد طرده من الإسكندرية، استعاد السُّلطة بشراء جنود رومانيين بثمن الذهب متسبباً في أزمة اقتصادية. أصبح العديد من المرتزقة، الجرمانيون والغاليون بخاصة، ينتمون إلى الجيش المصري الذي لم تعد كليوباترا تسيطر عليه.

وهي تستشيط من الغيظ، انتزعت المرأة الشابة ذات العشرين سنة عقد اللؤلؤ، خلعت الأساور الفضية ورمت بها إلى المدينة الجاحدة التي أرادت التخلُّص منها والاستسلام لطمع مجموعة من المتآمرين.

ولدت في الإسكندرية في يناير سنة (69-) في جناح محظيات والدها، اعتلت كليوباترا عرش مصر في سن الثامنة عشر. عرش اضطرت، بحسب تقاليد البطالمة، مشاركته مع أخيها الصغير الذي كان في العاشرة. في حين كانت كليوباترا الأولى، المولودة سنة (180-)، قد حكمت لوحدها بعد وفاة زوجها!

وقلدتها كليوباترا السابعة، التي يعني اسمها «مجد والدها»، بإقصاء الأقرع الصغير بطليموس الثالث عشر الذي كانت تكرهه. كانت تحمل، من دون سخرية، لقب «مُحِبة والدها[2]»، في حين كانت تفضِّل لقب «مُحبة وطنها»، مصر ذات الماضي المشرق، موضوع جميع أحلامها.

وها هي تلك الأحلام تتحول إلى كابوس.

---

(1) باليونانية، عازف الفلوت.

(2) فيلوباتور.

ثائرة ضد الجَور، رفعت المرأة الشابة يديها نحو القمر.

- أنت الذي تختفي وتولد من جديد، امنحني قوتك!

ألم تكن كليوباترا قد أظهرت نضجاً وشجاعة بمواجهتها للأزمة المالية؟ بسبب ديون والدها الكبيرة، كانت قد اضطرت إلى التخفيض من قيمة العُملة وإصدار قطع جديدة من البرونز. بعد أن ضربتها فترات من المجاعة وضرائب غير محتملة، أخذت الأرياف تصرخ؛ هكذا من أجل أن تحافظ على غنى العاصمة، وقّعت الملكة مرسوماً يمنع، تحت طائلة الموت، نقل الحبوب التي تأتي من مصر الوسطى إلى مكان آخر غير الإسكندرية. ستبقى مطامرها ملأى، لن يعدم الإغريق الطعام.

ولم يكن ذلك سوى بداية سلسلة من الإصلاحات التي تروم محاربة الفساد والبيروقراطية الكاسحة، من أجل أن تستعيد البلاد ازدهارها.

لكن كليوباترا وجدت نفسها في مواجهة رداءة بلاطها وفساد والدها الراحل! كان قد طلب من مجلس الشيوخ في روما الحرص على تنفيذ وصيته. تلك الوصية كانت تقتضي أن تقتسم السلطة ابنته البكر مع أخيها، بطليموس الثالث عشر، صبي شقي لا يُحتمل ومُدّعٍ يتمتع بدعائم قوية.

ثلاثة رجال كانوا يحرِّكون تلك الدمية، وكانوا قد قرروا تحطيم كليوباترا: الخصي فوتان، على رأس الحكومة؛ أستاذ الأدب ثيودوتوس، مؤدِّب المُلَيك الصغير؛ أخيلاس، رئيس الجيش. وكانت أرسينوي، أخت كليوباترا الصغرى، تشجِّع الثلاثي ذي التأثير السيئ؛ كانت الأخت ماكرة، طموحة وغيورة، ولا تصبو إلا إلى الاستحواذ على السلطة.

مستخفة بالخطر، افتقدت الملكة الشابة إلى الحسِّ والحذر؛

كرَّست نفسها لحل الأزمة المالية وفرض رؤيتها دون مداراة للحساسيات، كانت تعتبر نفسها قادرة على قيادة الدولة وحدها متناسية وصية والدها وخضوعها للرومان.

روما، القوة العظمى، المتغطرسة والمستخفة! جنديان، ضاريان مرعبان كانا يتصارعان من أجل السيطرة عليها: قيصر وبومبي. كانت كليوباترا قد حسمت اختيارها لهذا الأخير، متمنية أن يبقى بعيداً من مصر وألا يعارض سيادتها. أرسلت إليه في سنة (49-) مؤناً وجنوداً، وكان المغتابون يدَّعون أن الملكة أصبحت عشيقة لابن بومبي، الذي أُرسِل سفيراً إلى الإسكندرية!

أنعشت روائح الياسمين المرأة الشابة ذات الجسد المتكامل، لكنها لم تكن كافية لتطرد الروائح الكريهة التي أحدثتها شائعات أعدائها وأفراد عائلتها. هي، التي كانت بالأمس في القمة، أصبحت الآن محطمة! لا جدوى من أن تخدع نفسها: نجحت المؤامرة، عُزِلت كليوباترا لصالح أخيها الصغير.

بجبين مرتفع، يضيئه القمر، اقتربت الملكة المعزولة من حافة الشرفة. منذ مجيئها، كانت قد استمتعت بالسلطة وفوجئت بأنها نسيت نفسها؛ لم تكن تهتم بمجدها الخاص، وحده مستقبل البلد يؤرقها. ألم يعهد إليها القدر بمهمة، ألا يفترض بها التضحية بحياتها من أجل مصر الجديدة؟

خلال بضعة شهور، قضت الملكة على المُراهِقة داخلها، وبدّد معنى الدولة لامبالاتها.

تدرَّبت لتحكم، لن تتراجع كليوباترا إلى الخلف. بما أن المتآمرين انتصروا، لماذا ستستمر بالحياة؟

كان ضوء المنارة يسحرها ومياه المرفأ، ذات الوضوح غير العادي، تجذبها. وهي، تنزوي تحت سلطة صبي متوَّج؟ أبداً!

ستتحول إلى طائر، ستطير فوق المرفأ، ستصل إلى عُرض البحر وتترك خلفها عالم الوضعاء. . . ابتسمت كليوباترا، فتحت ذراعيها واستعدت للطيران.

- صاحبة الجلالة، انتظري!

جرت شارميان، الخادمة المخلِصة، نحو سيدتها وغطّتها بخمار من الكتان الملكي.

كانت شارميان قصيرة وسمراء، جبهتها منخفضة، وأنفها بارز، وساقاها مليئتان، كانت الخادمة تكرِّس نفسها جسداً وروحاً للملكة. بقبضة حازمة، جذبتها إلى وسط الشرفة.

- صاحبة الجلالة، يجب أن نغادر!

كأنها تصحو من حلم، أجهدت نفسها لتتعرف إلى خادمتها.

- أن نغادر. . .

- فاجأتُ حديثاً مرعباً؛ أنت لست في مأمن هنا في القصر.

- سأقاوم!

- عبثاً، أعداؤك كُثر؛ فلنغادر، أتوسل إليك!

- أنت لا تعرفينني جيداً، شارميان.

- بحسب رأيي، لا تملكين أدنى فرصة للانتصار.

ترنَّحت كليوباترا.

أنقذتها خادمتها، كان الموت يهدد من جديد. . . ملكة تنحني أمام العدو، تستسلم للهلع، تتصرف كالجبناء؟

- فلتكوني عاقلة، أكدت شارميان؛ بعيداً من هذا المكان، يمكنك أن تقاومي.

- سأدمر الأوغاد في قصري، قررت كليوباترا.

2

منذ وفاة الإسكندر الأكبر، لم يَفتأ البطالمة يزينون الحي الرئيسي في الإسكندرية، البروكيون، الذي يقع في الجهة الشمالية-الشرقية من المدينة، على رأس لوخياس المتقدم في البحر. هناك كان يوجد العديد من القصور، بما فيها الإقامة الملكية، ومقر الحكومة، والوزارات، وبيوت الأعيان، والمتحف، والمكتبة، والمسرح، وقاعة الرياضة، والملعب. المآثر الرئيسية للمدينة الفسيحة التي تمتد بين البحر الأبيض المتوسط وبحيرة مريوط كانت قد شُيدت على مقربة من قبر الإسكندر والبطالمة الأوائل[1].

معرفة متاهات الإدارة الإسكندرية، المدعمة بالآلاف من الموظفين الذين يتمتعون بعدد لا يُحصى من الامتيازات كان يتطلب تجربة صلبة، الكثير من المهارة ووقاحة دائمة. هذه الصفات، كان الخصي فوتان يتوفر عليها إلى أقصى حد.

قامة متوسطة، رأس أصلع تقريباً، بطنٌ بارز، وجنتان منتفختان، خُطى ثقيلة، كان يبدو جذاباً ومسالِماً؛ كل الذين وثقوا بذلك المظهر

(1) تحديد الموقع المحتمل يظل افتراضياً، لأن قبر الإسكندر الأكبر لم يتم العثور عليه.

الخدَّاع ندموا على ذلك أشد الندم. ماكر وعديم الرحمة، كان فوتان قد تخلَّص من منافسيه كي يحتل المنصب الرئيسي، منصب وزير الاقتصاد والمالية. أصبح يسيطر على الفِلاحة والحِرف التقليدية، يراقب دخول العديد من الضرائب عدّاً ونقداً، وكان قد وضع أتباعه على رأس القضاء والعدل والجمارك الوفيرة المكسب.

أن يقود بطليموس الثاني عشر، الزَّمَّار الفاسد، بحسب هواه لم يكن شيئاً عسيراً؛ لكن اعتلاء الشابة العرش تحوَّل بسرعة إلى كارثة. مثقفة، نشيطة، موهوبة من أجل السلطة، قامت الملكة بإبعاد أخيها الصغير، بطليموس الثالث عشر، وأحدثت مجموعة من الإصلاحات، النقدية بشكلٍ خاص، والتي لم تعجب الأعيان وشعب الإسكندرية. إن تركوها تستمر، ألن تمس ببعض الامتيازات رغم النظام القائم؟

عندما أحس بالقلق، قام الخصي بتطبيق أفضل استراتيجياته: التصرُّف في الظل. كوَّن شبكة فعالة، مصمِّمة على دعم الطفل بطليموس الثالث عشر وعزل كليوباترا. أرسينوي، الأخت الصغرى، التي تحسد وتكره الأخت الكبرى، الجميلة والذكية في الوقت نفسه؛ لكن فوتان كان يحذر من تلك الطموحة، الخطرة مثل أفعى. حليفه المفضل كان أستاذ الأدب ثيودوتوس، الخبير في البلاغة؛ خطاباته الجميلة كانت تروم إلى إقناع الصغير بطليموس بأنه الملك الشرعي الوحيد وأن عليه التخلُّص من كليوباترا الفظيعة قبل أن تقتله.

وها هو اليوم الأخير قد حان: وافق الصبي على المضي إلى الهجوم النهائي. منذ العديد من الأسابيع، كان فوتان قد نجح في تأليب مجموع الإدارة ضدّ الملكة وعزلها؛ لم تكن أوامرها تنفَّذ وكان آخر مسانديها ينصرفون عنها. منذ ذلك الحين، أخذ بطليموس الثالث عشر يحكم، وعبره فوتان.

لم تكن هزيمة كليوباترا كافية؛ بعد أن تأخذ علماً بالوضع، لن تتأخر الملكة عن الردّ.

كان عليهم تصفيتها، ولم يعارض الملك.

مشى الخصي في ممرٍ طويل وضيق يقود إلى جناح أخيلاس، رئيس الجيش. عسكري من أصول مصرية، تحول إلى إغريقي مثالي من الإسكندرية؛ محدود الفكر، لكنه شجاع تحترمه قواته، كان شديد الطاعة لفوتان الذي كان يغدق عليه بالأموال والنساء.

كان الجنرال طويلاً وضخماً؛ شعره أسود، رأسه مربع، شفتاه جشعتان، صوته أجش، يوماً بعد يوم كان تقديره لوضعيته يتضاعف ويستمتع إلى أقصى حد بالمتع التي تمنحها العاصمة.

أدخلت خادمته فوتان.

كان أخيلاس يتناول عشاءه رفقة حورية عارية وثملة؛ تنحنحت عند رؤية الخصي، بسبب هيئته غير الملائمة، والتي لم يضف إليها ثوبه الأخضر ذي الطيَّات الدقيقة شيئاً.

صفع الجنرال الفتاة.

- سامحها فوتان؛ وأنت، أيتها الحمقاء، اغربي!

انسلَّت الحورية وهي تبكي تحت بصر الخصي الحقود. ملأ أخيلاس كأساً فضية بنبيذٍ أحمر بنكهة القرفة وناوله إلى الوزير.

- في صحتنا، صديقي العزيز!

بالكاد بلل فوتان شفتيه.

- مستعجل؟ سأل العسكري بقلق.

- بالفعل.

- آه. . . هل هذا يعني الآن؟

- كلما كان أسرع كان أفضل.

عبَّر صوت الخصي المرتعش قليلاً عن خطورة الوضع.

- فِتَن في الحي الحار، أراهن! سأهدئ الثائرين.

- لا شيء من ذلك، أخيلاس.

عقد الجنرال حاجبيه.

- أوضح أكثر فوتان!

- التزمت بخدمة الملك، أليس كذلك؟

- شيء مؤكد!

- حان الوقت لتأكيد القسم. بطليموس محتاج إلى ذراعك وشجاعتك.

نهض أخيلاس.

- فليأمر، وسأطيع!

- سيغير تصرُّفك مصير هذا البلد وسيُنقذ عرش ملكنا الشرعي؛ ستصبح بطلاً، صديقي، وستكرَّم بحسب قيمتك الحقيقية.

أحس الجنرال بالقلق؛ كان الوعد جذاباً، لكن أي خطر يخفيه؟

- فوتان، هل يمكنك أن توضح أكثر؟

- أخذ بطليموس قراراً كبيراً، يليق بملك: يرغب في تحمل مسؤولية السُّلطة وحده.

- وحده، يعني...

- يعني تصفية الخائنة التي تتآمر دون انقطاع من أجل أن تتخلص منه.

- الخائنة... كليوباترا؟

هزَّ فوتان رأسه.

- تطلب مني إذن أن...

- يأمرك ملكنا بطليموس الثالث عشر بالقضاء على كليوباترا.

3

تأمَّل الجنرال أخيلاس بقية عشائه بتجهم وأحس بتشنج في معدته.

– أنا عسكري، ولست قاتلاً!

– من تحدَّث عن القتل؟ تساءل فوتان بصوت ناعم؛ كليوباترا على وشك أن تصبح قاتلة وتودي ببلدنا إلى الإفلاس! ألا تود إنقاذ البلد باقتلاع الشر من جذوره؟

أخذ رأس رئيس الجيش يغلي؛ ليستطيع التفكير بطريقة أفضل، أخذ يمشي طولاً وعرضاً.

– تلك المرأة أفعى، قال الخصي؛ بحسب جواسيسي، هي تتأهب لتضرب. إذا لم نتدخل ستقضي علينا كلنا. ستأخذ رأس قواتنا والشرطة، وستقتل شقيقها وأقاربها. لم يتبقَّ لنا سوى أمل واحد للبقاء على قيد الحياة: أنت، أخيلاس.

أحس الجنرال بمسؤولية كبيرة تُلقى على عاتقه، وبدأت مهمته تعجبه. هو، منقذ مصر! عرفان بطليموس سيكون غير محدود، ستتحقق ثروة البطل، وستكون شهرته أسطورية.

كليوباترا... المرأة كانت فاتنة، ساحرة حتى، لكنها كانت تحتقره.

- أوافق. أعلن أخيلاس.

انحنى فوتان.

- أحيي إخلاصك وشجاعتك، وسيشعر ملكنا بالعرفان لذلك.

- متى يجب أن أتصرف؟

- الآن.

ارتدى الجنرال ثوباً برتقالياً واسع العنق قصير الأكمام. ثم اختار خنجراً ذا نصل مزدوج.

- أنا قادر على القضاء على العديد من الخصوم، لكن ليس حرس كليوباترا الخاص، الذي يتكون من حوالي عشرين رجلاً مسلَّحين بالنبال.

ابتسم فوتان.

- حللت المشكلة، أولئك الشجعان أصبحوا في صفنا، الشيء نفسه بالنسبة إلى أغلب خدم وخادمات الملكة. في هذه الساعة، ستجدها لوحدها تتناول العشاء.

أحس الجنرال بقلبه يقفز في صدره، مهمة محمسة في انتظاره.

بخُطى ثقيلة، تقدم فوتان أمامه. سار الرجلان في طريق معقّد يؤدي إلى قصر كليوباترا، مارين عبر حدائق ينيرها البدر التمام.

في المدخل، لا يوجد ولا حارس واحد.

كان السكندريون شغوفين بالرخام الذي يستوردونه، ولم يكن قصر كيلوباترا استثناء؛ صعد أخيلاس مجموعة الأدراج التي تؤدي إلى المدخل الرئيسي، مرَّ بين عمودين ذوي انحناءات بارزة ودخل إلى قاعة الاستقبال المزيَّنة بلوحات حائطية تمثِّل مناظر للنيل، وتماثيل نصفية للبطالمة.

دهليز يقود إلى الصالونات، وقاعة الأكل، والردهة. . . مصابيح مضاءة، لا وجود للفوضى، ولا أحد من الخدم. كان باب جناح الملكة الخاص مغلقاً.

توجس الجنرال. لم يكن خافياً عليه أن كليوباترا، الفارسة الممتازة، كانت تتردد على قاعة الرياضة، متفوقة أحياناً على الرجال. ألم تكن تنصب له فخاً؟

فتح الباب عنوة وأسرع إلى داخل مجال يعبق بالترف والعطور. الغرفة الواسعة، والحمَّام، والغرف الخاصة بالتدليك، بالعناية بالشعر، بالزينة، بالحلي، بالملابس. . . لا أحد.

شديد الحرص والحذر، فتَّش أخيلاس عبثاً كل المخابئ الممكنة. عاد مغتاظاً نحو فوتان.

- كليوباترا ليست هنا.

لم ييأس الخصي.

- أعرف أين تختبئ: قصرها الآخر، على جزيرة أنتيروديوس.

استأجر الجنرال مركباً كبيراً؛ قام حوالي عشرين جندياً بالتجديف بوتيرة سريعة من أجل الوصول إلى الجزيرة الصغيرة بسرعة، كانت الجزيرة توجد قرب المرفأ الشرقي. هناك توجد إقامة ملكية ومعبد شُيّد من أجل إيزيس.

- يريدك الملك أن تقطع رأس هذه الساحرة وأن تريه للشعب. اقترح فوتان في أذن أخيلاس؛ سيهتف لك الملك، وسيجزل لك العطاء.

- قليل من القوة! أمر الجنرال الذي كان يمسك بمقدمة المركب.

وهم يرسون في المرفأ الخاص بالملكة، لاحظ العسكري والخصي أنه كان فارغاً.

- هربت. دمدم فوتان، فريسة لغضب بارد.

*

كان الصغير بطليموس الثالث عشر قد أفرط في تناول الحلويات وأخذ يشعر بالغثيان. جسم نحيل، جبين عريض، أنف دقيق مسنن. كان مؤدِّبه، أستاذ الأدب ثيودوتوس، يحاول أن يوقف جشع الصغير الكثير النزوات والذي لن يتأخر في أن يصاب بالسُّمنة.

- سأقرأ عليك بعضاً من شعر كاليماخوس[1]، صاحب الجلالة، وستستمتع بليلة هنيئة.

- لا أشعر بالنوم وأريد أن أشرب النبيذ.

- متأسف صاحب الجلالة، تبدو لي يافعاً.

- الصبيان في مثل سني يشربون!

- لكن أنت الملك.

- بالفعل، لذا من حقي الاستمتاع بكل شيء.

- لذا لا يمكن.

قطع وصول فوتان غير المتوقع النقاش: انحنى رئيس الحكومة.

- أنت، قل إنني على حق! اشتعل بطليموس.

- عندي خبر سيئ وآخر جيد، صاحب الجلالة.

أصبحت نظرة ثيودوتوس المترفعة قاسية.

- أكره الأخبار السيئة! احتج الملك.

---

(1) كاليماخوس (300-240-): كان أحد الشعراء السكندريين الأساسيين ووضع فهرس أعمال المكتبة.

- غادرت كليوباترا الإسكندرية رفقة بعض المخلِصين، صرَّح الخصي؛ كنا على وشك الإمساك بها.

- أرجعها، أريد أن أراها ميتة!

- هل تعرفون إلى أين ذهبت؟ سأله ثيودوتوس.

- ليس بعد، لكني أؤكد على الخبر الجيد: تلك الطموحة تترك لنا المجال مفتوحاً. سيبدأ اليوم حكم بطليموس الثالث عشر.

هدّأت تلك الكلمات الطفل.

- جيد، قررت أن أنام.

4

سهّلت الرياح الشمالية القوية تقدُّم الزورقين السريع، كل الأشرعة مفرودة، كانا ينقلان كليوباترا وآخر الأوفياء الذين ظلوا معها، حوالي مئة جندي، خادمتها شارميان، وحاجبها أبولودور الصقلي. مدعّماً شهادة شارميان، كان هذا الأخير قد استطاع أن يقنع الملكة، المهددة بالموت، بمغادرة الإسكندرية. واعياً بالخطر، كان الصقلي قد هيأ، في المرفأ الخاص لأنتيروديوس، مركبين محمَّلين بالمؤن والجواهر والأكياس المليئة بالقطع الذهبية والفضية والبرونزية. بواسطة تلك الثروة، ستواصل كليوباترا قتال أعدائها.

أقنعت تلك الحُجة المرأة الشابة، وقلبها ممزق، بمغادرة عاصمتها. لكن إلى أين ستلجأ، أي وجهة ستتبع؟ أمام الذهول العام، قررت الملكة أن تسلك القناة التي تقود إلى النيل ثم تتجه نحو الجنوب.

لم يكن قد سبق للجنود الذين يمثلون الحرس الخاص للملكة أن غادروا الإسكندرية ولم يكونوا راغبين في اكتشاف مصر مجهولة، مأهولة بفلاحين عدائيين.

عندما بزغ الصبح، كانت كليوباترا في مقدمة المركب. أحضر لها حاجبها خبزاً وحليباً.

- لماذا هذه المجازفة؟ سألها أبولودور.

- وحده إله قديم يمكن أن يقدم لي المساعدة؛ كرمته في سنتي الأولى من الحكم، وأنوي طلب قُوته.

كان الصقلي رجلاً مديد القامة، في حوالي الثلاثين؛ عيناه سوداوان، وجبينه مربع، يحمل شارباً مهذباً، كان يجهل التعب ويُكنّ إعجاباً خالصاً للملكة الشابة التي كان مستعداً لأن يموت من أجلها.

- طردتني الإسكندرية، لكني سأعود إليها، وعدت كليوباترا؛ وهذه المرة، لا أحد سينتزع مني المُلك. هذا اليوم يؤشر لبداية إعادة الفتح؛ ستصطف أقاليم الجنوب تحت سلطتي، وسيكنس جيشي الجديد جيش القزم بطليموس!

- لا أشاركك تفاؤلك، صاحبة الجلالة.

مغتاظة، رمقت الملكة حاجبها بنظرة ساخطة.

- كيف تجرؤ على التحدث معي بهذا الشكل؟

- وعدت نفسي بأن أكون صادقاً وأن أتفادى كل مجاملة. كنتِ عمياء ولم تكوني حذرة من الخصي فوتان والمؤدِّب ثيودوتوس، المتآمران اللذان خططا لاغتيالك بموافقة شقيقك؛ حالياً، هم أسياد العاصمة والبلد بأكمله. بسبب إصلاحاتك النقدية، يكرهك السكندريون؛ هم سيهتفون لأسيادهم الجدد الذين لن يقولوا الحقيقة وسيعدونهم بمستقبل زاهر. الجنوب؟ تجهلين كل شيء عنه. سكانه يكرهون الإغريق وعاداتهم، ويعتبرونهم محتلين؛ بالنسبة إليهم، الإسكندرية مدينة أجنبية، ثُؤلول رهيب يتمنون استئصاله. لماذا سيساعدونك، أنت، الإغريقية؟

ظلَّت كليوباترا صامتة لفترة طويلة. اقترف الصقلي خطأ فادحاً ولم يكن يشك في أنه سيُعزل؛ مع ذلك، لم يكن نادماً على تدخله.

ربما أثبتت المرأة الشابة أنها ليست ساذجة وفهمت أن مخططاتها معرضة للفشل.

- واصل التحدث معي بهذا الشكل، أبولودور، ولا تتردد في أن تضع إصبعك على أخطائي. أحتاج إلى مستشار مثلك، ولا تركن إلى المجاملة. أنت محق بلا شك؛ لكني لن أتراجع، لأني لا أملك خياراً آخر. هل تتصورني مختبئة في حفرة مجهولة أو في حالة فرار دائم؟ سأقاتل، وإذا هُزِمْت، سأموت والسلاح في يدي.

- سأكون إلى جانبك، صاحبة الجلالة.

*

مرة باندهاش، ومرة بقلق، اكتشف المسافرون وادي النيل، ضفافه المخضرة المحفوفة بالبَردِي، القرى الجاثمة على الروابي الصغيرة، بساتين النخيل، وجود الفلاحين في مظهر هادئ، سير الحمير المحملة بالأثقال. حيّت مجموعات من الأطفال مرور المركبين، أطلق رجال يحملون المذار الشتائم.

من حسن الحظ، كانت الملكة تتوفر على بحَّارة ممتازين؛ بسبب وجود أكوام الرمل والتيارات العنيفة، لم تكن المِلاحة دائماً سهلة. أمضت كليوباترا نهارها بالكامل تتأمل جمال البلد الساحر؛ اكتشفت معابد، لمحت أهرامات على حدود الصحراء، انتشت من الألوان الدافئة ومن روعة المشاهد.

مرت ساعات المِلاحة كأنها حُلم وغيّرت رؤية المرأة الشابة.

إغريقية، هل هي فعلاً كذلك؟ منحتها مصر روحاً جديدة تستطيع أن تحس بعظمة وعمل الأسلاف، قبل حكم سلالة البطالمة. ألا تمنح لها تنحيتها القرصة لأن تحس بطبيعتها الحقيقية، المختبئة في إرث آبائها التافه؟ توقفت كليوباترا شيئاً فشيئاً عن أن تكون أجنبية

لتصبح مصرية؛ أجل، هذا البلد بلدها ولم يكن يقتصر على روائع الإسكندرية.

بعد عشرين يوماً من السفر، وصل المركبان إلى مشارف مدينة أرمنت، على بعد حوالي عشرين كيلومتراً جنوب «طيبة ذات المئة باب»، المدينة الرائعة التي احتفل بها هوميروس. طيبة التي نهبها وخرَّبها الفُرس، عاصمة فراعنة الدولة الحديثة تنام، كلها حنين لمجدها الماضي.

أعطت كليوباترا الأمر بأن يرسو القاربان. أمسك الجنود أسلحتهم. لم يكن أبولودور يشك في أن يكون قد تمَّ الإعلام بوجودهم وكان يخشى مواجهة أولى مع السلطات المحلية.

رغم تحذيرات خادمتها شارميان، أصرَّت الملكة على أن تكون أول من يهبط المعبر الخشبي، في مقدمة رجالها؛ وهي متشنجة، كانت تنظر حولها، تخشى هجوماً بالنبال.

هرع القرويون محتارين؛ من تكون هذه الشابة الرائعة، التي ترتدي فستاناً أبيض من الكتان الملكي، وتتزين بتاجٍ وقلادة وأساور من ذهب؟

شق رجال شرطة الجمعَ؛ متسلحين بالهراوات والسيوف القصيرة، توقفوا على بعد خطوات من الدخيلة.

أبعد رجل ستيني، أسود الشعر، معاونيه وظهر في المستوى الأول بهيئة فَظّة وتفحّص القادمة.

- أنا كليوباترا، ملكة مصر العليا والسفلى، وتجب عليك طاعتي.

كان رئيس الشرطة مبهوراً.

- أنت... أنت تتحدثين المصرية؟

5

كانت كليوباترا الوحيدة بين البطالمة التي تتحدث المصرية؛ كانت قد تعلّمت أيضاً العبرية، والسورية، والفارسية، والبارثية، والإثيوبية وعدة لغات أخرى، بما فيها لغة «رحّل الرمال»، قبائل البدو التي تهاجم القوافل.

- ما اسمك؟ سألته الملكة.

- باكوم، صاحبة الجلالة. . . أنا استراتيجي[1] إقليم طيبة، قائد قوات الأمن والمسؤول عن المالية المحلية. . . لم يعلمني أحد بمجيئك و. . .

- قُدني إلى مقر إقامتك، وقدِّم الطعام لحاشيتي.

رافق أبولودور وجنديان الملكة. مسحوراً، سار باكوم بخطوات مسرعة وسلك دروباً كي يصل إلى بناية خربة بطابقين.

- أرمنت ليست غنية، صرَّح الاستراتيجي، وهو يحس بالإحراج؛ وحاكم الإقليم لا يعيرها الكثير من الأهمية. أنت. . . أنت فعلاً الملكة كليوباترا؟

اكتفت الملكة بالابتسام.

---

(1) اللقب الذي أطلقه البطالمة على كبار المسؤولين في الإقليم.

- لحظة، من فضلك!

أسرع الاستراتيجي نحو مقر الإدارة، أيقظ الموظفين النائمين، طلب منهم تنظيف قاعة الضيوف بسرعة وكذلك تحضير الأكل. كان للزوبعة غير المنتظرة نتائج إيجابية، ولم تحتج كليوباترا إلى أن تنتظر طويلاً.

على منضدة قصيرة حساء الفول، وسلطة، وعدس بالثوم، وبيض، وجبن المعز، وتمر.

- الطعام متواضع، استنكر باكوم؛ وهذه الأطباق لا تليق بجلالتك! لكن يوجد الكثير من البؤس، هنا...

جلست الملكة على حصيرة.

- حدثني عن معاناة الفلاحين.

أحنى الموظف رأسه.

- تلزمني أيام بأكملها!

- هل الوضع بهذه الخطورة؟

- ميؤوس منه تقريباً، قدَّر باكوم بصوت متعَب؛ لا تعير حكومة الإسكندرية أي حساب لاحتجاجات الشعب وتفرض عليه ضرائب تسحقه. التقارير المحذِّرة التي أرسلتها إلى رؤسائي ظلت من دون جواب، وردّ فعلهم الوحيد هو إرسال رجال الشرطة الذين ينتشرون في القرى ويجلدون المتمردين. استتب الأمن، أقرُّ بذلك، لكن مقابل أي ثمن؟ ولا أذكر تزايد عدد الموظفين! هم يتكاثرون مثل الجراد ويقتاتون من عمل الكادحين. تمَّ إخماد الثورات الأخيرة، تمَّ رمي العديد من الضحايا إلى النيل... والغضب يشتعل من جديد. الأدوات الفلاحية في ملكية الدولة، أغلبية المحاصيل تعود إليها،

معدل الإنتاج مفروض، الفلاحون السيؤون يعاقبون. إما أن يخضعوا لمتطلبات الإدارة، وإما أن يتنازلوا عن زراعة القطعة الأرضية التي يخصصها لهم رئيس الإقليم ويموتوا جوعاً. والنهر نفسه يرفض مساعدتنا، بما أن الفيضانات الأخيرة كانت ضعيفة.

بملامح محفورة، جلس باكوم بدوره ثم قام في الحال.

- عفواً، صاحبة الجلالة، لم تسمحي لي، أنا...

- اجلس، أرجوك، ولا تخفِ عني شيئاً.

استمعت كليوباترا باهتمام إلى شكاوى الموظف، الذي كان سعيداً لأنه فتح قلبه أخيراً، ووصف بالتحديد معاناة مواطنيه اليومية. لم يُتْعِب حديثه المطول، ولا لحظة، الملكة التي اكتشفت عالماً مجهولاً.

توقف باكوم، بعد أن جفَّ حلقه.

- هل ترغبين في قليل من الجِعَة، صاحبة الجلالة؟

وافقت كليوباترا، ملأ الاستراتيجي قدحين. لم يجرؤ على مواجهة نظرة محاورته، كان خائفاً من أن تقوم بعزله.

قالت المرأة الشابة:

- هنا، في أرمنت، أعلن أمامك سنة حكمي الأولى. أنا لا أتحمل الجور وسأبذل كل ما في وسعي كي أضع حدّاً له. الإسكندرية بعيدة جداً عن البلد الذي أتأمله... شكراً لأنك أنرت بصيرتي.

لم يصدق الاستراتيجي أذنيه؛ إذا كانت هذه الأميرة هي كليوباترا، الإغريقية سيئة السمعة، كيف يمكن أن تهتم بمصير الشعب البسيط؟

- أنت لا تصدقني، باكوم، وأنت مخطئ في هذا. طردني

شقيقي بطليموس من العاصمة، بتواطؤ أرواحه الملعونة؛ المتخمون بانتصارهم الآني، وهم يقلِّلون من تصميمي.

رغم إعجابه، لم يخفِ الاستراتيجي تشاؤمه.

- صاحبة الجلالة، أنت لا تتصورين قوة جهاز الشرطة؛ بوليس حكومة الإسكندرية في كل مكان، هم يراقبون كل شيء وكل أحد. إذا لم تتحكمي به، فقد حكمت على نفسك.

- أنا لا أتحكم به. أقرت كليوباترا.

- إذن، اهربي أبعد ما يمكن من هذا البلد وانسيه!

- سيكون ذلك معقولاً، لكن لا يمكنني التنازل.

- في هذه الحالة، صاحبة الجلالة، ستموتين!

- ألن يقدم لي إله مدينتك مساعدته؟

تعجَّب الاستراتيجي.

- عِجلنا المقدَّس؟

- في بداية ما اعتقدته حكمي، حييت مجيء الحيوان الصغير الذي اختاره الكهنة كي يخلف سابقه؛ اليوم، أنا أرغب في الالتقاء به، وحدي معه.

- راعينا...

- قدني بالقرب منه.

خلال حياته، كان الاستراتيجي قد التقى بشخصيات عنيدة: لا واحدة تضاهي شخصية المرأة الشابة ذات الصوت الرخيم والعينين الساحرتين. محاولة مقاومتها كانت عبثاً.

تحت حراسة رفقتها المتواضعة، خرجت الملكة من المدينة وسلكت الطريق المؤدية إلى حظيرة عِجل أرمنت المقدَّس.

كأنه انطلق من الشمس، قام صقر برسم دوائر كبيرة فوق الموكب ثم طار فوق الملكة أقرب مما كان منها باكوم، رفع أبولودور والجنود أذرعهم من أجل حمايتها؛ لكن كليوباترا ظلَّت ثابتة.

أثارت هذه الإشارة الاستراتيجي؛ الآلهة لا تتجلَّى صدفة، لكن لغتها ليست دائماً سهلة الفهم. ألا يقدِّم الإله حورس، مؤسِّس دولة الفراعنة القديمة، الذي يتجلَّى في صورة صقر، دعمه لهذه المرأة الشابة؟

6

منذ أجيال عدة، كانت الثيران المقدسة للإله مونتو، سيّد الحرب الذي يأخذ هو أيضاً شكل صقر ويجعل الفرعون منتصراً خلال معاركه مع الظلام، تدفن باطن الأرض رفقة أمهاتها، الممثلات الدنيويات للبقرة السماوية الهائلة التي تتغذى الكائنات النورانية من حليبها. بعد أن تحنط بحسب الأصول، تقيم أُسَر البقر والثيران الحاكمة للأبد داخل «معبد المبدأ الخلَّاق».

كان الثور يُدعى بوخيس، الشيء الذي يعني «تعبير النور الإلهي»؛ من أفضل منه كان قادراً على التعبير عن قوته؟

- دعوني وحدي. أمرت كليوباترا مرافقيها.

- لا تدخلي إلى الحظيرة. طلب باكوم؛ أكرر ذلك، العِجل بوخيس سريع الهيجان!

كان أبولودور يخشى أن تتصرف الملكة كما يحلو لها ولم يكن الحاجب مخطئاً.

رأس أسود وشعر أبيض، كان الحيوان المثير يتوفر على مكان فسيح ولم يكن ينقصه شيئاً؛ عند نهاية حياة هانئة وحفلات يزيَّن خلالها بالزهور والجواهر، سيعوضه خلف يشبهه في كل شيء وستعبد أمه أيضاً.

عندما اقتربت المرأة الشابة، اتَّسع أنف الثور وأصبحت عيناه عدائيتان.

- أنت، المتحدث باسم رع، قدِّم استقبالاً جيداً لملكة مصر السفلى والعليا! طلبت كليوباترا؛ جئت أطلب قوتك، ليس من أجلي، لكن من أجل بلدي ومن أجل شعبي. الحرب تتهيأ، أعدائي خطرون؛ اجعل ذراعي لا يهزم، امنحني شجاعة لا تنضب.

حفر بوخيس الأرض بحافره، وتحرك ذيله. تقدمت كليوباترا ومدت ذراعها في حركة توسل.

- فلتكن ترجماني عند النور الخالق الذي يمنح الحياة؛ لتقم روحك بتخصيب روحي.

رفع الثور رأسه فجأة وتأمل المتوسلة.

استعد أبولودور كي يتدخل، لكن باكون أمسكه.

- لا أحد يجب أن يعترض حركة العِجل المقدس؛ لو تجرأت، ستُعدم.

كان قرنا بوخيس سميكين ومدبَّبين؛ كان يكفيه أن يستعد ويندفع إلى الأمام كي يبقر المرأة الشابة الثابتة والمستغرقة في التأمل.

ثم، تحدث الإله.

مبهورين، رأى أبولودور وباكوم والجنود شمساً تنبثق من جبهة الحيوان وتكوّن قرصاً تربَّع بين قرنيه. كان كثيفاً، بحيث غلَّف إشعاعه كليوباترا بالضوء، وجعلها غير مرئية خلال ثوانٍ طوال لأعين الأحياء.

ثم بددت ريح جنوبية الحجاب غير الحقيقي؛ أصدر بوخيس خواراً والتحق بأمه التي كانت ترعى العشب.

متأثراً، أصبح باكوم، حالياً، يعرف أن كليوباترا هي التي اختارتها الآلهة.

*

انتشر خبر المعجزة سريعاً عبر أرمنت، ومن أجل إكرام ضيفته الشهيرة، أعدَّ الاستراتجي وليمة دعا إليها جميع السكان. في تلك الأمسية، كان النبيذ والجِعَة وفيرين، وخلال بضع ساعات نسي الناس قساوة الحياة اليومية.

رغم كونها ودودة، تستمع إلى شكاوى أهم موظفي المدينة، بدت الملكة غائبة، كما لو أن مقابلتها للعِجل المقدَّس وتحاورها مع روح الشمس تواصلت إلى عمق الليل.

أزالت بهجة الاحتفالات غير المنتظرة كل رغبة في النوم، ووحدها أشعة الفجر الأولى وضعت حدّاً للشرب والغناء والرقص. التحق جنود كليوباترا بقاربيهم، ولم تستطع شارميان ولا أبولودور مقاومة النوم، الذي استولى أيضاً على الاستراتيجي ومواطنيه.

صاحية تماماً، تحرِّكها طاقة جديدة ومجهولة، اجتازت الملكة المنطقة المزروعة وسلكت طريقاً يؤدي إلى الصحراء. الأرض الحمراء والقاسية تجذبها بطريقة لا تقاوم؛ ألم يشيِّد فيها القدماء مساكنهم الأبدية؟

داست المرأة الشابة على الرمل الناعم بقدميها الحافيتين وتذوقت هواء الصباح الباكر النقي. لماذا أفلتت منها السلطة؟ لأنها حبست نفسها في الإسكندرية البراقة، بعيداً من أرض أسلافها، حارمة نفسها من حكمتهم وقوتهم.

بفضل تدخل بوخيس، أعادت كليوباترا ربط علاقات كانت قد تحطمت؛ لكن يجب توطيدها في مواجهة هذه المحنة وجعلها لا

تهدم. كانت الإسكندرية شرنقة في منأى من مصر الحقيقية، وهْم يبدده عنف هذه الصحراء حيث لم يكن الأحياء مرحّباً بهم؛ رغبت الملكة في تجربة نفسها ومعرفة ما إذا كانت جديرة بالنور الذي منحه إياها العِجل المقدَّس.

الوحدة. . . ستكون شرط الانتصار. حتى الناس يتملقونها، يهتفون لها، يشعلون البخور، ستبقى الملكة وحيدة ولن يكون لها من مدد سوى نارها الخاصة، تلك النار التي ستُنير هذه المرة بصيرتها.

فجأة، رأتها.

واقفة، لسانها، المشقوق نصفين، يخرج من فمها في فترات متقاربة، كانت الكوبرا الملكية تقطع عليها الطريق. غارقة في أفكارها، استيقظت الملكة بغتة، قريبة جداً من الزاحف بحيث لم تستطع الهرب.

أقل حركة ستتسبب في هجوم ساحق ومميت. توقفت كليوباترا عن التنفس، محاولة التقاط نظرة الزاحف المفترس، المتهيِّئ للهجوم.

الكوبرا الملكية. . . ألا تزيِّن تاج الفراعنة، ألا تطلق شعلة تفترس أعداءهم؟ كأنها تمثال، قلبها يخفق بشدة، رفضت الملكة اعتقاد أن هذه الحية، المحملة بالسحر، ستضع حدّاً لحياتها.

- فلتنعمي بالسلم. أمر صوت جهوري، جعلت نبراته العميقة الملكة ترتعش.

استدارت الكوبرا نحو رجل مسن، طويل القامة، حليق الرأس، يرتدي رداء أصفر. جدية وجهه الذي حفرته التجاعيد العميقة كانت مخيفة.

- اذهبي إلى جحرك، أمر الرجل الزاحف.

منقادة، ابتعدت هذه الأخيرة؛ ثم أدار الرجل ظهره للملكة.

- انتظر! من أنت، منقذي؟

توقف مروِّض الثعبان.

- اسمي هرمس.

7

وقفت كليوباترا بمحاذاة الرجل المدهِش.

- كيف تسيطر على هذا الحيوان المخيف؟ أريد أن أعرف!

تفحَّص الرجل المرأة الشابة.

- وأنت، من تكونين؟

- الملكة كليوباترا.

- إغريقية من الإسكندرية...

- ملكتك، التي تدين لها بالاحترام!

كانت نظرة الساحر محتقرة، حتى إن الملكة لم تستطع أن تجيب.

- أنتم، الإغريق، أطفال مُدّعون، بلا تقاليد ولا روحانية؛ تقتصر فلسفتكم على ضجيج كلمات تنقصها الفعالية. ارجعي إلى بيتك، ملكة كليوباترا، ولا تغامري أبداً في الصحراء.

- أستطيع أن أصدر أمراً بتوقيفك!

- وترغميني على الاعتراف بأسراري تحت التعذيب؟ لا تضخمي من قدراتك، وارجعي إلى عاصمتك الإغريقية، بعيداً من مصر.

- هذا البلد ملكي!

شبك هرمس ذراعيه.

- اكتشاف حديث، كما يبدو لي.

- وإن كان!

- لماذا هذا الاهتمام المفاجئ؟

أمام هذا الغريب، ذي الجاذبية المفرطة، أحسَّت كليوباترا بأنها لا يجب أن تخفي الحقيقة.

- مهددة بالموت، اضطررت إلى مغادرة الإسكندرية، أريد أن أضم الأقاليم إلى قضيتي كي أستعيد السلطة.

- الخصي فوتان والمتواطئان معه، المؤدِّب ثيودوتوس والجنرال أخيلاس، لن يظلوا مكتوفي الأيدي.

فتحت كليوباترا عينين مندهشتين.

- أنت... أنت تعرفهم؟

- هم يحركون شقيقك الصغير، بطليموس، المغتر بالسلطة، ولن يرتاحوا قبل أن يروا جثتك.

- هل أنت حليفهم؟

- لو كان الأمر كذلك، لكنت ميتة الآن؛ الكوبرا الملكية لا تخطئ ضحيتها أبداً.

- إذن، أنت توافق أن تساعدني!

- أنقذت حياتك وسأعود إلى الصحراء.

- هل يجب أن أتوسل إليك؟

ركعت كليوباترا وفتحت ذراعيها، وتجرأت على غرس نظرتها في نظرة هرمس.

- هذا السفر غيَّرني، اكتشفت بلدي الحقيقي! كان والدي رجلاً فاسداً، عاجزاً وحقيراً، ولا أنوي أن أشبهه. في داخلي، المصرية

قضت على الإغريقية؛ لا تشكك في رغبتي الوحيدة، أن أمنح المجد والازدهار لأرض الفراعنة. لن يكون لحياتي معنى آخر بعد الآن.

ظلَّ هرمس صامتاً لثوانٍ عديدة، مكتفياً فقط بتأمل الملكة المعزولة.

ثم أمسك يدها بحزم وأنهضها.

- هل أنت واعية بالصعوبات التي يجب عليك اجتيازها؟

- بكل تأكيد لا، لكن أية أهمية؟

- هل تعرفين الخوف؟

- يعصر أحشائي، وأقاومه!

ابتعد هرمس.

- كيف أحسست أمام العِجل المقدَّس؟

- بقوة النور، بالرغبة العمياء في أن أمتزج بها. والريح شتتت حلمي... أحتاج إلى قوة بوخيس كي أخرج إلى الحرب!

- وهل تتخيلين النتائج؟

- وهل يوجد طريق آخر؟

رسم هرمس بسبابته شكلاً بيضوياً على الرمل.

- ها هو الرمز الذي يحتوي على اسم الفراعنة، الذين ولدوا من السماء وسيؤول مصيرهم إليها؛ ينير الكون ضمائرهم من أجل أن يضعوا الحقيقة محل الكذب، والنظام محل الفوضى، والاستقامة محل الظلم، والعدل محل الجور. نسي البطالمة هذه الواجبات، داسوا على المؤسسة الفرعونية التي أسَّسها الآلهة، وعبدوا الملتوية الكبيرة، العُمْلَة التي رفض القدماء استعمالها. عالمك هو عالم الانحلال والفساد، المجرم مفضل على الرجل المستقيم، الدسائس السياسية تعوض الحكامة الجيدة. لا يفكر الأقوياء سوى في

مصلحتهم، يحتقرون الشعب ويسحقونه بالضرائب التي يفرضونها عليه. هذه هي اللعنة التي تسبب بها الإغريق، غير قادرين على إدراك الانسجام السري للكون، مفضلين العلم على المعرفة، مفتخرين بفلسفتهم التي تهدم الحس الإبداعي، بخطاباتهم الجوفاء ونقاشاتهم المتواصلة التي لا تفضي إلى شيء. وهذه النخبة المزيفة، آفة حقيقية، أدخلت الرق إلى مصر، وفرضت على المرأة وضعية أقل، جاعلة إياها تابعة للرجل.

- أنا الدليل على العكس! قالت كليوباترا محتجة.

- ألم تكوني مجبرة على الزواج من أخيك؟

- حكمت وحدي و. . .

- فطردتِ.

كانت كلمات هرمس كأنها ضربات عنيفة، لكنها أزاحت الغشاوة.

- كنت أظنني تعلمت الكثير، اعترفت المرأة الشابة؛ لكني ألاحظ أني كنت أجهل واقع بلد راسخ في أعماق قلبي. هل توافق على أن تعلِّمني علمك، هرمس، وأن تواصل تنوير عقلي؟

بدت قامة الساحر تتمدد أكثر فأكثر.

- ما هي رغبتك الحقيقية، أيتها الملكة الشابة؟

- أن أُعيد لمصر مجدها الماضي بممارسة حكم عادل.

- مهمة مستحيلة. . .

- على الأقل، سأكون قد حاولت!

- وجودك على المحك.

- لا أريد فعل شيء آخر، و. . .

نظر هرمس بعيداً، كأنه يحاول استشراف المستقبل.

8

تحت إلحاح الصقلي أبولودور وشارميان، خادمة كليوباترا، وافق الاستراتيجي باكوم، رغم الأخبار السيئة التي وصلت إليه، على إرسال سَرية للبحث عن الملكة التي اختفت منذ ساعات. أين ذهبت، هل كانت ضحية لقاء سيئ؟

كان الجنود يستعدون للانطلاق عندما ظهرت الملكة، رفقة رجل قوامه مثير ونظرته تفرض الاحترام.

أسرعت شارميان.

- صاحبة الجلالة! هل أنت سليمة؟

- كوني مطمئنة.

- من هو هذا الرجل؟ سألها الصقلي، مشككاً.

- الساحر هرمس، مستشاري الجديد.

رأى باكوم أن عليه أن يتدخل دون إبطاء.

- صاحبة الجلالة، لا يمكنك البقاء هنا! عليك الرحيل حالاً.

سيطرت الملكة على حنقها.

- لأي سبب؟

- لم يعد وجودك سراً، أُخطِر أحد مرؤوسي الحامية الإغريقية

في طيبة من أجل أن تعمل على إيقافك. ابتداء من الغد، ستأتي جموع غفيرة.

- ألن تدافع عني أنت وأرمنت، بجانب جنودي؟

أحنى الاستراتيجي رأسه.

- ستكون حماقة. لا نملك أي فرصة للانتصار، وسيقضون علينا. إذا كنت ترغبين في الحفاظ على أرواحنا، فلتهربي صاحبة الجلالة!

- أي اتجاه نأخذ؟ سأل أبولودور.

- تجنبوا النيل، اقترح باكوم؛ في الشمال. . .

- تبقّى صحاري الشرق والغرب، لاحظ الصقلي.

- سنموت فيها من الحرِّ والعطش والجوع! قالت شارميان، مرعوبة لفكرة الضياع في ذلك الوسط العدائي، المليء بالأهوال والكائنات الخطيرة.

كم تتحسر الخادمة على قصر الإسكندرية! ومع ذلك، ستظلُّ وفية لملكتها.

- لا يوجد سوى حل واحد، حسم هرمس؛ الخروج من مصر والذهاب إلى شمال فلسطين حيث ربما ستجد الملكة كليوباترا حلفاء.

ظلَّ باكوم واجِماً.

- مستحيل، مستحيل تماماً! يجب اجتياز الصحراء، شراء سفينة، السير بمحاذاة شاطئ البحر الأحمر، الوصول أبعد من الدلتا والصعود نحو الشمال باجتياز بلدان مليئة بالبرابرة والقطّاع.

- تماماً، أقر هرمس.

- وأنت، ستكون الدليل؟

- أنا، لا ؛ لكني أعرف واحداً.

- هنا، في أرمنت؟

- فلتتبعني الملكة.

لم تتردد الملكة؛ رافقها أبولودور مرتاباً.

سلك ثلاثتهم مجموعة من الأزقة التي تفضي إلى الطرف الجنوبي للمدينة.

بيتٌ أبيض متواضع بطابق واحد، بستان بُقول وحقل برسيم يرعى فيه حمار رمادي.

شخير قوي يعكر صفو نهاية ظهيرة هادئة. مسنداً ظهره إلى بئر، ينام عجوز ضعيف البنية، غير حليق، ملء جفنيه.

توقف هرمس على بُعد خطوتين من النحيل.

- اصحَ، أيها العجوز.

تجعدت الجبهة، ارتعد الذقن، تحركت الشفتان، ثم ارتفع الجفنان ببطء.

- من... آه، لا، ليس أنت! دعني أستريح، أنا منهَك.

- ألا تدين بالاحترام لملكة مصر؟

تفحصت نظرة قلقة المكان حولها. عندما لمح كليوباترا، اتَّكأ العجوز على مرفقيه ونهض.

- هي؟

- هي، أكد هرمس.

- أنت تمزح؟

- أنا لا أمزح.

- كان الأمر ليكون رائعاً... معك، ليس أبداً وقت المزاح!

تمدد العجوز، ثم نهض ليس من دون عناء.

- صحيح أنها جميلة، الملكة! فيمَ يعنيني الأمر؟
- نحتاج إلى خدماتك.
فرك العجوز عينيه.
- لا، لا أطمح سوى إلى الراحة! المغامرات، انتهت.
- حتى لو تعلَّق الأمر بإنقاذ ملكتك من المجرمين الإغريق؟
دمدم العجوز حائراً.
- هنا، الأمر مختلف... هل هو أمر جدّي؟
- جدّي تماماً، أكدت كليوباترا. إما أن تكون دليلي، وإما سأموت.
- وكان يجب أن يتسلط الأمر علي... كأن الآلهة لا تتركني!
- هل تقبل أن تساعدني؟ سألته الملكة.
- الإغريق، ينفخون رأسي ومعدتي! ثم إن نظرتك صريحة... لكني لست وحدي من يقرر.
- من غيرك؟
- حماري، ريح الشمال؛ إذا رفض، أعود إلى النوم. هو ليس من النوع الذي يفعل أي شيء.
كان الرمادي يملك جسماً متناسقاً. يزن حوالي ثلاثمئة كيلو، ارتفاعه حوالي متر وأربعين سنتمتراً، فمه وبطنه أبيضان، ذيله قليل الشعر، عيناه بنيتان كبيرتان، كان من سلالة تتمتع بقوة استثنائية.
اقترب العجوز، رفع الحمار رأسه.
- ريح الشمال، ها هي ملكة مصر وحتماً حفنة من المتاعب. لسنا في الجنة، صحيح، لكن قد يكون الأمر أسوأ. سفر عبر الصحراء، مثلاً.
أنصت الحمار باهتمام.

- عندي سؤال واحد أطرحه عليك: هل نذهب؟

إذا ارتفعت الأذن اليمنى، فالجواب هو «نعم»؛ إذا كانت اليسرى، فهو «لا».

كان العجوز ينتظر تصرفاً معقولاً من لدن حمار متمرس؛ وكانت الأذن اليمنى هي التي ارتفعت.

- هل فكرت جيداً؟

حافظ ريح الشمال على جوابه.

- يا إلهي، دمدم العجوز؛ لم أكن أتوقع هذياناً من هذا النوع! هل أنت مدرك؟ لم يغير الحمار رأيه.

مستاء، عاد العجوز بخطوات ثقيلة إلى مسكنه وأفرغ محتوى جرة من النبيذ الأبيض. كان يحتفظ بها من أجل المناسبات المهمة.

- قرارك؟ سألته كليوباترا بينما كان يستمتع بآخر قطرة.

- لسوء الحظ، لا أعرف أن أكذب، وريح الشمال فقد عقله... باختصار، سنذهب.

- بحسب باكوم، الساعات معدودة.

- هذا شيء لا يدهشني! طيب، سأهتم بكل شيء؛ سيكون عندنا الحمير والجِمال الضرورية. أحذرك، ملكة مصر: هذا السفر اللامنتهي لن يكون فترة فسحة.

9

كان مسرح الإسكندرية يعجُّ بجموعٍ صاخبة نفد صبرها؛ أخيراً، ستضع السلطات حدّاً للشائعات التي تسري في المدينة. موت كليوباترا أو انتصارها، مقتل الصغير بطليموس، استقالة الوزراء. . . لم يكن أحد يعرف ماذا يصدّق، في انتظار إعلان رسمي من فوتان، رئيس الحكومة.

كانت النخبة المعتادة على ارتياد قاعة الرياضة والتردد على المكتبة والمسرح، تنتظر خطاب رجل العاصمة القوي.

أدهش ظهور الصغير بطليموس الثالث عشر، يحيط به الخصي فوتان وأستاذ الأدب ثيودوتوس، الحضور. كان يرتدي لباساً أصفر، ويضع تاجاً باللونين الأحمر والأبيض، يذكّر بتيجان الفراعنة. أمسك صولجاناً على شكل عصا الراعي، رمز السلطة، وتقدم بوجه رزين.

رفع فوتان يده، توقفت المحادثات؛ تعلَّق الكل بشفتيه.

- مواطنو الإسكندرية، عندي أخبار مهمة! غادرت كليوباترا مدينتنا مع شرذمة من المتمردين، رافضة الاعتراف بشرعية ملكنا، بطليموس الثالث عشر! هذه الملكة غير الجديرة حاولت تصفيته، لكن الجنرال أخيلاس استطاع إنقاذه؛ متأكدة من أنها ستحاكم، هربت كليوباترا. سنجدها وسنعاقبها! فترة دامِسة تنتهي، الإسكندرية

في سلام مرة أخرى؛ سيكون حكم ملكنا مجيداً، سيضاعف ازدهار عاصمتنا اللامعة. فلنهتف، بصوت واحد، من أجل بطليموس!

ألهب خطاب فوتان القصير الحماس؛ حيَّا السكندريون، الذين تخلصوا من كليوباترا غير الشعبية، استحواذ الطفل المتوج على السلطة، والذي نهض واقفاً تقديراً لتلك الحماسة.

*

انتفض بطليموس.

- أنا الملك، أنا الملك! فلتحضروا الحلويات!

- اهدأ، صاحب الجلالة، حثه ثيودوتوس وهو ينزع التاج المزدوج؛ لا تدع الهتاف يخدرك.

تمرَّغ الصبي على أرضية قصره الرخامية، ثم نهض وأخذ يقفز.

- نفّذ أوامري!

أمسك الأستاذ بمعصمي تلميذه.

- أكرر: اهدأ.

- سمعت الجموع؟ أنا من يحكم!

- الآن، ستتعشى وستذهب لتنام.

عبس الصبي.

- لن آكل سوى الحلويات.

- أوقف هذه الأهواء! تتطلب وظيفتك حدّاً أدنى من الكرامة.

منزعجاً، تحرر الصبي.

- سأقتلك ذات يوم!

- في انتظار ذلك، إلى المائدة؛ هدّأت موسيقى عازفي الكنّارة أعصابه.

هزَّ بطليموس كتفيه؛ لأنه كان يحس بالجوع، انصاع لأوامر المؤدِّب.

*

لم يكن أحد من رجال البلاط ليتغيب عن مجلس الأوصياء الذي يترأسه فوتان؛ كانت العاصمة بلا شك تصدِّق التصريحات الرسمية، لكن هل تقول الحقيقة؟ لم يكن رئيس الحكومة قادراً على أن يكذب على الأعيان المكلَّفين بتطبيق سياسته.

طرح رجل ستيني ذو ذقن ثلاثي السؤال الذي كان يؤرق البلاط:

- أين توجد كليوباترا؟

- وصلنا أنها توجد في أرمنت، في مصر العليا، أجاب فوتان.

- هل تمَّ إيقافها؟

- ليس بعد.

- تظلُّ خطرة إذن!

- ليست سوى هاربة، ترافقها جماعة من الجنود الضائعين الذين لن يتوانوا عن تركها. اعتبروها ميتة.

- نودُّ أن نرى جثتها في الإسكندرية.

- ستلتهمها النسور، وعد فوتان؛ فلننسَ تلك الساحرة ولنهتم بتعزيز سلطة بطليموس. سيثبِّت الجنرال أخيلاس الأمن. أنا وثيودوتوس سنعيد بناء ازدهار مدينتنا الجميلة دون أن نمس امتيازات الأعيان الأوفياء لملكنا والداعمين المتحمسين لسياستنا.

دمدم الجمع من الارتياح.

- والرومان؟ قال أحد الموظفين الكبار بقلق.

- يتصارع جنرالان حتى الموت، قيصر وبومبي؛ فلننتظر نهاية الصراع، وسنهنِّئ المنتصر.

- وإذا حاول اجتياحنا؟

- روما لديها هموم كبيرة كي تفكر في إرسال جيش ضدنا؛ هذه المدينة المدَّعية يجب في البداية أن تتفادى الحرب الأهلية والمجاعة. فلتكونوا مطمئنين، أصدقائي: بعد أن تختفي كليوباترا، ستستعيد الحياة مجراها الطبيعي.

بعد الخروج من المجلس الكبير، تحدث ثيودوتوس، الذي كان قد ظلَّ صامتاً، مع الخصي على انفراد.

- نالت تصريحاتك إعجاب هذه العقول الضعيفة، اعترف ثيودوتوس؛ ولم تعد أيدينا مكبلة.

- استمر في التحكم في الصبي المزاجي، وبالأخص لا تدعه يضع أنفه في أعمالنا!

- ما هي الأخبار الحقيقية الخاصة بكليوباترا؟ سأله المؤدِّب.

- كان فوج من طيبة على وشك أن يقبض عليها، لكنها نجحت رفقة حفنة من التابعين لها في الهرب. لن تمنح لهم الصحراء أدنى فرصة للنجاة.

- هل أنت مقتنع؟

- كلام جنودنا قاطع.

بدا ثيودوتوس مطمئناً.

- بقي خطر لا يستهان به: أرسينوي، أخت كليوباترا الصغرى. تلك الطموحة ذات العادة السيئة في طرح العديد من الأسئلة.

- سأتولى الردّ عليها، أكد فوتان؛ فلنجعل أعيننا عليها ولنعزلها

إلى أقصى حدّ. إذا أصبحت مزعجة، سيتولى الجنرال أخيلاس إغلاق فمها.

بعد أن أحسَّا بالرضا، تناول الصديقان غداء ممتازاً؛ كان المستقبل يبدو واعداً.

10

من دون ريح الشمال، الذي كان يسير على رأس القافلة، والعجوز الذي كان يحدد فترات الراحة ومدتها، لم تكن كليوباترا وأتباعها لينجحوا في اجتياز الصحراء التي تفصل إقليم طيبة عن أحد المرافئ الصغيرة على البحر الأحمر. متحملين الحرارة، والرياح الرملية، والبراغيث وحشرات أخرى، كان عليهم تفادي دوريات الشرطة المكلَّفة بالبحث عن الهاربين. من حسن الحظ، لم يتعرض أي منهم لعضة أفعى أو لدغة عقرب، ولم يجد الساحر هرمس نفسه مسؤولاً سوى عن معالجة بعض الإصابات الطفيفة.

ذلك السفر الشاق دعّم الروابط التي جمعت أعضاء الفرقة الصغيرة، وكان الجميع معجبين بشجاعة كليوباترا، القريبة من رجالها، الداعمة، والتي كان مزاجها دائم الاعتدال. كانت الخادمة شارميان أكثرهم تعباً، لكن النشاط عاد إليها بمجرد أن رأت البحر؛ كانت دائمة التفكير في أسكندريتها، مسقط رأسها، وفي ترف القصر. كان أبولودور يشك في نهاية سعيدة لهذه المغامرة الحمقاء، لكنه لم يكن يساوم بولاءه للملكة التي كان ليتبعها إلى أقصى الأرض.

في الليل، وهي تراقب السماء المليئة بالنجوم، كانت كليوباترا

تسأل هرمس، الذي وافق على أن يعلِّمها علم الفلك عند قدماء المصريين، الشيء الذي كان يُكمل ويعمِّق المعرفة التي حصلت عليها خلال الساعات الطوال التي أمضتها داخل مكتبة الإسكندرية. لم يكذب العلماء الإغريق عندما أكدوا أنهم تعلموا كل شيء من حكماء مصر الفرعونية، واكتشفت الملكة إرثاً مهماً اعتبرت نفسها مسؤولة عنه.

- الشيء الأهم، لاحظ العجوز وهو يتوجه نحو المرفأ الصغير؛ هو أننا لم نعطش.

هذا النبيذ الأحمر غير المعتَّق يزيل العطش بشكلٍ أفضل من الماء.

- وأنت تعرف جميع الآبار، ذكّرته كليوباترا.

- الأصعب يبدأ الآن: إقناع أحد ملَّاك البواخر بأن يبيعك باخرته.

باخرتان راسيتان، حوالي ثلاثين حِرَفياً يشتغلون، بعض البحَّارة يلعبون النرد.

صاح رجل سمين وملتحٍ، رئيس الورشة البحرية، وقبضتاه على وركيه، في القادمين.

- أيها العجوز، لم نرَك منذ مدة طويلة... من تكون، صاحبة كل هذا الجَمال؟

- ملكة مصر.

أخذ الملتحي في الضحك.

- وأنا، أكون بطليموس الجديد!

- مهما يكن، تابع العجوز؛ انْحَن واظهر احترامك للملكة.

غاب المرح عن رئيس الورشة.

- دعاباتك لا تضحكني! ماذا تريد؟
- ترغب ملكتنا في شراء باخرة.
- آسف، ذلك مستحيل! هي في ملكية الجيش وليست للبيع.
- يمكن أن نتفق...
- لن نستطيع. أنا لا أريد مشاكل.
- ومع ذلك قد تحدث المشاكل، قال العجوز متأسِّفاً؛ نحن نريد هذه الباخرة.
- لا تصرّ، عزيزي، سيكلِّفك ذلك.
- سيكون من السخف أن نتقاتل. بما أنك لا تدع لنا الخيار...
اقترب هرمس وحدَّق في الملتحي.
- أنت تكذب.
تراجع الرجل بعد أن أحس بالإثارة.
- لا، أنا...
- إحدى الباخرتين الراسيتين ليست للجيش. أنت وجماعتك من القراصنة استوليتم عليها في عُرضِ البحر وقتلتم أصحابها، تجّار الأخشاب الثمينة.
تصبب الملتحي من العرق.
- سنضعف وندفع لك تعويضاً ولن نبلغ عنك قوات الأمن الحاضرة هنا؛ أنت محظوظ، جد محظوظ، وستحاسب على جرائمك أمام محكمة الآلهة.
- سيوقفكم الجنود، هم...
- سيواصلون استراحتهم إذا أعلنت لهم أننا مشترون ومفاوضون شجعان. سارع بالتحدث إلى رئيسهم وحاول أن تكون مقنِعاً.

مسحوراً، سارع رئيس الموقع إلى الاستجابة.

بينما كان يتحدث إلى العسكري، سارع العجوز وأبولودور إلى العمل؛ تمَّ إنزال أحمال الحمير والجِمال، وتمَّ نقل الثروات والمؤن إلى الباخرة دون تضييع للوقت.

كانت كليوباترا قادرة على تقييم المراكب: هذا الأخير سيقاوم البحر.

احتدَّ النقاش بين رئيس مفرزة الجنود والملتحي؛ لم تقنع تفسيرات الحِرَفي محاوره.

تدخّل هرمس، وأعلن:

- سيكون العقد رسمياً، ولن يضطر البائع إلى الشكوى.

- من أنت، سأله العسكري، عصبياً؛ من هي المرأة التي...

- هدّئ من روعك، صديقي، أمره الساحر؛ وفكِّر في حدائق الإسكندرية الرائعة. الهواء معطَّر، وأنت تنام في ظلٍّ إحدى أشجار الجميز، إحدى الخادمات تناولك جِعَة باردة، وأخرى تُمسِّد ظهرك. يغلبك النعاس، تنسى همومك، فتنام، وتنام...

حاول العسكري أن يقاوم، لكن جفنيه انغلقا، ارتخت عضلاته ثم اضطجع على جنبه. أنهى الساحر إغراقه في سبات عميق، بينما كان جيش كليوباترا الصغير ينهي نقل المؤن تحت أعين الجنود الأعداء غير المبالية، بما أنهم لم يتلقوا أية أوامر، واصلوا الشرب ولعب النرد.

تمَّ رفع الأشرعة وأقلعت الباخرة؛ غادرت المرفأ والتحقت بعُرض البحر، تدفعها رياح قوية. قدَّر ريح الشمال سريره من القش ووجبة الفواكه والخيار؛ بعد أن أحس بالارتياح، فتح العجوز جرة من النبيذ الأبيض.

في مقدمة المركب، تأملت كليوباترا الأفق.

حقاً، كانت قد أفلتت من قتلة بطليموس وفرقته، لكن كيف ستكون نهاية هذا السفر الجديد؟ عدد أتباعها القليل لم يكن يسمح لها باقتراح هجوم مضاد وعِلم هرمس، رغم قوته، لم يكن كافياً كي يأتي لها بالنصر.

كل يوم تكفيه أحزانه؛ غداً، سيتجدد الأمل.

11

سماء زرقاء، رياح مواتية، بحر هادئ. . . كان العبور سريعاً وسلمياً. عندما أرادت السفينة أن ترسو، بدا القلق على سحنة العجوز.

- المكان[1] خطير، حذرهم العجوز؛ تجولت في النواحي عندما كنت شاباً، كنا نتعارك بشدة. سنحاول المرور شرق بيلوز، متفادين في الوقت نفسه الدوريات المصرية ورُحَّل الصحراء الذين يهاجمون القوافل ولا يترددون في قتل التجّار.

- هل يوجد ما يكفي من الآبار؟ قالت شارميان بقلق، حزينة لمغادرة الباخرة حيث تذوقت راحة مُرَمّمة.

- يجب أن نتصرف برزانة وألا نتحرك في الساعات الحارة. في حالة الخطر سيُحذِّرنا ريح الشمال.

غادرت الفرقة الصغيرة الباخرة والتحقت بمعسكر لأصحاب الجِمال؛ بعد حديث مطوَّل، استطاع العجوز شراء حوالي عشرة جِمال بثمنٍ معقول. ساوم أيضاً صمت البائعين، الذين لم يكونوا راغبين في إثارة فضول السلطات المصرية.

- إلى أين تقودنا؟ سألته كليوباترا.

---

(1) خليج السويس.

- إلى أقصى فلسطين. المنطقة مليئة بالمرتزقة والهاربين من الجيش الروماني والذين يكرهون نظام الإسكندرية؛ إما أن تجنّديهم، وإما أن يضربوا عنقك. ما زال الوقت كافياً لتتراجعي وتبحثي عن ملجأ آمن.

- إلى الطريق.

*

كان التقدم بطيئاً وشاقاً. عدة مرات في اليوم، رفع الحمار أذنيه ورفض أن يتقدم؛ كان العجوز يسارع حينئذ بجعل الجِمال تبرُك، ويتوزع جنود كليوباترا بحيث يكونوا مستعدين لصدِّ المعتدين. مرات عديدة، لاحظ المراقبون شرطة الصحراء والبدو المغيرين في البعيد؛ بفضل الحماية السحرية التي كان يستعملها هرمس، تفادوا كل مواجهة.

بالقرب من مدينة عسقلان، لاحظت شارميان تعب كليوباترا الشديد وأخبرت هرمس، الذي كان مستغرقاً في استشارة النجوم. ذهب قرب الملكة المتمددة على حصيرة، تحت إحدى الخيام.

كانت المرأة الشابة تتنفس بصعوبة.

- أفرطت في تقدير قوتك، أعلن الساحر؛ ألم يحن الوقت كي تعودي أدراجك؟

- توعك بسيط بسبب برودة الليل! هل أنت قادر على معالجتي؟

- هل ما زلت مصممة على توظيف أتباع جدد ومحاربة شقيقك؟

- هذا هو قدري.

أخرج هرمس من جيب ردائه حجراً أسود ووضعه على صدر الملكة.

- هذه التميمة مصدرها من الحجر الإلهي، الذي خُلِق عند الاحتفال بأسرار أوزوريس؛ إذا نجحتِ في أن تحكمي، لا تتجاهليها.

كل الفراعنة تعلَّموها، لأنه من المستحيل أن يحكم المرء بالعدل دون أن يعرف أسرار الموت والحياة. ستكون ليلتك هانئة، وغداً تسترجعين عافيتك.

*

أيقظ شعاع ضوءٍ كليوباترا؛ لم تكن تحس بأي ألم ونهضت بنشاط. رفعت طرفاً من خيمتها، واستمتعت بالشمس المشرقة.

أسرعت إليها شارميان.

- صاحبة الجلالة، هل شفيت؟

- هذا اليوم يبدو رائعاً؛ سنقهر عسقلان.

توقعت الخادمة أن تكون ساعتها قد حانت؛ رغم إصرارها وشجاعتها، كانت الفرقة الصغيرة غير قادرة على التمكن من المدينة الآهلة بالمحاربين الأشداء.

- صاحبة الجلالة... ألا يجدر بنا مواجهة الحقيقة؟

- طبعاً، شارميان! تأملي هذه المدينة: قريباً ستكون تحت أرجلنا.

نادت كليوباترا جنودها؛ بمجرد أن اجتمعوا، خطبت فيهم.

- تبعتموني إلى هذا المكان مجازفين بحياتكم، ثقتكم تشرفني؛ نحن قليلون، لكننا متَّحِدون إلى درجة أن أي اختبار لا يبدو لنا عسيراً. حاول متآمرون قتلي، لكنهم فشلوا؛ اليوم، هم يتصورون أنني هُزِمت، هم مخطئون! بفضلكم، أنتم جنودي الأوفياء، سأستعيد العرش الذي سُلِب مني. معاً، سننتصر! وأولى مراحل التحرير هي عسقلان.

كان صوت كليوباترا آسراً؛ رغم أن وعودها كانت وهمية، أراد الشجعان تصديقها والهتاف لها.

*

العملاق الذي خرج من المدينة كان رومانياً هارباً من الجندية، فرَّ من سجن الإسكندرية؛ كان قد فرض نفسه كزعيم حامية تتكون من محاربين قدامى من أصول مختلفة تستغل جبن المدنيين المستعدين لتلبية أقل رغباتهم.

كان الروماني ثملاً: أجانب أتوا إلى باب مدينته! صَحَا من سكره فجأة، ارتدى ثيابه على عجل ليقابل بنفسه الخصم المحتمل.

الجماعة البئيسة أدهشته؛ على الأرجح لا تشكل أي خطر.

- قائدكم! قال آمراً.

خرجت كليوباترا من الصف.

- امرأة، دمدم الروماني مذهولاً.

- أنا ملكة مصر؛ انضم إلى دعوتي، وستحصل على المجد.

هزَّ العملاق رأسه ثم بصق.

- أنت تهذين، يا امرأة! بإمكان تأديب جيد أن يصلِّح أفكارك.

رفع قبضته وهدد المتعنت المرأة الجريئة؛ لكن كليوباترا لم تتراجع.

طار طائر أبو منجل أسود برأس أبيض فوق المعتدي، وغلفه بظلٍّ جليدي؛ تخلخل الروماني، حاول الإفلات عبثاً من ذلك الكفن، تحت نظرات هرمس الهادئ الأعصاب. كان طائر تحوت، إله الكلمات المقدسة والمعرفة، قد قام بمهمته بتحرير طريق تلك التي تسعى إلى إعادة تثبيت المؤسَّسة الفرعونية.

خرج الجميع من عسقلان، مرتزقة ومدنيين، وانحنوا أمام كليوباترا، وهم يدوسون جثة طاغيتهم.

12

كانت النسور تنقر بقايا الجثث، روائح مروعة تصعد من ساحة معركة فارسالوس، شمال اليونان، في التاسع من أغسطس سنة (48-). أجساد من دون رؤوس، أعضاء مشتتة، أرض ارْتَوت بالدم، حرارة شديدة. . . في قمة رابية يغطيها الحصى، كان الإمبراطور يوليوس قيصر يتأمل منظر انتصاره المروِّع.

رغم قلة تفوقه العددي، كان فيلقه العاشر، الخبير والمنظَّم، قد صرع جيش بومبي شديد التفاوت. هذه المرة، بعد مواجهة طويلة، جاء النصر تاماً ونهائياً.

وجه هزيل، جبين حفرته التجاعيد تحيط به أذنان كبيرتان، أنف مهشم، شفتان رقيقتان ومرسومتان، ذقن حاد، جسم قوي، كان قيصر قد ولد في الثاني عشر من يونيو سنة (100-)، وكان يقدم نفسه كسليل لفينوس والبطل إينيس؛ ألم يكن يكنَّى روميلوس الجديد، مؤسِّس روما الأسطوري؟

كان قد تلقى تكويناً ممتازاً، رجل قانون وفيلسوف، يتحدث اليونانية بكفاءة كما يتحدث لاتينية منقحة، كان قيصر قد سلك مساراً مهماً. زعيم عسكري، قنصل، قنصل سابق، وحتى بونتيفيكس ماكسيموس، كان قد أصبح جنرالاً ذا كفاءة لافتة. بعد أن انتصر في

حرب بلاد الغال، تصادم مع حليفه القديم، بومبي العظيم، غازي الإمبراطورية الشرقية لروما، والذي كرمه مجلس الشيوخ سنة (61-).

كانت الحكومة الثلاثية المكوَّنة من قيصر وبومبي وكراسوس، والتي تجمع كل السلطات، قد انحلَّت؛ بعد موت كراسوس أصبح قيصر وبومبي، اللذان استحالت مصالحتهما، وجهاً لوجه. بعد أن تمَّ تعيينه قنصلاً وحيداً سنة (52-)، كان هذا الأخير يصبو إلى التخلص من غريمه، المُبعد من روما؛ لكن قيصر كان قد اجتاز الروبيكون، على مسؤوليته الخاصة، في يونيو سنة (49-)، وقرر مواجهة قوات مجلس الشيوخ التي يقودها بومبي.

وهناك، في فارسالوس، انتهت الحرب الأخوية القاسية. بنقل الصراع إلى الشرق، كان بومبي يعتقد أنه سيُنهِك قيصر؛ بعد فشل فخ البلقان، كان الشرك اليوناني يبدو ألا منجاة منه.

أعطت ساعات المعركة الأولى الحق لبومبي؛ من دون ذكاء قيصر التكتيكي وشجاعة رجاله، كانت الهزيمة لتكون حتمية.

تقدم روفين، ابن عبد مُعتَق، ملازم الجنرال المنتصر، من سيده الذي يكرِّس له حياته. مجعّد وحيوي، مربّع الكتفين، تغطي صدره ندوب، شفته العليا مشقوقة، كان خائر القوى.

- توقفت كل مقاومة، لم أرَ أبداً من قبل هذا العدد من الموتى والجرحى. الأغلبية لن يظلوا على قيد الحياة.

- خسائرنا؟

- مهمة، لكن بقي لك جيش قادر على القتال. من دون مناورتك في آخر لحظة، كنا سنُسحق. كانوا كُثراً، كثراً جداً. . .

- بومبي؟

- نبحث عن جثته.

- أتوق إلى تأمله؛ التقطوا الأسلحة.

متغلّباً على تعبه، نفّذ روفين الأمر.

كان بومبي قد ارتكب خطأ فادحاً: جنَّد العديد من الأجانب والمرتزقة، مكوِّناً كتلة تصعب قيادتها. قيصر، من جهته، كان يفضِّل حركة وصرامة المقاتلين المتمرسين، سريعي التصرف. كان رجاله يُكنّون له احتراماً حقيقياً، متأكدين من أنه يقودهم دائماً إلى النصر.

كم قطعوا من طريق منذ بلاد الغال، كم من معركة، كم من فتوحات! كم كانت وعرة الطريق المؤدية إلى السلطة العليا؛ مزروعة بالمزالق، بالجثث والمعاناة، تتطلب صلابة وصفاء ذهن. كان قيصر قد شكّ، حتى تردد، لكن لم يتراجع؛ أبعد من شخصه، مجد روما يجب أن يستمر في إشراقه، وأشخاص منحطون مثل بومبي كانوا يهددونها. لماذا استمات في القتال، بدل أن يعترف بتفوق خصمه ويتفادى صراعاً طويلاً ودامياً؟

كانت حرارة صيف اليونان حارقة؛ ومع ذلك ظلَّ قيصر محتفظاً بمعطفه الأرجواني كقائد عام، المعطف المطمئن والذي يمكن رؤيته من بعيد. كان رجال الفيالق يقدّرون شجاعته ويعرفون أنه معجب بهم؛ على عكس أغلبية النبلاء، لم يكن منتصر فارسالوس يزدري الشعب وكان أحياناً يُبدي كرماً مفاجئاً نحو بسطاء الشعب.

عاد روفين بوجه رصين.

- خبر سيئ؟ سأله قيصر.

- هرب بومبي.

- بأية طريقة؟

- على ظهر سفينته الأخيرة، بمساعدة حفنة من الناجين؛ بحسب العديد من الشهادات، كان سالماً.

- في هذه الحالة، الحرب لم تنتهِ.

هذه الكلمات، كان روفين يخشى سماعها.

- رجالنا منهَكون، لكن ليس لي الحق في أن أحرمهم من انتصارهم.

- ألم يصبح بومبي غير مؤذٍ؟

- أنت واهم، روفين، هو ليس له سوى فكرة في رأسه: تكوين جيش جديد والخروج إلى الحرب. سنتبعه، ونعترض طريقه، ونمنعه من أن يلحق بنا الأذى. سأحضره إلى روما حيث سيُحاكم بتهمة خيانة الدولة. فليستعد أسطولنا للإبحار.

- أليست الحاجة الملحّة هي معالجة الجرحى؟

نظر قيصر إلى روفين الذي كان ينتظر احتجاجاً عنيفاً.

- أنت على حق. ضمن بومبي تقدماً، لكننا سنلحق به؛ بمجرد أن تنهي مصلحة الصحة عملها، سنُبحر.

سارع الملازم بتوزيع التعليمات؛ في حين انزوى قيصر في قمرة السفينة الأميرالية من أجل مراجعة خريطة البحر الأبيض المتوسط وتحديد طريق بومبي، هذا الأخير كان له أولويتان متلازمتان: أن يكون في أمان وأن يجد حليفاً قادراً على تزويده بالقوات.

بعد تفكيرٍ شديد، وجهة مفضلة: مصر. ألم يكن بومبي هو منفّذ وصية بطليموس الثاني عشر الراحل، والذي خلفه صبي وفتاة؟ لم يكن الجيش المصري ليستهان به، سيفرض نفسه على رأسه بكل يسر.

لا، الحرب لم تنتهِ بعد.

13

رغم أن نبيذ عسقلان لم يكن من أجود الأصناف، إلا أنه كان يتيح للعجوز أن يروي عطشه. بسبب الحرارة المفرطة، كان يقضي أيامه في الظل، مستغرِقاً في قيلولات طويلة ونائماً على سطح البيت المتواضع الذي خصّص له. بالقرب منه، كان ريح الشمال يتوفر على إسطبل بسقف من جريد النخل وطعام لائق.

كان العجوز يقدّر فترة الراحة تلك، رغم حذره من الشعب المختلط وعدد المرتزقة ذوي الأخلاق المشكوك فيها. هنا، كل شيء يساوم، ولم تكن للحياة قيمة كبيرة؛ الهدوء الظاهر كان يخفي عنفاً مستعداً للانفجار.

كانت معجزة طائر أبي منجل قد أثارت مختلف رؤساء الجماعات، الذين أصبحوا يحترمون كليوباترا ولا يستطيعون التعرض لحراسها المقرَّبين؛ كان حضور الساحر هرمس، الذي كانوا يخشون قدراته، حماية لا يستهان بها، لكن هل ستكون دائمة؟

بعض الأعيان كانوا يدمدمون ضدّ هذه الملكة المعزولة؛ ماذا كانت نواياها، كم من الوقت تنوي البقاء في عسقلان، ألن تجلب غضب بطليموس؟

تلك المغامرة المجنونة لا يمكن إلا أن تنتهي بشكلٍ سيئ، وكان العجوز يستعد للرحيل.

*

محصَّنة بشكل جيد، كانت مدينة عسقلان تتمتع بازدهار أكيد واستقلال نسبي؛ عُمدتها، تاجر زيوت، كان يسمح بالعديد من الأنشطة التجارية شريطة حصوله على تعويضات. كان يدفع بسخاء لمن هم في خدمته الأمنية، يعيش في فيلا فخمة حيث أسكن كليوباترا، مع حاجبها والخادمة.

بدلاً من أن تتسكع، كانت الملكة تستقبل سكان عسقلان، سوريين وفلسطينيين ورومانيين فارين من الجيش، وعبيداً هاربين، وكانت تدهشهم بالتحدث بلغتهم. على مرِّ الأيام، لم تفتأ شعبيتها تتزايد، وبدأ العُمدة يستاء من ذلك.

دعته الملكة إلى العشاء، وبصوتها الرخيم دعته إلى الجلوس قبالة البحر.

- ألست مغتاظاً؟

- صاحبة الجلالة...

- أشكرك على استقبالك وأتمنى ألا يعكر شيء صفو علاقتنا الجيدة؛ إذن كن صادقاً.

معتاداً على المراوغة، لم يستطع سيد عسقلان أن يقاوم سحر المرأة الشابة الغريب.

- وجودك قد يصبح... خطراً.

- أنا واعية بذلك.

لم يكن العمدة ينتظر جواباً مشجِّعاً بهذا الشكل.

- إقامتك... هل ستنتهي؟

- سيكون أحد الحلول، بالفعل؛ لكن عندي مشروع آخر.

انكمشت جبهة قاضي الشرطة. خشية أن يجفَّ حلقه، ناوله أبولودور قدحاً من النبيذ القوي.

- أنت تكره بطليموس وجماعته، حددت كليوباترا؛ استولوا على عرشي، وغداً سيتعرضون لمدن مستقلة مثل مدينتك. اعتقادك أنك في منأى سيكون غلطة مميتة، لأن حيوانات الإسكندرية المفترسة تعاني من تعطش للثروة لا يمكن إرواءه. عسقلان طريدة مشهية لن تتأخر في أن تجذب أطماعهم.

هزت حجج الملكة العُمدة؛ هل سيتحطم كل ما شيّده بصبر في لحظة؟

- هل عندك حل كي نمنع هذه الكارثة، صاحبة الجلالة؟

تذوقت كليوباترا بعض حبَّات العنب.

- أظن ذلك، لكن مساعدتك أساسية بالنسبة إلي.

- ماذا تنتظرين مني؟

- أنت تدير مدينتك بطريقة مهمة وتتفادى أية مواجهة بين رؤساء الجماعات وتجعل الأمن مستتباً بفضل ميلشيات مستفيدة من الوضع؛ هذه القوات، بالإضافة إلى المرتزقة والجنود الضائعين الذين يتسكعون في المدينة، تستطيع أن تكون جيشاً.

- جيشاً... فيمَ سينفع؟

- في استرجاع الإسكندرية.

- ومن... سيقوده؟

- أنا، كليوباترا.

- صاحبة الجلالة، أنت...

- امرأة وملكة البلد. فلنكن مقتنعين بذلك، لا يوجد حل آخر؛ جماعة بطليموس تعتقد أني ميتة أو غير قادرة على إلحاق الضرر. لن

تتخيل رجوعي على رأس محاربين مهمين، قادرين على سحق قوات أخيلاس.

أصبحت نظرة العُمدة سوداء.

- أخيلاس... هذا الأخير، أودُّ أن أرى جثته تحترق! ولست الوحيد. كاذب وسارق وناهب... هو لا يستحق أن يعيش!

- هو الذي كان مكلَّفاً بقتلي، صرحت الملكة؛ حالياً يستطيع تنفيذ أعمال بطليموس الشنيعة من دون إزعاج. تركه يواصل التصرف حُكْم علينا، أنا وأنت، بالموت.

كان العُمدة مقتنعاً تقريباً؛ بقيت صعوبة كبيرة.

- الجنود الذين سيكونون جيشك سيأتون من آفاق مختلفة، لكن سيكون لهم هدف واحد: الحصول على أقصى قدرٍ من المال. هل تتوفرين على ما يكفي من الموارد؟

- لم أغادر الإسكندرية بيدين فارغتين وسأوفر مرتبات ممتازة.

- كم من الوقت، صاحبة الجلالة؟

- الوقت اللازم؛ هذه الحرب ستكون غير منتظرة ووجيزة. يجب أن نتدخل بسرعة، قبل أن يقوم أخيلاس بهجوم على المدينة.

- كيف أساعدك؟

- سنستقبل رؤساء الجماعات والضباط كل على حدة في البداية، ثم مجتمعين؛ يجب أن نضمن انضمامهم، ونفرض عليهم الطاعة ونعلن شروطنا.

- وإذا قوبلنا بالرفض؟

- لن يكون الوضع كذلك، وعدت كليوباترا، مبتسمة؛ سيرى جيش التحرير النور، وسأسترجع عرشي وأكافئ حلفائي. ثروتك اليوم ليست شيئاً مقارنة مع ثروة الغد.

14

يحيط به الوجهاء، مكسواً بالذهب والمجوهرات من طرف كليوباترا، عمل عُمدة عسقلان على تكريم ضيفته بسكِّ نقود بصورتها؛ رسمياً، كانت ملكة الإسكندرية الأسبق تكتفي بقدرها وتمضي حياتها في المدينة الصغيرة المحصَّنة مسترخية على شاطئ البحر.

استعادت الخادمة شارميان ابتسامتها؛ بعد السفر المروِّع عبر الصحراء، أصبحت من جديد قادرة على تحضير الحمَّامات المعطَّرة للملكة، وتسريح شعرها وتزيينها وإلباسها الفساتين الخفيفة التي جاءت بها من الإسكندرية. أما بالنسبة إلى الحاجب أبولودور، فقد كان يختار أفضل مواد المنطقة ويتذوق الأطباق التي تقدَّم على مائدة كليوباترا التي كان ذكاؤها، وبراعة إجاباتها، وسرعة بديهتها، وحسها الفكاهي يبهج حتى أكثر الناس شراسة.

في بضعة أسابيع، كانت الملكة قد غزت القلوب؛ بما أنها كانت تكتفي بتلك العيشة العاطلة فهي لم تكن تشكل أي خطر على عسقلان. هذه الكوميديا كانت تخفي حقيقة جد مختلفة؛ بفضل مساعدة العُمدة، كانت المرأة الشابة قد تقدمت بخطوات جبارة. خلال ليلة الصيف الدافئة تلك، كانت تستعد لجمع كل ضباطها المستقبليين كي تحدثهم بشأن الهجوم.

كانت بعض المحادثات مريرة، والنقاشات ضيقة؛ بالنسبة إلى العديد من المحاربين، قبول قيادة امرأة كان كأنه يقلل من شأنهم. دون أن ترفع صوتها، تمكنت كليوباترا من إقناعهم، وأخذ العديد منهم يتحدث عن موهبتها الآسرة.

أضاء شعاع القمر هرمس، كان الساحر جالساً يحرِّر نصّاً مطولاً بيدٍ خفيفة ومتمرسة؛ نزلت الملكة من شرفتها ووافته إلى الحديقة.

- أرجو ألا أزعجك؛ مضت مدة طويلة منذ لم نتحدث.

- ألا تملأ الحرب فكرك؟

- هل أنا مخطئة؟

- هل أنت مستعدة لرؤية الدم يسيل، لسماع صراخ المحاربين وأنين الجرحى، لجمع الهاربين وتكبد الخيانات؟

- إذا كان هذا هو الثمن كي أستعيد عرشي وأحكم مصر العليا والسفلى متّبعة طريق أسلافي الحقيقيين، الذين شكلوهما على مدى آلاف السنين، أنا مستعدة.

- يجب عليك التحكم في رزمتك من المرتزقة.

- ستكون الليلة حاسمة؛ أليست النجوم مؤيدة؟

تأمل هرمس السماء المليئة بالنجوم.

- هل تستطيعين أن تتحلي بالصبر وأن تنتظري حدثاً يتجاوز إرادتك؟

أزعج السؤال المرأة الشابة.

- لدي ما أدفع به مرتبات قواتي لبضعة أسابيع... الوقت محسوب علي، يجب أن أضرب بسرعة وبقوة.

- لا أحد من البشر فوق قانون السماء، كليوباترا؛ أن تنسي هذا، يعني أنك تحكمين على نفسك بالفشل.

- الصبر، الحظ... ترف لا أستطيع السماح به لنفسي!

- من حدثك عن الحظ؟ قوات تشتغل وتتحرك دون علمك؛ حاولي إدراكها، كي تتجنبي كارثة.

- أفضلها على عدم الحركة!

- عندما ستواجهين أول عقبة كبيرة، لا تهملي كلامي.

عضت المرأة على شفتيها.

- ماذا تكتب، هرمس؟

- أكرِّس تعاليم القدماء بحيث أحافظ على حكمتهم؛ نحن لسنا سوى طين وتبن، الخالق الأساسي يخلق ويفني في كل لحظة، ووحده عمله الغامض يهم. هل ستفتحين عينيك وأذنيك، هل ستستطيعين رؤيته وسماعه؟

بدأ رؤساء الجماعات والعسكريون يفدون إلى القصر.

- إذا انتصرت، هل ستساعدني؟

اكتفى هرمس بنظرة مصالحة. بعد أن أحست بالاطمئنان، قصدت الملكة قاعة الاجتماع حيث كان أبولودور يملأ كؤوس حوالي ثلاثين رجلاً لبّوا دعوة الملكة.

فرض ظهورها الصمت؛ حتى المقاتلون الفخورون برجولتهم أُعجِبوا بكليوباترا التي تتمتع بسلطة طبيعية.

قدَّم رجل أصهب ذو عضلات قوية نفسه على أنه المتحدث باسم رفاقه في السلاح.

- قبل أن نثمل، فلنناقش الأمور الجادة! نحن محاربون، ولسنا دبلوماسيين؛ وأنت، ملكة، تودين أن تكوني على رأس جيش سنكون ضباطه!

- بالفعل.

- وهذا الجيش، ماذا سيكون هدفه؟

- الاستحواذ على الإسكندرية.

هذا الإعلان الوجيز سبَّب دهشة الجميع.

- مستحيل، قدَّر الأصهب؛ ستسحقنا الجيوش المصرية!

- هل ذراعك ضعيف؟ تلك الجيوش، أنا أعرفها! في مواجهة خصوم عازمين، لن تصمد طويلاً.

نهض رجل ملتحٍ مهيب.

- بينما نحن نحارب، ستقيمين هنا، في عسقلان؛ من سيعطي الأوامر؟

- أسأنا فهم بعضنا: أنا، ولا أحد غيري، سيكون على رأسكم! سيراني فاسدو الإسكندرية، وسيجمّد حضوري الدم في عروقهم. الخطر لا يرعبني؛ حتى لو كان الموت يهددني، لن أهرب.

سَحَر إصرار المرأة الحضور؛ إلى وعد براتب غير متوقع أضيف إعجاباً حقيقياً بمتزعمة الرجال.

- لا داعي لأن نخدع أنفسنا، أضافت كليوباترا؛ ستكون خسائرنا فادحة. للمنتصرين، الذين اختارتهم الآلهة، أقدم وعداً بالاعتبار والثروة.

- المخاطر جسيمة، شجب الأصهب.

- إذا كان الخوف يقضم بطنك، اذهب؛ لن أندم عليك.

منزعجاً، اختار المحتج الصمت.

- سؤال مهم يفرض نفسه، قالت الملكة؛ هل يتوفر شجعانكم على أسلحة كافية؟

- ليست بأقل من أسلحة العدو، قدَّر الملتحي؛ أنا قلق أكثر بخصوص الحصص.

- سيتكلف حاجبي بمصلحة التجهيز، ولن يضطر جيشي إلى الشكوى. هل من متطلبات أخرى؟

لم يتحدث أحد.

- إلى البدر التمام المقبل، قررت كليوباترا؛ سننطلق نحو الإسكندرية.

15

رغم قلة حماس بطليموس، تلميذه الملكي، كان على ثيودوتوس المؤدِّب أن يواصل إصراره.

- صاحب الجلالة، أعد قراءة قصائد كاليماخوس هذه و. . .

- إنها تشعرني بالملل. ما أريده هو أن أصبح قائداً كبيراً للجيش. من أجل هذا، يجب أن أكون قوياً وآكل المزيد من الحلويات؛ بعد ذلك سأقتل كل أعدائي وسيركع الجميع أمامي.

- الاحترام لا يجب أن يكون مرفوقاً بالحمق والحرب دائماً أسوأ الحلول. الإسكندرية مدينة الشعراء والفنانين والعلماء؛ بتثقيف نفسك تستطيع أن تتحاور معهم.

- مثل كليوباترا؟ هذا لا يهمني! انظر إلى أين قادها ذلك. . . أنا، سأكون قائداً للجيش.

أراح دخول فوتان المؤدِّب الذي كان يحس أحياناً بالرغبة في التخلي عن مهامه الصعبة والعودة إلى المكتبة من أجل الاستمتاع بأعمال الكتّاب العظام. لكن الثالث عشر من البطالمة، المغتاظ، كان ليأمر بقتله بتهمة الخيانة العظمى.

- هل جلالته في صحة جيدة؟ سأله فوتان.

- أتضور من الجوع! وأخذت قراراً: تقديم ساعة الغداء.

نظراً إلى الجدية التي بدت على وجه فوتان، الذي كان بلا شك يحمل أخباراً مقلقة، استسلم ثيودوتوس.

بينما كان بعض الخدم يسرعون، انفرد الرجلان في مكتب رئيس الحكومة الذي كانت نوافذه تطل على المرفأ. كانت إحدى طاولات الرخام مغطاة بالرسائل.

- انتصر فيلق قيصر العاشر علىٰ قوات بومبي في فارسالوس، كشف الخصي.

- غير ممكن! اندهش ثيودوتوس؛ ألم يكن هذا الأخير متفوِّقاً من حيث العدد؟

- الشهادات تتوافق، والوقائع ثابتة.

- هل قُتِل بومبي؟

- لا، هرب؛ وهذه هي مشكلتنا! قيصر يتبعه، وبومبي يبحث عن ملجأ وحلفاء قادرين على إمداده بالجنود.

- بطريقة أخرى، مصر!

جلس فوتان، وزنه جعل كرسي خشب البان يئن.

- لا يحق لنا أن نخطئ، صديقي؛ إما أن نساند بومبي وإما قيصر.

- لم يعد لبومبي جيش!

- بمجرد وصوله، سيفرض علينا تسليمه قيادة جيشنا الأكثر تفوقاً من جيش قيصر.

- إذن سيصبح سيد مصر الحقيقي!

- أليس ذلك أيضاً هدف قيصر؟

- لا شك في ذلك، قال ثيودوتوس؛ لكن هو، بخلاف بومبي، لن يمنح ثقته سوى للجنود التابعين له.

- كيف يمكن أن نستغل صراع هذين الضاريين ونحافظ على استقلالنا دون أن نغضب روما؟ يجب ألَّا ننسى أن بومبي هو منفِّذ وصية الراحل بطليموس الثاني عشر، وأنه يعتقد تبعاً لذلك أن له حقوقاً علينا!

حرَّكت ابتسامة خفيفة شفتي ثيودوتوس.

- سأقترح عليك خطة.

تكلَّم العلامة بصوت خافت، كان فوتان منتشياً؛ هذا هو السبب الذي يجعله محتاجاً إلى هذا المثقف، ملتوٍ وفاسد حتى إنه يجد مخرجاً للحالات الأشد تعقيداً.

- خطة متبناة. حسم سيد الإسكندرية، في اللحظة التي سمعا فيها باب مكتبه يقرع بعنف.

دخل الجنرال أخيلاس يرافقه أصهب قوي العضلات.

- هذا الشاب يحمل أخباراً مخيفة! هيا، تكلم!

متأثراً، وجد القوي صعوبة في أن ينطق.

- جئت من عسقلان... الملكة كليوباترا...

- ماذا، كليوباترا؟ قال فوتان مندِّداً.

- هل هي... حية!

- هل فقدت عقلك، قدَّر ثيودوتوس.

- لا، لا، وصلت إلى عسقلان مع حاشيتها واستقرت عند العُمدة. امسك، سكّوا عملة بصورتها.

ناول الأصهب القطعة إلى المؤدِّب الذي تأملها محتاراً.

- سأرسل فوجاً، قرر فوتان؛ سيعيدها إلينا مسلسلة. وإذا حاولت المدينة مقاومتنا، سنمحيها.

- فات الوقت. أكد الأصهب، مسبباً دهشة الجميع.

- ماذا تريد أن تقول؟ سأله ثيودوتوس.

- حشدت كليوباترا جيشاً؛ هي تستعد لمهاجمة الإسكندرية.

- هذا الرجل أحمق! عبَّر فوتان وهو ينهض.

- هي على قيد الحياة ووظفت مرتزقة، أكد الأصهب؛ أنا، رفضت إطاعتها وفضلت أن أعلمكم. هذه المرأة عنيدة وخطرة؛ لا تستخفوا بالخطر.

- هذه الشهادة تبدو لي جدية، قال الجنرال أخيلاس؛ عدم أخذ التدابير اللازمة سيكون خطأً فادحاً.

- بماذا توصي؟ سأله ثيودوتوس.

- يجب أن نمنع كليوباترا من الوصول إلى الإسكندرية؛ سيدفع جنودي جماعة الثوار!

تشاور فوتان وثيودوتوس بعينيهما.

- طيب، وافق رئيس الحكومة؛ خذ العدد اللازم من الرجال واعترض طريق تلك المجنونة.

كان أخيلاس يستمتع لفكرة القضاء على جماعة متنوعة تقودها امرأة؛ منتشية بقوتها الوهمية، لن تتوقع كليوباترا استقبالاً مماثلاً.

بخيانته للملكة، لم يكن الأصهب مخطئاً؛ سيكون عقاب تلك المرأة على قدر ادِّعائها.

- أستحق مكافأة، لا؟

تأملت عينا فوتان الصغيرتان المُخبِر.

- من دون تدخلك، كنا سنأخذ عنوة وربما تمَّ القضاء علينا؛ أنقذت حياتنا.

مسترخياً، كان الأصهب يتصور مستقبله في الإسكندرية، مرتدياً

الملابس الفاخرة، وسط نساء جميلات وديعات يقدِّمن له نبيذاً ممتازاً وأصنافاً مختارة من المأكولات.

- أنقذت حياتنا، كرر فوتان؛ لكن من خان سيخون. غداً، ستبيعنا لمن يدفع أكثر.

- لا، أنت مخطئ! أقسم بولائي لك.

- خذ هذه الأفعى السامة، أخيلاس، واضرب عنقه.

لم يحتج الجنرال إلى أن يطلب منه ذلك؛ مناظر العنف كانت تعجب السكندريين.

بعد أن تمّت تصفية الأمر، أصبح فوتان وثيودوتوس في مواجهة خطر جسيم: على قيد الحياة، كانت كليوباترا تستعدُّ لاسترجاع عاصمتها. هدف له أولوية: نشر القوات اللازمة لإيقافها.

16

كانت بواخر قيصر قد انطلقت في البحر بحثاً عن باخرة بومبي الوحيدة. كان منهزم معركة فارسالوس يأمل في الإفلات من مطارده عديم الشفقة الذي يريد أن يأسره ويقوم بعرضه في روما. أي إذلال لقنصل روما الذي سقط، أي نصر لمنتصر حرب بلاد الغال الذي لم يعد أحد ينكر حكمه.

كان قيصر يتصور مجلس الشيوخ بكامله يهتف له وبومبي محكوم بمنفى أبدي، وكانت هذه الرؤية تمنحه قوة لا تخطر في بال؛ بعد هذه المِحن والمعارك، الخاسرة سلفاً في بعض الأحيان، كان قيصر يتمتع بشباب ثانٍ. ألا تواصلُ الأقدار تفضيله، ألا ينفتح أفق شاسع أمامه؟

قريباً، سيستطيع أن يُسمّي هذه المساحة الشاسعة من الماء، بحرنا (Mare nostrum) الأبيض المتوسط، في ملكية روما... شريطة إخضاع مصر، تلك الإمبراطورية القديمة المنحطّة حالياً، لكن التي تتوفر على جيش لا يُستهان به. انضباط الجنود الرومان كان يعوض قلتهم العددية، وقائدهم يقودهم، مرة أخرى، إلى النصر.

- باخرة على مرأى البصر! أعلن المراقب.

- إلى مواضع القتال، أمر قيصر.

بدأت المسافة تقل، والمطارَد، بعد أن توقف عن المقاومة، جمع أشرعته.

لم يكن بومبي.

واقفين على طول درابزين السفينة، رفع البحَّارة أذرعهم؛ لم يكونوا يمثلون أي خطر. حذِراً، قام قيصر بمحاصرتهم، بحيث يفشل أي فخ محتمل.

مرعوبين، ركع الأسرى، تقدَّم قائدهم إلى مقدمة الباخرة.

- لا تقتلونا، توسَّل إليهم؛ نحن مجرد صيادين بسطاء!

- أحضره إلى باخرتي، قال قيصر لروفين؛ وفتِّش باخرته!

- من أين جئت؟ سأله الجنرال.

- من جزيرة قبرص.

- هل صادفت باخرة رومانية؟

- كانت متوقفة عندما غادرت.

- هل تعرف من كان على سطحها؟

- بطل عظيم، بومبي! كان يشتري بضائع ويجنّد مرتزقة.

- بعدد كبير؟

- لا، لم يكن مقنِعاً جداً.

لم يعطِ تفتيش باخرة الصيد أية نتيجة؛ لم يكن القائد يخفي أي روماني.

*

عند رؤية أسطول قيصر، خافت السلطات القبرصية من الاجتياح ولم تبدِ أدنى نية في المقاومة؛ عندما سأل روفين، مصحوباً بحوالي خمسين رجُلاً من الفيلق، سيدَ الجزيرة، أعطاه هذا الأخير المعلومات التي أرادها: لم يكن بومبي يتوفر سوى على عدد قليل

من المخلِصين، وكان قد قرر الذهاب إلى مصر حيث كان متأكداً أنه سيجد المساعدة والحماية.

هكذا لم يكن قيصر مخطأ؛ آخذاً وجهة الإسكندرية، كان عليه الوصول بأسرع ما يمكن إلى عاصمة البطالمة، دون أن يترك لبومبي فرصة إقناع المصريين بالانضمام إلى قضيته وتولى قيادة جيش قوي وصدّ القادمين.

كيف كانت تُحكم إمبراطورية الفراعنة القديمة؟ بعد أن طرد من الإسكندرية من طرف أعدائه وعودته منتصراً بفضل الجنود الرومان، كان بطليموس الثاني عشر الزّمّار، الشهواني القابل للشراء والفاسد، قد عهد لبومبي بالحرص على تنفيذ وصيته. لم يكن البند الأخير يشكل لَبساً: عند وفاته، يقتسم الحكم بين ابنه الشاب، بطليموس الثالث عشر، وأخته الكبرى، كليوباترا. كان الجواسيس الرومان يعتبرونها ذكية وطموحة؛ لم يفتأ الصراع أن نشب بين «الزوجين». بفرض نفسها، كانت المرأة الشابة ستتخلص عاجلاً أو آجلاً من منافسها.

ستكون كليوباترا حليفة بومبي، وبمجرد أن يصل المحارب الشهير، ستنحني أمامه. من جديد، سيحارب الرومان ضدّ الرومان، ورغم خبرتهم، كان رجال فيالق قيصر ينتظرهم خطر كبير؛ رغم أخطائه الحديثة، يظلُّ بومبي خصماً مروعاً، وسيكون على قيصر التصرُّف في أرض غريبة وعدائية.

اقترب روفين.

- الرجال قلقون، دمدم؛ بعضهم يعتقد أننا سنقاتل واحداً مقابل ثلاثين وأننا سنُسحق.

- ممكن، أقر قيصر.

- في هذه الحالة، أليس من الأنسب أن ندرس الوضع بدل أن نهاجم؟

- فرصتنا الوحيدة هي التدخل السريع. يجب أن نأسر بومبي قبل أن يصبح سيد الإسكندرية وقائد الجيش المصري.

- و... إذا وصلنا متأخرين؟

- سنعرف ذلك، روفين؛ ألم تحمني الآلهة دوماً؟

- أليست آلهة المصريين أقوى من آلهتنا؟

تأمّل قيصر السماء التي كانت بزرقة ساطعة.

- لن نرسو في الإسكندرية، لكن في بيلوز؛ لا شك أن بومبي قد أمر بغلق مرفأ العاصمة، وسيحاول الأسطول المصري إغراق أسطولنا.

- شن هجوم أرضي... وقع مفاجأة مذهل!

- ارفع معنويات الرجال، روفين؛ هذه المعركة الجديدة، سينتصرون فيها. وستهتف لهم روما.

منتعشاً، قام ملازم الإيمبراتور بمهمته.

ألم يكن قيصر منتشياً من خطابه، ألن تكون مصر قبراً له؟ العقل يحتم عليه أن يعود من حيث أتى، أن يفرض نفسه في روما، وأن يكوّن فيالق وأن يقوم بحرب تقليدية في الشرق الذي كان بومبي قد قام بغزوه.

كانت أرض الفراعنة تشدّه بطريقة لا تقاوم. ضدّ كل منطق، ضارباً عرض الحائط بكل حذر وكل حسّ استراتيجي، كان يحس بضرورة الذهاب إلى نهاية ذلك السفر الخطير وعبور باب المجهول.

لفحت ريح حارة وجهه ونفخت شراع الباخرة الأميرالية. وإذا توصّل هو، الأجنبي، إلى الحصول على بركات آلهة مصر القديمة؟

17

كان الفيضان عادياً، وكانت رئيسة كهنة وكاهنات معبد دندرة تستعد للاحتفال بأحد أهم طقوس احتفال رأس السنة. كانت تحمل الاسم نفسه، حتحور، مثل الإلهة التي أُهدي لها المعبد، الذي اشتغل في الأزمنة الغابرة لقدماء الفراعنة.

في الستين من عمرها، ذات قامة متوسطة، رقيقة وسريعة، كانت الرئيسة تحرص على تنفيذ الطقوس بشكلٍ متقن؛ ألم تكن التعبير عن القوة الخلّاقة للآلهة والكنز الذي لا يقدَّر للمطّلعين على أسرار إلهة السماء؟

مؤخراً، حدثت معجزة. كان البطالمة، الملوك الإغريق الذين يحكمون في الإسكندرية، يخشون ثورات الجنوب الذي كان خاضعاً لنظام جبائي ساحق؛ من أجل تفادي تلك الثورات، كانوا يمنحون للمصريين، الأكثر تديناً، معابد رائعة مشيّدة من قِبل فرق من الحِرفيين يتكفل النظام بأجورهم. ورثة تلك الهدايا الثمينة، كان كبار الكهنة والكاهنات يلتزمون بتهدئة الشعب، والاعتراف بشرعية الملوك وتأدية الضرائب دون نقاش.

أهديت العديد من الصروح للآلهة، مقابل السلم المدني... تمَّ التوصل إلى تحقيق توازن هشّ، ولم تكن حتحور تصدق أنها ستتمتع

به إلى اليوم الذي قبلت فيه إدارة الإسكندرية طلبها، كان مبالغاً فيه في نظر الكثيرين: تشييد معبداً جديداً على شرف حتحور، بقامة مماثلة للمعبد الهائل الذي شيد في إدفو لمجد حورس، زوجها السماوي. حورس، حامي الملك؛ حتحور، حامية الملكة؛ معاً، يكونان الزوج المقدس، ضامن المؤسسة الفرعونية التي كان البطالمة يحترمونها. اغتصابها كان سيتسبب في ثورة شعبية.

عند رؤيتها للمقاول، ورؤساء العمال، وقاطعي الحجر، والرسّامين، والنحّاتين، يستقرون في دندرة، أحست الرئيسة بقلبها يخفق كما لم يخفق من قبل. ستحضر خلال حياتها ولادة مجال إلهي تحميه أسوار عالية، مجهّز بقاعات ذات أعمدة، لقديس القديسين وعدة منشآت ملحقة.

حقاً، ستستمر الأشغال سنوات عدة، لكن حماس ومهارة الحرفيين سيختصر الوقت. وأية سعادة، كل صباح، وهي تسمع غناء الأدوات!

رغم ضعفها، كانت الرئيسة تحس برغبة كبيرة في أن تعيش وتحضر تقدُّم معبد حتحور، الذي يشيّد في مكان المعبد القديم. كان الكهنة والكاهنات يحضِّرون الطعام للعمال، ويقدِّمون لهم الشراب، ويسعفون الجرحى، ويهتمون بالنظافة والسكن المؤقت.

عشية الاحتفال، تناولت الكبيرة عشاءها رفقة المقاول تحت النجوم؛ كانت الرياح دافئة، تنشر روائح الأزهار المتفتحة الآسرة.

- تبدو متضايقاً، لاحظت الرئيسة.

- هل تودّين معرفة آخر الأحداث؟

تأملت الكبيرة كوكبة أوريون، أحد مقاصد الأرواح الملكية؛

كانت تريد نسيان البلايا البشرية وألا تهتم سوى بالاحتفال الإلهي، لكن ألا يجبرها مصير معبدها على مواجهة الواقع؟

- هل هي مقلقة؟

- بحسب وصية بطليموس الثاني عشر، كان على ابنه وابنته اقتسام الحكم؛ حاولت الملكة الشابة أن تقصي شقيقيها وأن تحكم البلد لوحدها. أعجبت إصلاحاتها الشعب، ونجح مستشارو بطليموس الثالث عشر في طرد كليوباترا.

- هل تعترض الفتن إنهاء المعبد؟

- لا، لأن أعيان الإسكندرية يودّون متابعة السياسة التي تتيح تفادي الفتن في الجنوب. بطليموس الثالث عشر ليس سوى طفلٍ، لُعبة بين يدي الخصي فوتان وثيودوتوس، مؤدِّبه.

- ماذا حصل لكليوباترا؟

- البعض يعتقدها ميتة، والآخرون يظنون أنها ستنتقم. مهما حصل، مستقبل دندرة ليس مهدداً؛ تلقيت مهمة رسمية وسأواصل القيام بها.

- وإذا حدثت حرب أهلية؟

- لم نصل بعد إلى ذلك الوضع؛ بحسب معلوماتي، محيط الملك يمسك بزمام الأمور. رئيس الإقليم يراقب تعليمات العاصمة، يدفع أجور الحِرفيين ويحرص على نجاح عملنا.

- السماء رائعة، هذا المساء... فلتحفظنا حتحور.

*

على أحد المذابح، وضعت الكبيرة صولجانات، وذراعاً، وأواني من الذهب والفضة، وأثواباً، وأواني المراهم وباقات زهور. يحيط بها المخلِصون للإلهة حتحور، تأملت شروق الشمس، قاهرة

الظلام. أضاءت أولى أشعة الشمس العطايا، الأدوات الطقوسية، مانحة إياها الطاقة اللازمة لمواجهة السنة الجديدة.

تصورت الرئيسة نفسها تصعد درجاً يؤدي إلى سقف معبد كبير حيث، في حماية قبة مخصصة لاتحاد قرص الشمس، تقيم قداساً ألفياً، مرتبطاً بنشأة مصر. إعادة انبعاث روح الأصول. . . أليس سوى حلماً؟ مع ذلك، أحجار حية تجتمع، أسوار ترتفع، نَفَس الإلهة يحرك القلوب والأيدي.

ونطقت الرئيسة بالكلمات الموروثة: «كم هو كامل، سيرك نحو الأبد، الروح الإلهية؛ حتحور، سيدة دندرة، العين الخالقة، افتحي أعيننا وآذاننا، خطي سنتنا، امنحي مسلكاً لأرجلنا».

انبعثت عشرات الأشعة من القرص الشمسي، ورأت صاحبة القداس العمل تاماً؛ خلال لحظات، عاشت سعادة مستحيلة. كانت القدرة الإلهية تسكن منزلها، الحفلات تقام في موعدها، الأيام تمرُّ بشكلٍ متناسق.

حلم بسيط. . . وإن كان بناء المعبد الجديد يقود فكر ملك جديد، إن كان يلهِم عمله، إذا كان يعيد تأسيس عهد ذهبي، ألم تكن الرئيسة مسؤولة عن أمل أحمق، ألن يصدر معبدها طاقة قادرة على منح الشعب كرامته من جديد؟

حلم بسيط. . . وإن تحول إلى حقيقة؟

18

سوريون وفلسطينيون ورومانيون هاربون من الجيش وعبيد فارون. . . عند رؤية جيش كليوباترا، كيف يمكن للمرء أن يثق بها؟ كانت الخادمة شارميان تكره هذا الجمع من قطّاع الطرق وتحنُّ إلى الاستراحة القصيرة في عسقلان؛ كانت تتمنى أن تتخلى كليوباترا عن مشاريعها الحمقاء وتكتفي بمنفى دافئ في انتظار أيام أفضل، لكن الملكة، عديمة الصبر، قررت قيادة هذه الفرقة السيئة لمهاجمة الإسكندرية. بطريقة أخرى، كانت تجرهم إلى موت محقق، لن يفلت منه أحد.

لم يكن الحاجب أبولودور قد أجرى حديثاً مع كليوباترا. هو فعلاً نجح في جمع أولئك المرتزقة وأقنعهم بالاستيلاء على العاصمة، حيث سيعيش الباقون منهم على قيد الحياة، الذين أغدقت عليهم التشريفات والأموال، حياة باذخة؛ رغم ذلك، لم تكن الملكة لتنخدع وكانت تعرف أن هذه الرحلة ستنتهي بمجزرة. متفوقاً من حيث العدد، مجهّزاً بشكلٍ أفضل، سيجعل جيش بطليموس لقمة واحدة من المعتدين المتنوعين. وكليوباترا، إن بقيت على قيد الحياة، ستتعرض لأسوأ أنواع العذاب.

لم تنل هذه الاحتمالات من عزم المرأة الشابة التي كانت تعتبر

نفسها قادرة على الانتصار؛ هرمس كان يظل صامتاً. أما بالنسبة إلى العجوز وحماره، ريح الشمال، المحمل بأمفورات(*) نبيذ أحمر لا بأس به، كانا يظلان بحذر في الخلف، بحيث يستطيعان القيام بعملية تقهقر في حالة تلقّوا ضربة قاسية. «الشباب، الشباب»، كان العجوز يدمدم وهو يلاحظ حماس الملكة، التي كانت تفضِّل الموت على الفشل.

لم تؤخر أية عقبة تقدم الغزاة؛ خلال مرورهم كانت الملكة قد جنّدت بعض القرويين الذين جذبهم الراتب. كان الجنود يقدِّرون الطعام ويظهرون انضباطاً نسبياً، مع استنكارهم للسير المفروض وقصر وقت الراحة؛ إلا أن ديناميكية الملكة، قائدة عسكرية حقيقية، كانت تحثهم على التقدم. هم، الرجال القساة، يجب أن يظهروا في مستوى تلك المرأة ذات المظهر الهش، الأنيقة دوماً، وذات الصوت الرخيم.

- اختفى الأصهب الذي رفض التجنيد، قال أبولودور للملكة.

- لا ينقصنا الجبناء.

- وإذا كان قد خانك بتعريف بطليموس بمشاريعك؟

- لماذا سيسيء إلي بهذه الطريقة؟

- من أجل الربح، صاحبة الجلالة؛ هل أصبحت ساذجة؟

كظمت كليوباترا غيظها.

- أية أهمية! سيكون الواشي قد أعدم، ونحن علينا مواجهة أفواج بطليموس... إلا إذا استطعت إقناعهم بتغيير المعسكر.

(*) الأمفورة: نوع من الجرار الخزفية، لها قبضتان وعنق طويل أضيق من جسم الجرة الذي يكون بيضوي الشكل.

- جنود أخيلاس يحترمون جنرالهم، والرواتب جيدة.

- ألا تثق في سحري، أبولودور؟

- هل سيستعمل هرمس سحره، صاحبة الجلالة؟

- أنت تثيرني، أيها الصقلي! اذهب وحضِّر الطعام.

في ذلك الأسبوع الأخير من سبتمبر من سنة (48-)، لم تكن درجة الحرارة تنخفض، وكانت الاستراحات تلقى الترحيب دائماً. كان العجوز يحرص على الشرب في فترات منتظمة، وعلى مقربة من مدينة بيلوز المحصنة، شرق الإسكندرية، بدأت عصبية الجنود تبدو بوضوح. إلى حدود تلك اللحظة، كان تقدم الجيش المرتجَل شيء خارق؛ ذلك الهدوء لا يمكن أن يستمر.

استيقظ العجوز على صوت الصراخ.

سوري وفلسطيني يتعاركان؛ كان وجه الأول مدمّى، وكان الثاني يعرج. تكونت حولهما دائرة وحثتهما على الاقتتال.

- هذا يكفي، أمرهما أبولودور.

- دعنا بسلام، اتركنا نستمتع بالعرض، قال روماني هارب من الجيش.

بقبضة غير منتظرة، رفع الحاجب الجندي عن الأرض وقذفه على بعد عدة خطوات؛ ثم وقف بين المتعاركين.

- الملكة في حاجة إلى جميع جنودها.

خرج عبد آبق من الصف.

- أنت، من تعتبر نفسك؟

- صقلي يقوم بتوصيل أوامر جنرالنا، الملكة كليوباترا، ويعمل على تنفيذها.

لاحظ العبد مقداراً كبيراً من العنف في نظرة أبولودور، فانسحب.

- استعدوا للانطلاق، أمر الحاجب؛ سيهدّئ السير أعصابكم.

*

هدّأ تدخّل أبولودور النفوس، وكان الاهتمام منصبّاً أكثر على الاحتماء من عاصفة رملية تعيق تقدمهم. أثار قرار كليوباترا التوقف ارتياح الجميع، وتمَّ تجهيز الخيام.

- يوم آخر من السير، قال أبولودور للملكة؛ وسنكون على مشارف بيلوز. ألا تخيفك تحصيناتها؟

- أخطأ والدي في جعل قواته تتمركز في الإسكندرية وخفض عدد أفراد حامية بيلوز؛ لن تظهر سوى مقاومة ضعيفة وستصبح في صفنا. سهولة هذا النصر الأول سيحوّل رجالنا إلى محاربين حقيقيين وسيزرع الذعر عند الخصم.

- في انتظار ذلك، تدخلت شارميان؛ يجب أن أسرح شعرك وأقوم بتعطيرك... في أية حالة أنت!

لم تزعج الملكة خادمتها وفكرت في احتلال بيلوز، المدينة التي شيدت على الذراع الشرقي للنيل.

بيلوز، «المستنقع» بحسب الإغريق، لكن «تلك التي بناها الإله آمون» بحسب المصريين؛ العلم الخارجي من جهة، البُعد المقدس من الجهة الأخرى. عشية المواجهة الأولى مع ماضيها، الاسم البسيط لمدينة كان يسلط الضوء على التمزق الذي تعاني منه كليوباترا.

- في الماضي، ذكر هرمس؛ كان آمون، «الإله الخفي»، يتوّج الفراعنة الذين يعملون من أجل مجده؛ من دون حمايته ونَفَسه، كان

حكمهم ليكون فارغاً من المعنى. هنا، في بيلوز، قوة آمون ستجري لك اختباراً؛ يعود لك الأمر في إثبات قيمتك.

تمنّت المرأة الشابة أن تعرف أكثر، لكن هرمس كان قد عاد إلى كتاباته، غير مهتم بضجيج المخيم. كانت الأحاديث سارية، والمتفائلون يُظهِرون ثقتهم.

اقتحام بيلوز... كان العجوز مشككاً، ريح الشمال هادئاً بشكلٍ مدهش. غداً، سيكون الأمر جاداً وبالضرورة سيحدث تحطيم. كي يحصل على نوم مرمِّم، شرب العجوز جرة كاملة من أجود الخمور.

19

الجولة الأولى، عاينت كليوباترا الجيش. لم يكن أي عسكري محترف ليقود مجموعة مرتزقة قد تتفكك في أية لحظة؛ ألن يتبعثروا عند رؤية العدو؟ على كليوباترا أن تحرص على تماسك قواتها، دون مراعاة للواقع، وأن تُنعِش أملها بالانتصار.

بعد الفجر بوقت وجيز، توجّهت الملكة ورجالها نحو بيلوز؛ صمت الجميع، كما لو أن قرب الخطر كان يحثُّ كل واحد على التقوقع على نفسه.

في منتصف النهار، أرسلت كليوباترا كشّافين.

عند عودتهما، كانا متعبين ومتغيرين.

- صاحبة الجلالة، يجب أن نهرب، وبسرعة!

- هل رأيت وحشاً؟

- المئات من الجنود، الآلاف... بيلوز محصَّنة! وإذا شنّوا هجوماً سيقضون علينا.

- قدني.

- لا أريد العودة إلى هناك!

- قدني، كررت كليوباترا.

*

أحس العجوز بالارتياح. هكذا، إما أن الملكة لم تسرع بالشكل الكافي وإما أنها تعرضت للخيانة؛ بتكتله قرب بيلوز، كان جيش بطليموس يقطع عليها الطريق ويحتم عليها التراجع. بمجرد أن تتوقف الرواتب، سيتفرق المرتزقة ولن يقتل أحد؛ ستلجأ كليوباترا إلى قرية في فلسطين أو سوريا وسترضى بمنفى نهائي. على الأقل، سيتبدد حلمها بشكلٍ سلمي.

- تعال، ستُلقي الملكة خطاباً، قال أحد العبيد السابقين.

بمفاصل متيبسة، وافى العجوز الصفوف كي يستمع إلى آخر خطاب من الملكة المعزولة.

ارتدت فستاناً طويلاً أخضر اللون، وتزينت بتاجٍ من الذهب وبأساور، كانت كليوباترا ذات جمال أخّاذ؛ كان الجميع معلَّقاً إلى شفتيها.

- عدت من ضواحي بيلوز؛ بعد علمه بمجيئنا، أمر بطليموس قواته بمنعنا من دخول المدينة. هذا دليل على أنه يخشانا! استعراضه للقوات لا يثيرني، وسنثبت له أنه على حقّ بخوفه منا. تفحّصتُ الميدان: سنقيم على جبل كاسيوس قبالة العدو.

أذهلت استراتيجية الملكة العجوزَ: انتحار حقيقي! سيشنّ بطليموس هجوماً، ولن تقاوم شقيقته الكبرى طويلاً.

- إلى الطريق، أمرت كليوباترا.

كان ريح الشمال هو أول من استجاب، وكان العجوز يحس بالعجز لمجاراة سرعة سيره؛ تبعهم المرتزقة مسحورين. أجهشت الخادمة شارميان بالبكاء، احتفظ القُهرمَان أبولودور برأسه عالياً.

*

لم يكن الجنرال أخيلاس مستاء من تصرفه وأخذ يستعرض نفسه

أمام جيشه، رفقة الوصي فوتان، المتأثر بنشر القوات التي ستضع حدّاً لطموح كليوباترا غير المعقول.

- بمجرد أن تلحظ تفوقنا، ستهرب، قال الجنرال؛ وسيتفرق مرتزقتها مثل عصافير خائفة! لن نتعب في أسرها. سؤال واحد: هل علينا أخذها حية إلى الإسكندرية؟

- أفضّل أن أعرض جثتها وأمنح الشراب للشعب.

وافى فوتان بطليموس الثالث عشر، الذي كان جالساً على عرش من خشب، محتمياً بمظلة؛ كان مؤدِّبه، ثيودوتوس، يصف له تنظيم الجيش الإغريقي الذي كان، نظرياً، هو قائده الأعلى.

- أريد أن أشن الهجوم حالاً، قرر الصبي؛ وسأدوس بنفسي على كليوباترا!

- قليل من الصبر، حثه ثيودوتوس؛ في البداية، سنقضي على أتباعها، بعد ذلك

ستظهر منتصراً، وسيهتف لك جنودك.

كان المليك يتملص من الفرح، لأنه كان مستمتعاً بذلك اللعب؛ فوتان لم تكن تعجبه الأسلحة ويكره الخروج من قصره.

بينما كان الوصي يقصد بيلوز، جرى نحوه أحد الضباط.

- تعال بسرعة، الملكة على وشك أن تصل!

شهد بطليموس وفوتان وثيودوتوس، وهم في أمان في مؤخرة المشاة، باندهاش ظهور مجموعة من الثوار، وهم يجرون، احتلوا جبل كاسيوس بعيداً عن مرمى نبال العدو.

- فلنهاجمهم! أمرهم بطليموس.

- سنطبق استراتيجية الجنرال أخيلاس، ذكّره فوتان وهو منزعج.

عبس الصبي، آملاً في مواجهة دموية.

غطّى حوالي مئة من المرتزقة، ثم آخرين، ثم آخرين أيضاً، الجبلَ بأكمله، ولم تفتأ قواتهم تتزايد.

صعد أخيلاس إلى الرابية، حيث كان يقف الملك والخصي والمؤدِّب، وقال:

- هم أكثر عدداً مما توقعنا، ويحتلون موقعاً ممتازاً. أسلحتهم لا يستهان بها، سيكلفنا الهجوم العديد من الرجال ولن يكون حاسماً.

- تقول أي شيء! استشاط بطليموس؛ هاجم، اقتلهم جميعاً واحضر كليوباترا!

- العجلة شيء سيئ، قال فوتان؛ فلنحلل الوضع ولنفكر في أفضل استراتيجية ممكنة.

- ربما لا يتعدّى الأمر أن يكون تفاخراً، قال ثيودوتوس؛ لا يمكن لهذا الجمع من المجرمين أن ينتصر علينا! لن يتأخروا في الانسحاب، وسنطاردهم.

فجأة، وقف الثوار من دون حراك وعمّ صمت عميق؛ ثبّت أسياد الإسكندرية وجنودهم أعينهم على الخليج.

تفرَّق أتباع الملكة، وظهرت كليوباترا.

امرأة شابة بسيطة، هشّة، أنيقة، لمع تاجها عاكساً أشعة الشمس.

أثرت طاقة صوتها مثل السحر.

- أنتم، أيها الفاسدون، ستندمون قريباً على جنايتكم! أنا، الملكة الشرعية لمصر العليا والسفلى، سأطردكم من عاصمتي

وسأستعيد عرشي. سينقلب جنودكم عليكم، وسيستقبلني الشعب منتصرة!

حيًّا هتاف كبير إعلان كليوباترا؛ لم يعد أتباعها يشكون في الانتصار.

مرعوبين، قام خصومها بتراجع خفيف. خبط بطليموس الأرض برجليه، ارتعش ثيودوتوس، تساقطت حبّات كبيرة من العرق من فوتان بينما ضغط أخيلاس على مقبض سيفه.

20

كانت الوضعية جامدة؛ لا أحد يبدأ الهجوم، كان المعسكران خائفين من تلقي مقاومة من الخصم قد تحدث خسائر فادحة. كانت وضعيات قوات بطليموس وكليوباترا تبدو منيعة الواحدة مثل الأخرى، ولم يلحظ أحد ضعفاً يمكن استغلاله.

لم تكن كليوباترا منخدعة: كان الوقت يلعب ضدّها. لم يكن جيش الإسكندرية يعاني من نقص في المؤن، بينما يعرف نظام المؤن لدى المحررين مشاكل لا يمكن تجاوزها، مشاكل قد تؤدي إلى تشتت المرتزقة.

- اتبعيني، أصر الساحر.

عند سقوط الليل، رافق الساحر الملكة بعيداً من الخليج إلى مدخل مضيق مظلم.

- تقدمي.

ترددت الملكة.

- هل أنت خائفة؟

تقدمت.

- ماذا ترين؟

في المكان حيث يضيق المضيق، وميض؛ منجذبة، تقدمت المرأة الشابة ورأت ناووساً من الجرانيت.

كان ينبعث منه ضوء أحمر.

- اركعي، أزيلي القفل وافتحي الأبواب.

ببطء، نفّذت الملكة ذلك وأحست باضطراب كبير؛ ألم تكن تقوم بحركات الطقس الذي يتيح للفراعنة تحرير الطاقة الخلّاقة، ألم تكن تمدد أحد أكبر تقاليد مصر القديمة؟

حبست كليوباترا صرخة ذهول.

داخل المعبد، أسد من ذهب يلمع ببريق ساطع!

- تأملي تجسّد إله الهواء المضيء، حثها هرمس؛ هو الذي فرّق السماء عن الأرض، خلق النجوم والأقسام. مصر على صورة السماء ومعبد العالم حيث تقيم الآلهة؛ جسم كبير يغلّف الكون. وعلى دائرة هذا الجسم، خطّت الوجوه الستة والثلاثون للأقسام التي تحفظ كل حياة وترأس كل شيء. ملكة مصر، أما زلت راغبة في القتال؟

- لم يتزعزع تصميمي.

- هل أنت واعية بالخطر؟

- النصر أو الموت.

- إذن، فلنطلق عنف القسم التاسع، ذلك القسم الذي يهزم الأعداء... شريطة انتظار اللحظة المناسبة.

أمسك هرمس معصم الملكة ووضع كفّه على صورة عملاق السماء ذي القُدرات الرهيبة.

*

كان المرتزقة يأكلون كفايتهم، لكن ثقتهم بدأت تتزعزع؛ لماذا لا تأمرهم كليوباترا، إذا كانت حقاً واثقة من قدرها، بالهجوم؟ كانوا يتناقشون، يتناجون، بدؤوا يقتسمون.

أخيراً، تحدثت كليوباترا من جديد!

- العدو يخشانا ولا يجرؤ على مواجهتنا؛ أليس هذا دليل على قيمتكم؟

خرج سوري من الصف.

- ونحن، سنظل مسمّرين هنا!

- بمساعدة هرمس، طلبت تدخّل قوة إلهية. حدث غير متوقع سيغير الوضع بشكل راديكالي، وسنحصل على الامتياز. فلتثقوا بي.

بددت ثقة الملكة المخاوف، واندثرت الانتقادات.

وهي تشعر بالقنوط، انسحبت الخادمة شارميان تحت خيمة الملكة التي كان أبولودور يقدِّم لها قدحاً من النبيذ الأبيض.

- أنت، حاجبي، لا تصدقني؟

- لا يهم، صاحبة الجلالة؛ أنت تقودين، أنا أطيع.

- لا تكن شكاكاً! سيكون فنّ هرمس فعالاً، والحدث المعلن سيقع.

- ألا تشكين أبداً؟

- في كل لحظة، أستهزئ بذلك! هذا الترف، ليس من حقي السماح به لنفسي. إذا تركني هذا الجيش، سأضيع.

*

وسط صبيحة التاسع والعشرين من سبتمبر من سنة (48-)، لاحظ عيون كليوباترا حركة بين جنود بطليموس. لم يكن الاهتمام

موجّهاً نحو خصومهم، كانوا قد تأهبوا فجأة، لكن بسبب خطر قادم من البحر.

من جبلها، رأت كليوباترا باخرة تدخل مرفأ بيلوز.

- أسطول أجنبي، قدَّر أبولودور؛ المليك يتلقى إمدادات.

- باخرة واحدة! وإذا كان الأمر يتعلق بعدو؟

- لماذا يعيش هذا الخطر؟

وهي محتارة، فكرت الملكة في الحادث التي تنبّأ به هرمس؛ أليست الباخرة إشارة من القدر؟

عند الخصم، كان الهدوء قد عاد.

- فلنستعد من أجل هجوم، حثت كليوباترا، مقتنعة أن المواجهة كانت وشيكة.

مرت دقائق عديدة، ثم ساعة تلتها ساعات أخرى. . . وظلَّ جنود بطليموس في أماكنهم. الهجوم لن يحدث.

فلتت أعصاب كليوباترا، انسحبت تحت خيمتها واستسلمت ليدي الخادمة شارميان الخبيرتين، والتي دلَّكتها من الرأس إلى القدمين.

- تراجعي ما دام ذلك ممكناً، صاحبة الجلالة! أليس البقاء على قيد الحياة أساسياً؟

منع تدخّل أبولودور جواباً لاذعاً.

- صاحبة الجلالة، يودّ أحد الرومانيين مقابلتك.

نهضت كليوباترا، ساعدتها شارميان على ارتداء ملابسها.

- فليدخل.

غزير الشعر، يحمل ندبة، لم يكن المرتزق سهلاً.

- ماذا لديك لتقوله؟ سألته الملكة.

- الرجل في مقدمة الباخرة، تعرفت إليه؛ من قبل، كنت أنتمي إلى فيالقه. جنوده يحترمونه ويعتقدون أن يكون سيد روما.

- ذلك الرجل...

- هو بومبي العظيم.

21

استعصى النوم على كليوباترا. ماذا يعني وصول بومبي الشهير، الروماني المسؤول عن تنفيذ وصية والدها، بطليموس الثاني عشر، أي عن تقسيم السلطة بين بطليموس الثالث عشر وشقيقته الكبرى؟

باستقباله في بيلوز، كان في إمكان المعسكر العدو استخدام هذا الضيف غير المنتظر! سيعلن بومبي العداء لكليوباترا، ومن يدري، ربما قاد القوات المهيأة للقضاء عليها.

إذا تأملناه جيداً، مجيء هذا المحارب الأجنبي يشبه كارثة.

منذ الفجر، راقبت الملكة معسكر العدو من قمة جبل كاسيوس، منتظرة أن تكتشف استعداداً لهجوم.

لكن الهدوء كان يُخيّم على المكان، وآلية الحراسة المعتادة لم تتغير.

- يجب أن تصبري، نصحها هرمس بصوته الجهوري؛ لم يحدث القسم بعد تأثيره الحاسم.

- كيف تعرف ذلك؟

- تعلّمي قراءة رسائل السماء. تلقى بومبي هزيمة ثقيلة وهو يسعى إلى النهوض بجيشٍ جديد.

- وسأكون ضحيته الأولى!

- أكرر لك: اصبري وحافظي على تماسك أتباعك. الحدث الرئيسي لم يحدث بعد.

- متى سيحدث؟

- قريباً.

ابتعد هرمس؛ ولم تحاول كليوباترا أن تمسكه ولا أن تسأله، مقتنعة أنه لن يقول أكثر. إما أن تثق به وإما أن تأخذ المبادرة وتشنّ الهجوم.

*

مرَّ يومان.

كانت الملكة قد خاطبت رجالها، ونجحت في أن تقنعهم بالثبات وعدم الإقدام على فعل أخرق؛ بسبب توفره على باخرة واحدة، لم يكن بومبي، رغم شهرته، قد وصل بإمدادات مخصَّصة لبطليموس! وكان العدو قد بقي بلا حراك، كما لو أن نصائح الاستراتيجي الروماني لم تكن كافية لشنٍّ هجوم.

مستسلمة، كانت الخادمة شارميان تنظِّم نفسها؛ مهووسة بالنظافة، كانت تشغل وقتها بتنظيف خيمة الملكة وغسل ثيابها. في القصر، كان معاونوها يقومون بتلك المهام المقرِفة، لكن هنا، وسط المعسكر الذي يعجُّ بأشخاص أفظاظ تكرههم، لم تكن لتترك الوضع يتردى.

بينما كانت تنحني لتأخذ قارورة زيت معطر، حطّت كف على وركها.

- قولي إذن، أيتها الجميلة، ألا يجب أن نمرح معاً، نحن الاثنين؟

- وهي تشعر بالرعب، اكتشفت شارميان سورياً غير حليق، شفتاه غليظتين ونظرته وحشية.

- اغرب، أيها الوحش!

- ادخلي تحت الخيمة. . . قليل من اللهو سيشعرك بالاسترخاء.

في اللحظة التي كان فيها السوري ينتزع شارميان، أمسكت ذراع قوية بعنقه.

- اهدأ، أيها الصديق، حثّه الحاجب أبولودور؛ لا أحد يلمس خادمة الملكة كليوباترا. مفهوم؟

- مفهوم!

أرخى الصقلي قبضته، جاهد السوري كي يستعيد نفسه.

- كدت تخنقني!

- هذا يلقنك درساً.

ابتعد الرجل، ونظرته سيئة.

كانت شارميان على وشك أن تجهش بالبكاء.

- أصبح الرجال عصبيون، قال أبولودور؛ سأعيّن حارسين للحفاظ على الأمن.

- متى ستنتهي هذه الفترة العصيبة؟

- قريباً، بحسب هرمس.

- وإن أخطأ؟

- إذن سنهلك.

*

لم يكن العجوز عاطلاً؛ مخافة أن ينفد النبيذ، كان قد قام بتنظيم قسم الإمدادات تؤطره مفرزة من الرماة. بحسب تعاليم

الملكة، لم يكونوا ينهبون القرى المجاورة، لكنهم يدفعون مقابل الطعام والحاجات التي يشترونها من الفلاحين. موارد المنطقة لم تكن لا تنضب، وإذا استمر الوضع سيُعاني مرتزقة كليوباترا من الجوع والعطش. لن تلبث الثورة أن تندلع، وهذا الجيش متعدد الأطياف سيتشتت.

كان العجوز مسؤولاً عن شراء أمفورات الخمر المحلي المتواضع وكان يساوم بشراسة؛ لم يكن تفاخر صانعي النبيذ يخفف من يقظته، وكان دائماً يحصل على ما يرضيه.

وهو يقترب من القبو، فاجأ العجوز حديثاً غريباً. سوري وفلسطيني يذكران انتفاضة القرى ضدّ كليوباترا؛ وعندما ستهاجَم من الخلف، ستصبح فريسة سهلة لبطليموس.

كان السوري يشتكي من صدّ شارميان، خادمة الملكة، التي سينزل بها أشد أنواع التنكيل عندما سيقضي الجيش الإسكندري على الثوار. هو والفلسطينيون سيهربون، وسيلتحقون بالعدو وسيمدّونه بجميع المعلومات المفيدة الخاصة بقوات كليوباترا.

تنحنح العجوز.

- هي أنتما، ليس حسناً ما تهيئانه!! مكانكما، كنت لأتراجع وأستسمح الملكة.

أخرج الرجلان خنجريهما.

- أنتما تختاران الحل الأسوأ، استنكر العجوز.

- هل تأمل أن تصرعنا؟ تهكم الفلسطيني.

- أنا، لا، لكني لست وحدي.

هشّمت ركلة ريح الشمال أضلاع الفلسطيني، وبضربة رأس عنيفة سحق الحمار صدر السوري.

- لقد حذرتكما، ذكّرهما العجوز وهو يجمع الأسلحة؛ عجيبة هذه العادة عند الخونة في أن يعتبروا أنفسهم متفوقين.

غير مبالٍ بخرخرة المحتضرين، تبع العجوز ريح الشمال إلى معسكر كليوباترا.

كان الوضع يسوء؛ هذان الصرصاران يعلنان عن مجيء آخرين.

22

- مرفأ الإسكندرية مغلق، لاحظ روفين؛ لا يمكن أن نرسو سوى في بيلوز، ولا أحب ذلك. بلا شك، العدو ينتظرنا هناك. ماذا تقترح؟

في مقدمة الباخرة الأميرالية، كان قيصر يتأمل مصر، ذلك البلد الغامض حيث قد يفقد كل شيء. هكذا، قهر بومبي عاصمة البطالمة وهو ينوي القيام بحرب بحرية على رأس البحرية المصرية، التي تبنّت قضيته.

- وجهتنا بيلوز، قرر قيصر.

- إذا كانت بواخرهم كثيرة العدد، سيحاولون محاصرتنا، تنبّأ روفين.

- ستمكّننا السرعة من تفادي فخ مشابه، أكّد قيصر.

لم تكن أوامر الإمبراطور تناقش، وكان لرجاله كامل الثقة فيه؛ ألم يكن يقودهم من نصر إلى نصر؟

رغم وجهه الهادئ، كان يوليوس قيصر فريسة للشكّ والقلق؛ هذه المرة، هل تكون حماية الإلهة فينوس كافية؟ مفتقداً للمعالم، متقدماً في أرض مجهولة، جاهلاً بالقوة الحقيقية للعدو، كان عليه

أن يعود من حيث أتى ويحاول الحصول على معلومات قبل أن يشن هجوماً شديد المخاطر.

لكن قوة غريبة كانت تجذبه بطريقة لا تقاوم نحو هذه الأرض التي تحبُّها الآلهة، مقر المؤسَّسة الفرعونية التي قاومت العديد من الاجتياحات وتواصل، بحسب قانون مجهول، إخضاع مهاجميها.

مستعداً للقتال، ابتعد الأسطول الروماني من الإسكندرية. كانت الرياح قوية، في الثاني من أكتوبر من سنة (48-)، وكان البحر مضطرباً؛ أمواج عاتية كانت تعيق المِلاحة، وكان البحارة سعيدين بخبرتهم.

اكتشف قيصر شاطئاً غير مأهول، خالياً من الخلجان؛ على مرأى البصر، مستنقعات وكثبان متحرِّكة. مكان مثالي من أجل كمين! في البعيد، مدينة بيلوز الشاطئية، ذات الحصون المنيعة.

ظلَّ البحر فارغاً.

- يستحيل أن نرسو، قدَّر روفين؛ لكن أين تختبئ بواخر بومبي؟ لا أفهم استراتيجيته؛ هل يريد مواجهة في عمق المروج؟

- هنالك، مركب!

لم يكن شكله المتواضع يمثل خطراً؛ لكن روفين كان حذِراً.

- فليأخذ الرماة أماكنهم، أمرهم.

لم يتأخر ملاحظة أصحاب المركب: رجل طويل نحيف وثمانية جدافين.

- جئنا نشيد بيوليوس قيصر، صاح النحيف، ولسنا مسلحين.

نهضوا جميعهم، مبعدين أذرعهم من أجسادهم؛ في الواقع بدا وفداً صغيراً غير مؤذٍ.

- اسمي ثيودوتوس، أعلن زعيمهم؛ أنتمي إلى مجلس

الأوصياء وأنا مؤدِّب بطليموس الثالث عشر. باسمه، أرحب بأصدقائنا الرومان وجنرالهم العظيم.

لم تكن أية عاطفة تحرك وجه قيصر الهزيل الذي أدهش قوامه ثيودوتوس.

- يريد ملك مصر تقديم هدية استقبال لضيفه؛ هل يمكن أن أصعد إلى الباخرة؟

وهو يشعر بالحيرة، لم يتوقف روفين عن تأمل البحر والشاطئ: لا مركب يرى ولا حركة للقوات.

بأمر من قيصر، تمَّ وضع سُلَّم من الحبال؛ وهو يحمل قُفّة، صعد ثيودوتوس بمشقة.

قبالة المحتل الروماني، قام بالانحناء.

- أين بومبي؟ سأله قيصر بصوت حاد.

- منذ ثلاثة أيام، حاول منهزم فارسالوس أن ينزل في بيلوز؛ لم يرق ذلك التطفل للجنرال أخيلاس ولا للوصي فوتان، المستشاران الآخران لملكنا المحبوب. لذا تناقشنا كثيراً حول الإجراءات التي يجب اتّخاذها، لأن وصوله كان قد أربكنا.

- هل رفضتم منح قيادة جيشكم لبومبي؟

- أجل.

حبس قيصر زفرة ارتياح؛ هذا القرار يدعم انتصاره ويفتح له أبواب مصر. أصبح إفلاس خصمه اللَّدود الذي كان سيد الشرق في السابق حتمياً؛ في روما، سيكون انتصار قيصر لا يُنسى.

- هل يقيم بومبي في قصر بطليموس؟

بدا ثيودوتوس منزعجاً.

- حسناً. . . كان وصوله زاخراً بالأحداث. كان البحر في حالة أسوأ مما هو عليه اليوم، لم يكن في مقدور باخرته الدخول إلى مرفأ بيلوز الصغير لذا طلب منه الجنرال أخيلاس استعمال زورق صغير؛ على الشط، كان الملك والبلاط وبعض الفضوليين يشهدون الحادث.

- أكمل، أمر قيصر الذي أسخطته نغمة المؤدِّب الرنانة.

- طبّق الجنرال ومرافقوه قرار مجلس الأوصياء، الملخّص في بعض الكلمات من طرف فوتان: «الأموات لا يعضون».

لمعت عينا قيصر.

- وضِّح أكثر!

عندما رَسا القارب، قام أخيلاس وثلاثة جنود بطعن بومبي الذي حاول أن يقاوم. تمَّ رمي الجثة في الأمواج؛ لكنها ستعيدها، وقد أمر ملكنا بإحراقها.

- كيف يمكن تصديق مثل هذه البشاعة؟

- ها هي هدية الترحيب من بطليموس ليوليوس قيصر.

أزاح ثيودوتوس غطاء القُفّة وأخرج رأس بومبي وأمسكه في طرف ذراعيه متفادياً النظر إليه.

رغم اعتيادهم على الموت والعنف، تراجع روفين والبحارة الرومان خطوة إلى الخلف.

أما بالنسبة إلى قيصر، فقد أخذ يتأمل رأس بومبي العظيم الذي تخلَّى عنه الحظ فجأة.

- خلّصناك من غدوك اللَّدود، همهم ثيودوتوس وهو يعيد الرأس المقطوعة إلى القُفّة ويضعها عند قدمي قيصر.

- لموافقته على هذا القتل، سيُحكم على بطليموس بالتسكع في الجحيم وسيعتبر خائناً.

ارتعش ثيودوتوس؛ ألن يخرج الروماني سيفه من مغمده ويضرب عنقه؟

لكن قيصر، متناسياً وجود الرسول المرعب، أحنى عينيه وأجهش بالبكاء.

23

من جبلها، شاهدت كليوباترا وصول الأسطول الروماني؛ كانت تتوقع ردّ فعلٍ سريع من طرف البحرية المصرية، لكنه لم يبدُ سوى عبر إرسال مركب بسيط!

ما معنى ذلك المشهد المدهش؟ قلقة، انتظرت الملكة بصبر نافد تقرير أبولودور الذي كان يجمع الشهادات والملاحظات والجواسيس.

- أخيراً، ها أنت ذا!

- إنه أسطول قيصر، المنتصر على بومبي في معركة فارسالوس وأقوى الجنرالات الرومان.

- قيصر يطارد بومبي. . . ما دام لم يشاهده مكبّلاً، سيواصل!

- انتهت المطاردة، أسَرّ الصقلي؛ قُتل بومبي وقُطِع رأسه، ثم أحرقت جثته.

لم تخفِ المرأة الشابة اندهاشها.

- لقد قام بطليموس وفرقته بمجازفة كبيرة!

- بالعكس، عارضها الحاجب؛ إنها استراتيجية ماهرة. بتقريرهم قتل بومبي، وضعوا حدّاً للصراع الذي لا ينتهي بين الرومانيين، والذي كان من الممكن أن يتواصل على الأرض

المصرية. هذا القتل؟ هدية رائعة لقيصر! ربما ادّعى السخط والحزن؛ في واقع الأمر، هو يرحب بتدخل بطليموس الجذري.

وهي تشعر بالحيرة، عادت كليوباترا لتتأمل البحر؛ كان الأسطول الروماني قد غادر ضِفاف بيلوز متجهاً نحو الإسكندرية. وإذا كان حاجبها مخطئاً، هل اختفاء بومبي ووصول قيصر يخدم قضيتها؟

ريح قوية كانت تحرِّك شعرَها، والشمس تلون جلدها؛ لم تعد الملكة تشعر بالضياع، وقع الحادث الذي تنبّأ به هرمس!

- وإذا كان يحدد نهاية ثورتك؟ سألها صوت الساحر الجهوري. كان بومبي رجلاً وحيداً، منهزماً، يبحث عن الحماية، غير قادر على خوض قتال؛ أما قيصر، فهو في صعود وسيذلل جميع العقبات من أجل أن يصل إلى السلطة العليا.

- وأنا، كليوباترا، سأكون إحدى هذه العقبات؟

لزم هرمس الصمت.

- قيصر، بطليموس أو شخص آخر، أنا أرفض الاستسلام!

- ألا تخشين الموت؟

- أشعر برغبة في أن أعيش وأحكم.

تاركة هرمس، أمرت الملكة حاجبها بأن يجمع أتباعها. تحت ضوء منتصف النهار، أظهرت المرأة الشابة سلطة بحيث لم تتعب لتفرض الصمت الذي بالكاد كسره طيران طيور البلقان.

- عندي أخبار ممتازة! ارتكب بطليموس خطأ فادحاً بقتله بومبي، غريم قيصر، وبنسيانه أن الاثنين رومانيين؛ ليس لقيصر سوى فكرة في رأسه: الانتقام! على رأس فيالقه، سيزرع الرعب في

الإسكندرية ولو مقابل خسائر كبيرة، وسيحوِّل جيش بطليموس إلى أشلاء. حينئذٍ سنتدخل وسنسحق الناجين من المعسكرين.

تلك الرؤية الرائعة أعجبت المرتزقة؛ كان عند تلك الملكة مخ وستعرف أن تقودهم إلى النصر.

- الصبر هو أفضل أسلحتنا، استطردت كليوباترا؛ فلنترك بطليموس وقيصر يتصارعان؛ وعندما يحين الوقت، سنقوم بشنّ هجوم كاسح. إلى ذلك الحين، لن ينقصكم شيء.

حيّت هتافات وعد كليوباترا.

*

سرّحت شارميان شعرَ الملكة قبل وجبة العشاء الذي منحته لضباطها ووجدتها جميلة بحيث لم تندم أنها تبعتها.

- أقنعني حديثك تقريباً، صاحبة الجلالة؛ اعذري وقاحتي، لكن هل لحججك أساس؟

- المستقبل سيقول ذلك.

انهار تفاؤل الخادمة.

- هذا الانتصار... ليس سوى حلم؟

- ألا تحلمين بالعودة إلى الإسكندرية؟

- يا لها من سعادة غامرة!

- لا تتوقفي عن الاعتقاد في ذلك، شارميان، وثقي بإصراري.

قامت الخادمة بتزيين الملكة، حرصت على إبراز عينيها بواسطة كحل أخضر عميق.

بعد أن أنهت مهمتها، أحست بشعور مؤثّر: هذه الملكة ألا تكون تجسّداً لإلهة ذات قدرات خارقة؟

قطع أبولودور تأملها.

- صاحبة الجلالة، مُشكِل حساس في التموين يفرض نفسه، وجنودك شهيتهم مفتوحة.

- ما الحل الذي تقترحه؟

- أخشى ارتكاب خطأ. يدّعي أحد الرجال أنه قادر على إمساك تدبير المؤن، لكني أترك الأمر لك لتحكمي.

- بطريقة أخرى، أنت لا تثق به!

- هل أستطيع أن أقدم لك الشخص؟

- فليأتِ.

أدخل أبولودور العجوز، يرافقه ريح الشمال.

ابتسمت كليوباترا من المفاجأة.

- ها ذا أنت... أيها الجندي؟

- أبداً! لكن من ناحية المشرب والمأكل، أعرف كيف أتصرف؛ وأعتقد أن صاحب البطن المملوءة يظلُّ وفياً لرئيسه. أنا وريح الشمال وضعنا حدّاً لمؤامرة شريرين؛ وستتكرر إذا لم يتغذَ ويشرب جنودك بشكلٍ صحيح.

- وتظن نفسك كفؤاً لهذه المهمة؟

رفع العجوز والحمار رأسيهما.

- صاحبة الجلالة، أمامك واحد من سلالة عريقة من مدبّري المؤن، أرضوا أعرق العائلات. وعندما ألتزم، ألتزم.

رفع ريح الشمال أذنه اليمنى دليل الموافقة.

كان أبولودور ينظر بعيداً.

- بعد موافقتك، استطرد العجوز؛ ابتداءً من الغد سأصادر

قبوين مليئين بجرار نبيذٍ أحمر ملائم، وعدة مخازن وبساتين خُضر، مقابل تعويض ملائم. بعد ذلك، سأنظِّم المطابخ والوجبات. مخيم عسكري من دون انضباط، عار!

أقره الحمار.

- إلى العمل، قررت كليوباترا.

24

وقف ثيودوتوس جامداً كأنه تمثال، ينتظر نهاية جلسة تأمل يوليوس قيصر ويخشى انفجار غضبه، أو حكماً بالإعدام. رغم أنه بإهدائه رأس بومبي، كان الثلاثي المكوَّن من الخصي فوتان، والمؤدِّب ثيودوتوس، والجنرال أخيلاس يأملون الحصول على عرفان من المنتصر في معركة فارسالوس؛ ألم يكونوا قد خلّصوه من غريم مزعج، ألم يفتحوا له طريق روما والسلطة المطلقة؟

- سننطلق حالاً إلى الإسكندرية، قرر قيصر.

- المرفأ مغلق، الملك غائب...

- ستحرر الولوج وستقودني إلى القصر.

فهم ثيودوتوس أن بقاءه على قيد الحياة كان مقابل هذا الثمن وتوقف عن تقديم أي اعتراض آخر.

توجّه الأسطول الروماني المكوَّن من أربع وثلاثين باخرة نحو الإسكندرية؛ كانت الرياح المواتية ستقلص من وقت الرحلة.

كان قيصر يتوفر على ثلاثة آلاف ومئتي فيلقي، ينحدرون من الفيلق السادس الذي قام بقيادته في تساليا، ومن السابع والعشرين؛ يضاف إلى أولئك الشجعان، ذوو الخبرة الكبيرة، ثمانمئة فارس، جرمانيين وغاليين، يتوفرون على دواب قوية. في حين، بحسب

معلومات يجب التحقق منها، كان جيش بطليموس يتكون على الأقل من عشرين ألف رجل، أغلبهم إغريق، تحتاج قدراتهم العسكرية إلى تقييم.

بصفته إمبراطوراً، كان قيصر يتوفر على حقّ الموت والحياة الذي لم يكن أحد من جنوده ينازعه عليه؛ متعودين على أسوأ المواجهات، وعلى ظروف عيش لا تطاق، وعلى انضباط صارم، كان رجال الفيالق مستعدين للموت من أجل الجنرال قائدهم. كانت شجاعته ومهاراته تجعلهم فخورين بالخدمة، ولم يفتأ مقامه يرتفع.

الاقتتال واحد ضدّ خمسة في أرضٍ غريبة... هذا الفعل كان محفوفاً بالمخاطر، وكان على قيصر أن يحترس قبل أن يشعل صراعاً، ولو جزئياً؛ لكن لا مجال لإظهار أي ضعف قد يستغله خصومه المحتملون. إذا أحسوا بخوفه أو تردده، ألن يتلقى نفس مصير بومبي؟

ثم جاء اكتشاف مرفأ الإسكندرية، الذي تُهيمن عليه المنارة التي شيدت على صخرة تضربها الأمواج، في الرأس الشرقي لجزيرة فاروس، مواجهة لمدينة الإسكندر الأكبر. في قمة تلك المَعلَم، تمثال لزوس المنقذ.

كانت بواخر البحرية الحربية المصرية تشكّل سدّاً منيعاً.

- الأمر لك، قال قيصر مخاطباً ثيودوتوس.

ذهب المؤدِّب إلى زورقه الذي كانت قد سحبته الباخرة الأميرالية؛ على سطحه، سار الجدافون، سعيدين لبقائهم على قيد الحياة، بوتيرة سريعة.

- هذا الإغريقي أفعى حقيقية، لزج وصعب المنال، قدَّر روفين؛ أدهشني تسامحك.

- تسامح عابر ومهتم.

- سيخوننا ذلك الفأر وسيعطي أمراً بالهجوم! رجالنا مستعدون؛ المرور بالقوة لن يكون سهلاً.

كان قيصر يتأمل «الإسكندرية اللامعة» التي تغنّى العديد من الزوار بجمالها؛ قريبة وبعيدة في الوقت نفسه، مآثر رائعة تمتد على طول الميناء.

وافى زورق ثيودوتوس الصفوف المصرية، صعد المؤدِّب إلى باخرة عليها العديد من الرماة.

اقتربت ساعة الحقيقة.

ربما، إذا تحركوا بسرعة، سيتوصل الرومان إلى خرق خطوط العدو. بأعصاب مشدودة، كانوا ينتظرون إشارة **الإمبراتور**.

لم تُرفع أشرعة بواخر بطليموس، تباعدت الواحدة عن الأخرى وتركت ممراً.

- إنه فخ! قدّر روفين؛ لا تتحركوا.

- هم خائفون ولا يجرؤون على القتال؛ فلنظهر تفوقنا.

تحركت الباخرة الأميرالية، تبعها الأسطول.

كان روفين يخشى السهام وتصرُّفاً سريعاً من المصريين، يغلِق فكّي الفخ؛ واقفاً في مقدمة الباخرة، كان قيصر فريسة مثالية. إذا قُتِل، سيحدث التزاحم.

فقط هبوب الريح، قشعريرة الماء الذي تمر فوقه الزوارق، مداعبة شمس الغروب... دل زورق ثيودوتوس الأسطول الأميرالي على المرفأ.

*

كانت جموع السكندريين قد تكدّست على الأرصفة والشوارع

المؤدية إلى حي القصور. لا وجود لمظاهر الفرح، فقط وجوه واجمة، أو عدائية، وإحساس بالسخط؛ لماذا لم تدفع بحرية بطليموس هؤلاء الغزاة؟ هي تتوفر على عدد أكبر من البواخر وكانت بلا شك ستنجح في إغراق أسطول العدو. بعد اغتيال بومبي، يفتحون الأبواب لقيصر، العسكري عديم الرحمة، سفاح الشعوب، رمز الغطرسة الرومانية!

وكيف ستتصرف الحامية المكلَّفة بأمن الإسكندرية بينما أخيلاس يواجه كليوباترا في بيلوز تحت أنظار الملك؟ روماني، وبالأخص قيصر، لا يقوم أبداً بزيارة ودية لملك؛ جاء ليستولي على عرشه ويستعبد شعبه! فخورين بعاصمتهم المزدهرة، لم يكن السكندريون يحسون بأدنى رغبة في الخضوع لسيطرة عسكريين محدودين.

- الطريق لقيصر! أمر روفين، يرافقه ثيودوتوس وهو متضايق، يتحين الفرصة كي يختفي.

ظهر حاملو الفؤوس الذين يسبقون مسؤولاً رفيعاً وهم يحملون حزمة قضبان يتخطى منها فأس؛ كان حضورهم يعلن سلطة قيصر التشريعية، والذي كان يتقدم بهذا الشكل كسيد مصر الجديد.

- القانون الروماني، لا نريده! صاح أحد المحتجين؛ فلنرمِ هؤلاء البرابرة إلى البحر.

رددت المئات من الحناجر إنذاره، تخلَّى جنود بطليموس المشاة عن سلبيتهم ولوّحوا بالرماح.

أخذ الفخ الذي كان روفين يخشاه ينغلق: هذه الجموع التي تصيح، والتي أُطلِق عنانها، ستسحق حاملي الفؤوس وتهاجم قيصر؛ أمسك الملازم بذراع ثيودوتوس.

- ستكون أول من يموت، أعلن روفين لثيودوتوس.

لم يكن للنحيف السلطة اللازمة لتهدئة مواطنيه واعتقد أن ساعته قد حانت.

كوّنت الجموع جداراً متماسكاً، وأوقفوا تقدم حاملي الفؤوس؛ وقف الجنود والمدنيون بحيث يمنعوا كل محاولة فرار. بعد أن وقعوا في الشرك، لم يصدر الرومانيون سوى مقاومة تافهة.

وخز رأس سيف روفين القصير عنق ثيودوتوس.

- فلنتراجع، توسَّل المؤدِّب.

- مستحيل، أكره الخونة.

- ليس خطأي، أنا...

- تذكر بومبي!

بينما كان روفين يستعد لقتل النحيف الطويل قبل أن يذهب لإغاثة قيصر، جمدته صرخة.

- ها هو، إنه هو!

في لحظة، هدأت الجموع وخفتت الهتافات؛ ابتعد المعتدون، مفسحين الطريق للإمبراتور. تقدَّم بخُطى هادئة، رافعاً رأسه؛ مرتدياً عباءة أرجوانية، لم يكن يتحلَّى سوى بحلية واحدة، حلقة بمثابة الختم عليها صورة فينوس، إلهته الراعية.

اندهش السكندريون من هيبة واتّزان وهدوء قيصر؛ أُعجِبَت النساء بدقة ملامحه، وسحره، وأناقته، وفقدن الرغبة في تمزيقه أشلاء. من الواضح أن هذا الروماني لم يكن بربرياً غير حساس للجمال.

أعاد روفين سيفه إلى مغمده. وأمر ثيودوتوس:

- توقف عن التباكي.

كما لو بفعل معجزة، أصبح الطريق سالكاً، وقاد المؤدِّب وهو يرتعد حاملي الفؤوس الذين يتقدمون قيصر.

حقق الغازي انتصاراً جديداً، لكن روفين لم يكن يشك في كونه عابراً؛ هذا الهدوء الظاهر لن يستمر، وبمجرد الوصول إلى القصر الملكي، سيتخذ الإجراءات اللازمة من أجل أن يحقق الأمن لقيصر.

لم يعر ملازمه أي اهتمام لروعة المنشآت، لأن همّاً واحداً كان يؤرقه: هل ستكون الإسكندرية قبر الإمبراطور؟

25

لقيت الوليمة التي منحتها كليوباترا لضباطها نجاحاً كبيراً؛ أحس المرتزقة أنه تم رفعهم إلى درجة غير منتظرة. وبفعل النبيذ، تصوروا أنفسهم يغزون الإسكندرية وهم يهتفون لمجد الملكة.

حققت المرأة الشابة هدفها: ربح الوقت في انتظار النتيجة النهائية للمواجهة بين الرومانيين والسكندريين. قبالتها، كان جيش أخيلاس لا يتحرك، مانعاً إياها من كل تقدم؛ وهل يكون اقتحام قيصر سهلاً؟ كانت العاصمة تفتخر باستقلالها النسبي، وكانت القوات المسلحة التي بقيت هناك قادرة بمساعدة البحرية على دفع الغزاة. كان الرومانيون يتقنون القتال، سيعيدون ضربة بضربة، ستكون الضحايا عديدة؛ مضطراً إلى مغادرة مواقعه، سيذهب بطليموس إلى الإسكندرية كي يشارك في القتال.

بعد ذلك، ستتدخل كليوباترا.

على الأقل، أرادت إقناع نفسها بذلك، رافضة الاعتقاد بأن بطليموس وقيصر سيتحالفان، ويقررا قتالها؛ أمام مشهد جيش ضخم، شبيهاً بموجة كبيرة، سيهرب جنودها.

ستقاوم إلى النهاية، لكن كيف يمكن تفادي كارثة؟

بعد إحساسها بالتعب، نامت شارميان؛ خرجت كليوباترا من

خيمتها وتأملت البدر التمام، شمس الليل الذي يملك أسرار المعارك المنتصرة. لماذا سيرفض مساعدتها؟

كان المرتزقة نائمين، فقط بعض الحراس مستيقظين؛ منجذبة إلى بريق الماء ذي الانعكاسات الفضية، ذهبت الملكة إلى طرف رأس الجبل.

بقدمين حافيتين، تحدق في القمر، سلكت طريقاً يُحاذي هضبة ويهبط إلى البحر. كان قيصر تسبقه سمعة تثير القلق: ذكي، وماكر، وعديم الرحمة، ويعشقه رجال فيالقه، ويجهل الهزيمة. القضاء على ميليشيا امرأة شابة عديمة الخبرة العسكرية سيكون شبيهاً بلعب الأطفال.

مع ذلك، لن تستلم كليوباترا. كانت تعرف مصير أعداء روما: كان يتم ربطهم إلى عربات المنتصرين، ويتم عرضهم فرجة أمام الجموع الصارخة قبل أن يسقطوا تحت التعذيب في قاع حفرة عميقة. من الأفضل أن تموت في الحرب.

فجأة، أحست بحرقة قوية في عقبها؛ أحنت عينيها، رأت الملكة عقرباً أسود يجري. نظراً إلى حجم الوحش، لن تترك لها كمية السم فرصة للبقاء على قيد الحياة. قريباً ستصبح الآلام غير محتملة، سيقطر جسمها من العرق، ستتسارع دقات قلبها، وسيصعب عليها التنفس.

أحست كليوباترا تقريباً بالرغبة في الضحك؛ هكذا، ستموت بعيداً من الإسكندرية ولن تخوض أي معركة! كسرت الآلهة قدرها الأرضي ولم تمنحها إمكانية تحدي المجهول.

كي تتفادى الآلام المبرحة، حل واحد: الاستسلام للبحر والذوبان فيه؛ ستساعدها عذوبة المياه على مغادرة وجود خالٍ من

الأمل. اقتربت كليوباترا من الشاطئ عندما سمعت صوتاً جهورياً أوقف اندفاعها.

- هل أنت مستعجلة على الموت؟ سألها هرمس.

- لدغني عقرب.

- هل تجهلين وجود الدواء؟

- ليس هنا، في هذا المعسكر...

- اتبعيني.

مُقاوِمةً الألم الذي بدأ يلمُّ بها، وافقت المرأة الشابة؛ هل سيتمكن علم هرمس من إنقاذها؟

سارا بمحاذاة البحر، توجه الساحر نحو معبد كانت واجهته مزينة بعمودين. كان الباب مفتوحاً، دعى هرمس الملكة لتتخطى العتبة.

في الجزء الأقصى من الصرح، تمثال تضيئه مصابيح. كان يمثل إيزيس، مرتدية عباءة طويلة وتحمل عرشاً يتكون من قرني بقرة يحيطان بشمس؛ حول ذراع الإلهة الأيمن، حية ملتوية، وتحت قدمها، تمساح. خاضعين، لم يكن المخلوقان يمثلان أي خطر.

- إيزيس تعطي الحياة في هذا العالم وفي الآخر، ذكّرها هرمس؛ وتطيل وجود المؤمنين بها وتمسك دفة القدر. من دون مساعدتها، يستحيل الحكم بعدل؛ بفضل كلامها، يمكن لملك أن يحتل عرشه، يحارب أعداءه، وينتصر على قوات الظلام. أُمّ الآلهة، الوحيدة التي لا شبيه لها وتملك سر الضوء، هل ستكون إيزيس دليلك؟

سحر جمال التمثال الملكة؛ معتادة على تبجيل الإلهة العظيمة، أحست أنها تكتشف قوتها الحقيقية. نسيت الاضطرابات التي بدأت

تجتاحها، ركعت وقابلت نظرة إيزيس. لم تعش أبداً من قبل مثل هذا الصلة الحميمية، صلة تأخذ روحها أبعد من العالم المرئي.

- انظري بعيني القلب، حثّها هرمس؛ اجمعي داخلك أحاسيس الخلق كله، النار والماء، اليابس والرطب، تخيلي أنك في كل مكان، على الأرض، في البحر وفي السماء. إذا عانقت بفكرك قوات الحياة، ستدركين ما هو إلهي.

لم تظل كلمات هرمس حروفاً ميتة؛ أصبحت كل كلمة واقعاً، وسافرت روح كليوباترا رفقة روح إيزيس.

بعد أن لاحظ أن الإلهة تستقبل خادمتها بشكلٍ جيد، صبَّ هرمس الماء على التمثال، ثم جمع الماء الذي نقع الحجر المقدس، والذي ملأ طستاً صغيراً تزينه حروف هيروغليفية تحتوي على عبارات الشفاء.

- عندما حمت ابنها حورس المختبئ في قلب المستنقعات، فسّر الساحر؛ دجّنت إيزيس العقارب، والحيّات، والتماسيح: من نارها المهدمة، صنعت علاجاً قادراً على إنقاذ الأوفياء، ضحايا الجروح والاعتداءات. اشربي هذا السائل السحري، كليوباترا، سيُبطل مفعول السم، ابتداءً من الغد ستكونين قد استعدت قوتك.

لم تتردد الملكة.

أحست بمياه الشفاء تسري في عروقها، واختفى الثقل الذي كان يضغط عليها.

- مهما حصل، نصحها هرمس؛ لا تبتعدي أبداً من إيزيس؛ هي وحدها ستمكّنك من الوصول إلى مرفئك باستعمال أفضل الرياح. تجاهلها سيقودك إلى الضياع. حالياً، نامي؛ ستسكن الإلهة أحلامك، وستحرر كلماتها جسمك من الشر.

ابتعد الساحر، استلقت كليوباترا عند قدمي التمثال ولم تتأخر أن استغرقت في النوم، تحت النظرة الحامية لمانحة الحياة. عندما سمعت صوتها، أصبحت خفيفة كأنها ريشة عصفور، ورأت مشهداً رائعاً، مليئاً بالأشجار المزهرة.

26

لم تتوقف أخت الملكة الصغرى، أرسينوي، عن الدوران في حلقة مفرغة داخل الجناح الخاص الذي خصصه لها بطليموس داخل القصر الملكي. كانت تكره ذلك الولد المزعج والمدّعي الذي يعتبر نفسه ملكاً ولا يفكر سوى في إشباع نزواته؛ أما بالنسبة إلى كيلوباترا، فقد كانت أرسينوي تبغضها! شديدة الذكاء، ثابتة العزم، جميلة، فاتنة... مجموع تلك المواهب أصبح يشعرها بالسخط! مراهقة لم تنصفها الطبيعة، كانت الفتاة الشابة تحلم بالحكم وكانت تتخيل نفسها محكوماً عليها بالموت من شدة الملل، يحيط بها خدمها الذين يخشون غضبها ولا يسعون سوى إلى إرضائها.

ماشِطات، مزينات، معطرات وخياطات كنّ يسعين لمنحها السحر الذي تفتقده. لعدم انجذابها إلى الصبيان، كانت أرسينوي تستمتع مع شابات بذيئات سرعان ما تطردهن من حياتها بعد انقضاء بعض ليالي المتعة؛ كان الحب يشعرها بالملل بسرعة، كانت تفضّل دسائس وكواليس السلطة التي ستقترب منها عاجلاً أو آجلاً.

هل ستكون الظروف مواتية؟ المؤامرة ضدّ كليوباترا، هربها، عودتها غير المتوقعة على رأس جماعة من المرتزقة، المواجهة الحتمية بين قطّاعها وجيش بطليموس، مقتل بومبي الذي جاء يبحث

عن منفى. . . كم من أحداث في وقت وجيز! هدوء الإسكندرية الغنية أصبح من الماضي، يجب عليها حالياً مواجهة الواقع الذي تخطّه روما.

بقي أمل: موت كليوباترا العنيف خلال هزيمتها الشنيعة النكراء. رغم شراسته، وبحسب الشائعات السارية، لن يستطيع خِلْط الثوار مقاومة جيش الجنرال أخيلاس. حينئذٍ، ستظهر أرسينوي في ضوء النهار وستبرهن عن مؤهلاتها؛ ولن يمنعها الصغير بطليموس من أن تفرض نفسها!

بقي الرومان: حلفاء أو أعداء؟ كيف ستتصرف القوة الأولى عالمياً بعد مقتل أحد أبطالها، بومبي العظيم؟ كانت أرسينوي متأكدة من شيء؛ يمكن شراء أي أحد، بما في ذلك الرومان؛ وفي فنّ التجارة، كان السكندريون لا يضاهيهم أحد!

كانت المراهِقة تحس بأنها قادرة على قيادة سياسة تطمح إلى تثبيت ازدهار مصر وعاصمتها؛ رجال الفيالق الجلف لم يكونوا يعرفون سحر الشرق وستأخذهم في حبائلها. كانت أرسينوي تستمتع بتحريك تلك الدمى وستعرف كيف تفرض نفسها كملكة لامعة.

وهي تحلم بذروة المجد هذه، كانت تعيش في الكآبة منتظرة أخباراً من بيلوز حيث لم تبدأ المواجهة بعد؛ لماذا يتردد الجنرال أخيلاس في أن يدوس على كليوباترا؟

كانت أرسينوي تتذوق عنقود عنب قرمزي عندما أحضر لها مستشارها وكاتم أسرارها، الخصي جانيميد، رسالة.

قوي البنية، أسود الشعر، نظرة مراوغة، وصوت أجش بشكلٍ دائم، كان جانيميد يتمنى سقوط جماعة بطليموس، اختفاء كليوباترا الطموحة ومجيء سيدته الشابة، عديمة الخبرة، لكن الجموحة؛ كان

الخصي يكوّن خطوة بخطوة شبكة من الداعمين تتكون من كبار الموظفين، والعسكريين، والتجار النافذين؛ كانت العودة العدائية للملكة المعزولة قد أدهشته؛ لإحساسه بعدم الاستقرار كان جانيميد يخشى الفوضى.

- هل ماتت كليوباترا؟ سألت أرسينوي، وعيناها تلمعان.

- هذه الرسالة تشير إلى أن الجيشين متقابلين.

بعد أن أحست بالخيبة، رمت المراهقة عنقود العنب بعيداً.

- حدث أمر آخر، استطرد الخصي؛ وصل قيصر، ندّ بومبي. رغم أن الأهالي صرخوا في وجهه، استطاع أن يسحرهم، ولم تجرؤ حاميتنا على دفع الرومانيين. ذلك الثعبان ثيودوتوس قاد الإمبراتور إلى القصر، وأنت التي تمثلين الدولة، في غياب بطليموس وكليوباترا. هل ترغبين في مواجهة هذا الجنرال؟

- هو لا يرعبني!

- يقال إنه عديم الرحمة، والحذر يبدو ضرورياً؛ أليس من الأفضل أن تختبئي؟

- سيجدني وسيعاقبني! من الأفضل أن أواجهه.

استسلمت المراهقة لخادمتها التي ألبستها فستاناً أخضر بطيات وزيّنتها بالحلي. عصبية المزاج، يرافقها جانيميد، سارعت إلى قاعة المقابلات المخصَّصة للزوار المهمين.

اصطدمت بشخص مجعّد وحيوي، مربع الكتفين.

- إلى أين تجرين، أيتها الفتاة؟ سألها روفين.

- أنا الأميرة أرسينوي، أريد رؤية يوليوس قيصر!

- يجب قبلاً أن أفتشك.

دفعت المراهقة الفيلقي.

إذا لمستني سأقتلك!

تدخّل جانيميد.

- أنا أضمن الأميرة، هي لا تحمل أي سلاح!

- عند أول حادث صغير، ستدفع الثمن غالياً، قال روفين.

استدعا ملازم الإمبراتور حارسين.

- أحيطا بالأميرة وامسكاها بعيداً من قائدنا.

فتح روفين باب قاعة المقابلات حيث كان قيصر يدرس خريطة للإسكندرية أحضرها له ثيودوتوس.

وهي مستعدة لتحدي الغازي، تلقت أرسينوي نظرته التي سمّرتها في مكانها. كان الروماني الشهير وقوراً وجميلاً، بعيداً من صورة البربري التي تكوّنت في ذهن الأميرة؛ مندهشة، تحت السيطرة، لم تستطع الفتاة الشابة النطق بأقل كلمة.

- ها هي أرسينوي، أخت كليوباترا الصغرى، أعلن جانيميد، بصوت مرتعش.

شبك قيصر ذراعيه وتأمل المراهقة ذات الوجه القبيح، والهيئة العادية والمتزينة بالكثير من الحلي.

- ما هي وضعيتك الرسمية، أرسينوي؟

- في غياب الملك بطليموس والملكة كليوباترا عن القاهرة، حدد ثيودوتوس؛ بانتمائي إلى مجلس الأوصياء، أمثل الدولة.

- ليس هذه المرأة الشابة؟

- هي تنتمي إلى العائلة الملكية، ذكّره جانيميد، غير سعيد بتدخل المؤدِّب.

- هل تمارس أي سلطة؟ سألهم قيصر.

- لا ، ولكن. . .

- في هذه الحالة، فلتذهب إلى جناحها.

لم تكن نبرة الروماني تسمح بأي ردّ، انحنت أرسينوي ثم انسحبت.

27

وهو يتأمل من شرفة القصر الملكي الحي الأكثر ثراء في الإسكندرية، لاحظ قيصر، في الحديقة، بيتاً صغيراً شديد الأناقة.

- سأقيم هناك، أعلن لثيودوتوس.

- القصر شبه فارغ، الإقامة فيه أفضل.

- لقد حسمت أمري.

لا داعي لأن يوضح لثيودوتوس أنه من السهل تأمين البيت الصغير، على عكس الأجنحة الخاصة، المليئة بلا شك بالممرات السرية والأبواب المخفية.

- سأعهد لك بمهمة: إحضار الملك بطليموس والملكة كليوباترا إلى الإسكندرية.

- مستحيل، لن يتأخر جيشاهما عن أن يتجابها، قرب بيلوز!

- يتعلق الأمر بأمر يجب أن ينفّذ دون إبطاء.

خنقت صرامة اللهجة كل احتجاج.

- أريد أن أرى حالاً قائد حامية الإسكندرية؛ بعد أن تقدمه لي، ستنطلق إلى بيلوز؛ احرص على أن تكون مقنِعاً، ثيودوتوس. لا أحتمل عدم الكفاءة.

*

في نهاية اليوم، كانت الأبحاث والاستجوابات التي أجراها قيصر وروفين وكبار ضباط الجيش الروماني قد وصلت إلى نتائج واضحة. لا[1] من حيث عددها، ولا من حيث مكوناتها، ولا من حيث معرفتها العسكرية، لم تكن قوات أخيلاس تستحق الاحتقار؛ كانت تحتكم على عشرين ألف رجل، وتتكون بخاصة من جنود الروماني غابينوس، الذين تعودوا على حياة الإسكندرية المنحلّة ناسين انضباط الجيش الروماني؛ كان العديد منهم قد تزوج وأصبح له أبناء. يضاف إلى هؤلاء قراصنة وقطّاع طرق ينحدرون من سوريا، وقيليقيا، والبلدان المجاورة. بالإضافة إلى أن العديد من المحكومين بالإعدام والمبعدين كانوا قد تجمّعوا في الإسكندرية، التي كانت أيضاً تمنح للعبيد الهاربين منفى ووضعية أكيدة. إذا حدث وأمسك أحدهم من قبل سيده، كان الجنود يحررونه. يضاف إلى المشاة ألفين من الفرسان؛ وهذه الجيوش كانت قد شاخت في صراعات عدة، أثبتت على عرشه بطليموس الثاني عشر، الزّمّار، وشنّت حرباً ضد المصريين.

- ليس جيشاً حقاً، قدّر فوتين؛ بل جماعة أشرار!

- لكنهم مع ذلك يظلون خطرين، قدّر قيصر؛ وتفوقهم العددي يشكل تهديداً.

- سبق أن عشت مثل هذا الوضع.

- مرفأ، مدينة كبيرة، ساحة مجهولة... التحرك هنا لن يكون سهلاً.

- الأولوية المطلقة: تحقيق أمنك. وضعت أفضل رجالنا حول

---

(1) الأسطر التالية هي لقيصر نفسه، أخذت من الحرب المدنية.

مقرك الرئيسي. ابتداء من هذا المساء، ستتجول دوريات في المدينة، وستكون تقاريرها مهمة بالنسبة إلينا.

أقلقت سحنة قيصر الداكنة ملازمه الوفي؛ لم يره من قبل متشائماً إلى ذلك الحد.

- فليذهب مبعوث إلى آسيا الصغرى عند حليفنا ميثريدتس، وليطلب منه إعداد جيش واللحاق بنا إلى الإسكندرية.

عقد روفين حاجبيه.

- هل تخشى عصياناً؟

- قليل الاحتمال، لكني أفضّل توخي الحذر؛ وصول تعزيزات سيهدئ الوضع.

*

قوية بعشرة رجال، غادرت الدورية الأولى حي القصور والمنشآت الإدارية كي تتوغل في شارع مليء بمنازل فخمة. اكتشف الضابط، رجل ينحدر من بلاد الغال، شديد الولاء لقيصر، باندهاش روعة العاصمة المصرية؛ فتح رجاله أيضاً عيوناً مندهشة. بعد أشهر لا تنتهي من القتال وانتصار فارسالوس، كانوا يذوقون جو المدينة، الفخورة برخائها. ثكنتهم ستكون أكثر راحة من الخيام، وستملأ وفرة الطعام بطونهم. أما بالنسبة إلى النساء، بحسب الأصداء الأولى، فهن كثيرات! باختصار، إقامة رائعة تلوح في الأفق.

استقبال الأهالي لم يكن مرحاً. عند مرور الدورية، كانت الأبواب والنوافذ تُغلق؛ كانت ربّات البيوت يأمرن الأطفال بالدخول إلى البيوت، وكان المتسكعون يبتعدون.

- هم لا يحبوننا، لاحظ فيلقي، ملتحٍ، من أصول جرمانية.

- سيعتادون على وجودنا، تنبأ العسكري الأعلى منه درجة؛ سلطة روما تناقش.

- هؤلاء الإغريق ملتوون، متخصِّصون في الخداع القذر! هم يكذبون مثلما يتنفسون.

- فلتهدأ، سيعلّمهم قيصر أن يسيروا باستقامة.

حوالي ثلاثين خطوة، لوَّح رجل أصهب برمح قصير.

- الموت للمحتل، الموت للرومان!

- سنجعل هذا الرجل يبتلع لسانه.

رمى الأصهب سلاحه بقوة، لكن من دون دقة، وهرب مسرِعاً في أحد الأزقة. بالاندفاع نفسه، سارع أفراد الدورية على أثره.

زقاق مسدود.

لجأ الهارب إلى بيت متواضع بطابقين.

- سنفتشهم، وسنمسكه، أمر الضابط.

ما كادوا يطرقون أول باب حتى انبثقت صرخات في مدخل الزقاق؛ سدّ عليهم رجال مسلحون الطريق.

- قلت ذلك، هؤلاء الإغريق ملتوون.

دون أن تزعج نفسها بأية استراتيجية، انقضّت الدورية، ملوحة بالسيوف والرماح. لشدة عنفها، خلخلت الصدمة السدّ، ولم ينهض العديد من أصحاب الفتنة من جديد؛ لكن أحدهم، مع ذلك، استطاع أن يبقر بطن الملتحي. غاضباً، نجح هذا الأخير في أن يستدير وأن يضرب عنق القاتل.

- سنتراجع! هتف الغالي.

حمل فيلقيان الجرماني، الذي لم يكن قادراً على أن يتقدم.

- ستنجو، وعده رئيسه.

- كل هؤلاء الملتوين، فلتقضوا عليهم، تمتم وهو يسلّم الروح.

قتيل واحد، خمسة جرحى.

غير مهتم بالدم الذي ينزف من كتفه، كان الغالي يفكر في التقرير الفظيع الذي سيقدمه لقيصر.

28

قطع روفين عشاء قيصر الذي كان يواصل دراسة خريطة للإسكندرية ويتشرب من تلك الأرض الجديدة التي أحس أنها أخطر من أي غابة جرمانية.

- تمّت مهاجمة ثلاث دوريات، أربعة قتلى، ثمانية جرحى في حالة خطيرة؛ الثورة تزمجر، يقترب بعض المتظاهرين من القصر.

- فلتحضر معطفي الأرجواني.

مرتدياً لباس الإمبراطور، أمر قيصر ملازمه بجمع أهم قواته أمام القصر الملكي من أجل لفت الأنظار؛ كانت الاستراتيجية ناجعة. رددت المجموعة الغاضبة شعارات معادية للمجتاح.

ظهر قيصر في قمة الدرج الأثري، يحيط به حاملو مشاعل؛ كان الليل دافئاً، والقمر يضفي على مياه المرفأ لوناً فضياً.

في بضع ثوان، عمّ الصمت؛ كان شعب الإسكندرية توّاقاً لسماع إعلانات رئيس المحتلين.

- لم آتِ هنا غازياً، أكّد قيصر بصوت هادئ؛ لكن من أجل أن أقبض على بومبي وأن آخذه إلى روما. موته وضع حدّاً للصراع الذي كان يجمعنا، وليس في نيتي احتلال مصر؛ لذا أعترف بشرعية الزوج الملكي، المكوَّن من بطليموس الثالث عشر والملكة كليوباترا.

بعد المفاجأة عمّ الارتياح، وسمع «يحيا قيصر!».

- يجب أن تعرفوا كلكم أن بطليموس الثاني عشر، والد الملكين، كان قد عهد إلى بومبي بالحرص على احترام رغبته الأخيرة. بما أني ممثل روما الشرعي، يعود لي، اليوم، العمل على تحقيق هذا الواجب المقدس؛ لذا سأستقبل الملك بطليموس الثالث عشر والملكة كليوباترا، من أجل إقناعهما بإطاعة الراحل وتفادي حرب أهلية مروّعة. هذا سبب وجودي بينكم.

أحدث هذا الالتزام جوقة من الهتافات؛ هل من خبر أهم من هذا؟ اضطر الشكاكون إلى التزام الصمت، وحتى الفجر لم تفرغ الحانات. بعيداً من التسبب في العداء واعتبار مصر إقليماً رومانياً جديداً، احترم قيصر المؤسسات وسيجعل سلماً كان يبدو منتهياً يستتب.

تفرّقت الجموع. ولم يزدد روفين سوى إعجاباً بعبقرية قيصر.

*

كان ثيودوتوس غاضباً.

- كان رماتك على وشك أن يقتلوني، لام ثيودوتوس فوتان الذي تعجّب من رؤية المؤدِّب فريسة لأزمة أعصاب، هو الذي كان عادة شديد الهدوء.

- تعاليمهم محددة: منع أي أحد من الاقتراب من جلالته. يجب أن تغتسل وتغير ثيابك قبل أن تتحدث إليه.

- أحمل أمراً من قيصر.

- تقول فعلاً: أمر؟

- يجب تنفيذه بسرعة.

وهو مشغول البال، قاد فوتان زميله الوصي إلى خيمة بطليموس؛ بعد أن أفرط في تناول الحلويات، كان الملك الصغير يغالب النعاس.

تحسس الخصي ذراعه.

- استيقظ صاحب الجلالة؛ يرغب مؤدِّبك في إعطائك أخباراً.

فرك الصبي عينيه.

- هكذا، قيصر أفلتك!

- هو يرغب في إجراء حديث معك.

- أنا، لا رغبة لي في ذلك.

- كي أكون دقيقاً، قيصر يأمرك بالعودة إلى الإسكندرية، الشيء نفسه بالنسبة إلى كليوباترا.

- يأمر، يأمر! أنا ملك، وأنا الذي آمُر؛ فليذهب قيصر إلى بلده وليتوقف عن إزعاجي. عندي حرب يجب أن أخوضها، أنا.

- في نظري، عصيانه سيكون خطأً كبيراً؛ باعترافه بشرعيتك، قيصر يدعم سلطتك وروما لن تزعجنا.

نهض الملك.

- أنا أشعر بالعطش والجوع.

- ستنتظر، حسم ثيودوتوس مهتاجاً؛ في البداية يجب إيجاد حل لهذه المعضلة.

- أشاطرك الرأي، ألحَّ فوتان؛ قيصر قائد حرب مروع يمكن أن يسبب لنا ضربات موجعة.

- جيشنا يفوقه عشر مرات!

- ربما، لكن كيف سيستطيع المواجهة في جبهتين؟ قيصر من

جهة؛ ومن جهة أخرى كليوباترا! فلنحصل على رضا هذا الغازي؛ بعد ذلك سنتخلص من أختك المشؤومة.

هذه الرؤية حصلت على اهتمام بطليموس.

- لم يُستقبَل قيصر بشكلٍ جيد، صرَّح ثيودوتوس؛ الشعب مستعد لكي يثور إذا كان عرشك مهدداً. ليس هناك ما تخشاه إذن! ستكون عودتك انتصاراً.

لم يكن فوتان يشاركه ذلك التفاؤل.

- ألم يطالب قيصر أيضاً بلقاء كليوباترا؟

- إخطارها غير وارد! يجب الاستمرار في حبسها هنا، بالتوضيح لقيصر بأنها ترفض مقابلته وليست لها سوى رغبة وحيدة: الاقتتال. حينئذٍ، سيساعدنا الرومانيون على إزالة هذا الثؤلول.

- وإذا هاجمناها الآن؟ قال الصبي.

- لا ينصح الجنرال أخيلاس بذلك، أجاب فوتان؛ ميليشيا تلك الساحرة ستواجهنا بمقاومة شديدة ولن يكون النصر أكيداً. يفضِّل أخيلاس انتظار أن يفقد هؤلاء المرتزقة صبرهم وينقسموا؛ نظراً إلى افتقارها للخبرة، لن تستطيع كليوباترا إعادة تنظيم صفوفها.

- قيصر أتى ليشوش على هذه اللعبة، إغواؤه ضروري.

- هذه المحادثات تشعرني بالملل، قال بطليموس بحدّة؛ وأنا فعلاً أشعر بالجوع.

نادى ثيودوتوس على أحد الخدم الذي أسرع بإحضار الحلويات؛ تدخّل المؤدِّب.

- هل قررت التقاء قيصر؟

- أجل، أجل!

- تستحق مكافأة، صاحب الجلالة.

ارتمى الصبي على الحلويات. ذهب فوتان وثيودوتوس لموافاة الجنرال أخيلاس من أجل عرض حالة الوضع الراهن وأخذ الإجراءات اللازمة؛ بقي أن يأملوا أن يوافق قيصر على الملك الصغير ومجلس أوصيائه.

29

كان الصباح رائعاً؛ ريح خفيفة بالكاد تجعّد سطح البحر، شمس خريف تُضفي على المشهد لوناً ذهبياً، والأفق بدا أكثر اتساعاً. وهي خارجة من مزار إيزيس، أحست كليوباترا بالخدر وهي تفكر في شبابها وآمال المستقبل؛ كان سحر الإلهة قد قضى على السم، لم يبقَ من أثر للدغة العقرب.

للحظة، توقفت عن أن تناضل؛ لماذا لا تتذوق المتع البسيطة، تستمتع بصفاء الفجر وروعة الغروب وتتنازل عن قيادة جيش تكوَّن بطريقة ارتجالية ومحاولة المستحيل؟ شابة، كانت كليوباترا قد خبرت عدة تجارب حياة: حياة الأميرة المدلَّلة المستفيدة من ترف القصر، حياة الملكة التي تؤمن بالسلطة المطلقة، حياة ملكة معزولة تجوب البحر والصحراء، حياة قائدة حرب قادرة على إخافة الجنرال أخيلاس... ألم يحن الوقت لتوقف هذه الزوبعة وتستغل وجودها الفعلي، وجود امرأة شابة، تعشق الجمال، والتي نسيت أن تحب؟

الحب أو السلطة... باختيارها هذه الأخيرة، ألم تخطئ الطريق؟ ألا يكفيها أن تترك هؤلاء الجنود التائهين وتصنع لها حياة جديدة، بعيداً من مصر؟

بالتفكير في بلدها أحست بقلبها ينقبض؛ لا شيء يثير شغفها

أكثر من مصير هذه الإمبراطورية العريقة التي كان أول ملوكها هما أوزوريس وإيزيس. لن تستطيع الابتعاد من هذا القدر الذي أصبحت ملتصقة به؛ مهما كانت حظوظها في الحكم هزيلة، فهي لن تضيعها.

لدغة العقرب كانت إشارة: يجب أن تعلن الهجوم، تقطّع إرباً قوات أخيلاس وتشق لها طريقاً إلى الإسكندرية.

قبل العاصفة، منحت الملكة نفسها متعة أخيرة بالسير في زبد الأمواج؛ بالإضافة إلى نعومتها كانت قوتها تتجدد باستمرار. رُبّانة البحارة، ضامنة المِلاحة السعيدة، هل ستواصل إيزيس رعاية تلك التي أنقذت قبل قليل؟

سلكت الطريق الذي يعيدها إلى رأس الجبل؛ هلعة جرت الخادمة شارميان لملاقاتها.

- بحثت عنك في كل مكان، صاحبة الجلالة! ظننت أنهم خطفوك وأنني لن أراك حية ثانية... هل أنت سليمة؟

- اطمئني.

وافاهما أبولودور.

- صاحبة الجلالة... تسعدني رؤيتك ثانية! اظهري بسرعة للجيش، أرجوك! تسري الشائعات الأكثر حمقاً، واضطر العجوز لتوزيع جرار النبيذ كي يهدّئ النفوس.

- ألم يتدخل هرمس؟

- لقد اختفى.

هكذا يتركها الساحر كي تعيش وحدها تجربة المواجهة الحاسمة التي ستمنح لها الموت أو السلطة.

- الملكة... الملكة هنا! صاح أحد السوريين وهو يلمح كليوباترا.

توقف الحديث والشرب في الحال؛ أُستهزئ بالمتشائمين، وحرص كل مرتزق على أن يتأكد بعينيه من أن الملكة كانت فعلاً على قيد الحياة. هدأت أعصاب العجوز، وشرب عدة جرعات من نبيذ أبيض منشط؛ بعد أن اطمأن هو الآخر، ذاق ريح الشمال قُوته الذي يتكون من الخبز المبلول وحبّات العنب وقطع التفاح والبرسيم.

- اللحظة الحاسمة تقترب، أعلنت كليوباترا؛ كثّفوا تدريباتكم واستعدوا لسحق العدو!

حيّت الهتافات هذا الإعلان؛ بعد فترة خمول، كان العديد منهم يرغب في التضارب.

- تقرير أحد العيون، صاحبة الجلالة، نقل أبولودور؛ هناك حركة عند الخصم.

- استعداداً للهجوم؟

- لا، بل للتراجع؛ يحتمي العديد من الجنود داخل القلعة، بقي فقط خط دفاع. انطلق موكب ضخم منذ قليل نحو الإسكندرية.

في طرف معسكر كليوباترا، أعطى العَسَسُ إشارة إنذار؛ سارع بعض المشاة واستطاعوا من دون عناء السيطرة على فلّاح مجرد من السلاح أحضروه إلى الملكة.

وهي محتارة، تعرفت إلى أحد خدم القصر. منهك القوى، انبطح الرجل أرضاً.

- أنا أحد أتباعك، صاحبة الجلالة، ولقد غادرت العاصمة من أجل أن أعلمك! وقائع جسيمة حدثت مؤخراً.

- أسمعك، قالت الملكة وهي تحس بالشك.

- دخل قيصر ورجاله إلى الإسكندرية. أمام عداء الأهالي الذين لم يترددوا في مواجهة الدوريات، أدلى الجنرال بخطاب كي يبرر

وجوده. بعد وفاة بومبي، أصبح الأمر يؤول إليه بالحرص على تنفيذ وصية والدكما، التي عهد بها إلى روما؛ لذا يأمر قيصر بعودتك وعودة شقيقك. هو يرغب في وضع حدّ لصراعكما وإثبات السلم. المبعوث المسؤول عن الاتصال بك هو المؤدِّب ثيودوتوس.

- فلنعالج الرجل ولنطعمه، أمرت الملكة؛ بعد ذلك سيشتغل تحت أوامر العجوز.

ساعد جنديان الخادم على النهوض والمشي.

- إنه فخ قبيح، قدَّر أبولودور؛ قيصر يريد أن يغزو مصر ولا يفكر سوى في الاستفادة من الصراع الذي يواجهك مع بطليموس.

- أنت بلا شك على حق، لكن ربما يشعر أنه ليس في موقع قوة ويسعى إلى كسب الوقت متفادياً ثورة شعبية. في جميع الأحوال، لن يقدم ثيودوتوس دعوته سوى لبطليموس، وذلك الطاغية الصغير سارع بالعودة إلى الإسكندرية. سيشرح هو ومستشاروه لقيصر أنهم الحكام الشرعيون وأنني غير مؤهلة لأني انتفضت ضدّ شقيقي؛ بعد أن يشبعوه كذباً، سينتهي الأمر بقيصر إلى تصديقهم. وعدم ذهابي إليه سيكون دليلاً على صدق كلامهم. احترام وصية والدي البئيس؟ سيتم تزويج بطليموس الصغير بأختي الصغرى أرسينوي التي تكرهني ولا تحلم سوى بأن تحكم! هذا التعدي على الوثيقة لن يكون صادماً، وسيتم إقصائي بشكلٍ نهائي، لأني لن أستطيع هزم جيش هذا الزوج الملكي، الحليف لفيالق قيصر.

لم يبدِ أبولودور أية معارضة. ذكاء الملكة مكّنها من إعطاء صورة واقعية للوضع ودحض آمالها باعتلاء العرش. المعركة كانت خاسرة قبل بدايتها؛ بقي أن يتخلصوا من المرتزقة ويجدوا منفى، حيث بعيداً من الإسكندرية، ستعيش كليوباترا على ذكرياتها.

30

كانت إسكندرية بطليموس الثالث عشر وكليوباترا تضم ستمئة ألف نسمة، وكان ثلث السكان من اليهود. لتمتعها بامتياز منحها إياه الإسكندر الأكبر، كانت النخبة من الطائفة اليهودية تسكن في حي رائع من العاصمة، البروكيون، القريب من القصور؛ وكان باقي أفراد الطائفة يحتلون الجهة الشمالية الغربية من المدينة، قرب المرفأ، كما كانت هناك أُسر يهودية في كل مكان من ذلك المدينة الكبيرة وضواحيها.

منذ تأسيسها، كان قد سُمِح لليهود بالعيش بحسب قانونهم، قانون التوراة؛ وكان الكثير منهم يتخذ أسماء إغريقية أو يبدل اسمه العبري كي يصبح إغريقياً، بحيث يندمج في المجتمع الذي يسيطر عليه خلف الإسكندر. كانوا يتحدثون ويكتبون الإغريقية، لكنهم يمارسون ديانتهم وظلّوا أوفياء لتقاليدهم.

كان اليهود يتوفرون على كنيس باذخ، كاتدرائية مزودة بأعمدة وسبعين منبراً من الذهب والأحجار الكريمة يحتلها سبعون من القدماء، حراس التقاليد؛ في الوسط، منصة من خشب خاصة بالمنشد المكلَّف بقراءة التوراة. كانت الاحتفالات تجمع أتباعاً متحمسين ومتماسكين، سعداء باستطاعتهم العيش في قلب مدينة مزدهرة.

في أمسية الثالث من أكتوبر سنة (48-)، كان أنتيباتر يسير بخطوات مسرعة نحو كنيس آخر، كنيس الضاحية الجنوبية الغربية، الذي سمحت به كليوباترا قبل أن تضطر إلى مغادرة الإسكندرية.
متوفراً على طاقة نادرة وقوة إقناع لا مثيل لها، كان أنتيباتر أحد الرجال الأكثر غنى والأكثر تأثيراً في العاصمة. تاجر لا مثيل له، إداري من الدرجة الأولى، مستشار قوي يستمع إليه أعضاء طائفته، كان عادة يظلُّ بعيداً من دسائس السياسة ومشاكل البلاط؛ لكن نظراً إلى الوقائع الحديثة، أصبح من المستحيل الحفاظ على هذه الطريقة في التعامل. رأى أنتيباتر أنه من الضروري أن يستدعي مجلس القدماء كي يتخذ بعض القرارات.

تحت ذريعة إحياء ذكرى دينية، اجتمع قادة الطائفة اليهودية الأساسيون على عُجالة؛ خارج الكنيس، كانت مجموعة أمن سرية تحرص على ضمان أمنهم. في الأوقات المضطربة، من الأفضل أخذ أقصى الاحتياطات.

كان أنتيباتر راضياً بملاحظة أن أياً من الشخصيات المهمة لم تتغيب عن الحضور. لا أحد من التجار سيخون سرَّ المداولات، وسيتم فرض التوجه المتبنّى على مجموع يهود الإسكندرية.

كان التوتر محسوساً، وكان أنتيباتر ينتظر نقاشات حادة. منذ مدة طويلة كان قديم القدماء، ذي الست والتسعين سنة، يكتفي بالتربع من علو سلطته، مفوضاً صوته لمالك سفينة سابق، أكابي، أحد الغيورين من نجاح وازدهار أنتيباتر. كان الرجل قصيراً وبديناً وممتلئ الخدين، ولم يكن ناجحاً سوى مع المومسات.

- فاجأتنا دعوتك، هاجمه أكابي؛ مجلس القدماء ليس تحت تصرفك!

- هل تعلم أن قيصر ورجال فيالقه يوجدون في الإسكندرية وأن

مستقبلنا مهدد؟ أتوفر على معلومات سرية ستمكّن طائفتنا من اختيار مصيرها. هل يسمح لي قديم القدماء بالكلام؟

رفع العجوز، الذي كان عادة أصم، وأعمى تقريباً، يده دلالة الموافقة؛ عبس أكابي منزعجاً.

- أقام جنود قيصر، مشاة وفرساناً، في حي البروكيون، أعلن أنتيباتر؛ صادَروا منازل في ملكية يهود، لكنهم لم يمارسوا عنفاً.

- لماذا لم يعترض بطليموس؟ تعجب أحد القدماء.

- بطليموس وجيشه كانوا قد قرروا مجابهة جيش كليوباترا في بيلوز والقضاء عليها.

- هل نجح الملك في ذلك؟

- إلى حدّ الآن، الخصمان يراقبان بعضهما؛ لا أحد يجرؤ على أخذ المبادرة. لم يجد قيصر سوى قصراً فارغاً، ومن أجل أن يُسكِت غضب الشعب، اعترف بشرعية الزوج الملكي المشتت الآن. أمر بعودة بطليموس وكليوباترا رغبة منه في تفادي حرب أهلية.

- كل هذا لا يهمنا، قدَّر أكابي.

- بالعكس، أجاب أنتيباتر؛ الاستيلاء على السلطة ستكون له نتائج من شأنها أن تؤثر على طائفتنا.

- ماذا تخشى؟

- إذا اقترفنا خطأ جسيماً، سيتم القضاء علينا.

سرت همهمة بين الجمع.

- أنت تخرِّف! قال أكابي.

- يجب أن ألفت أنظاركم إلى حدث جديد: تصاعد النفوذ الروماني الحتمي. موت بومبي لم يغير فيه شيئاً، قيصر يبدو لي أكثر خطورة.

- نحن رعايا بطليموس، وليس قيصر!

قام أنتيباتر ببعض الخطوات، متأملاً أعضاء المجلس كلاً على حِدة.

- رعايا محتقرين! الإغريق يتحملوننا، لكنهم يحتفظون بحسد بامتيازاتهم؛ نحن يهود الإسكندرية، ولسنا مواطني مدينتنا، ولا نشارك في أي من مجالس الحكم. بطليموس وأهله يعتبروننا كائنات أقل، نحن فقط صالحون لتحقيق ازدهارهم بفضل عملنا وضرائبنا! هذا الجور لا يحتمل؛ والملك لا يضمن حتى استقرارنا!

كان أنتيباتر يقول بصوت مرتفع ما لا يجرؤ عدد من القدماء حتى على التفكير فيه؛ كِبْر الحكومة الإغريقية، الذي يضاف إليه الفساد وعدم الكفاءة، أصبح لا يطاق.

- قيصر فرصة لطائفتنا، أكّد المتحدث؛ رغم كلامه الملطّف أنا متأكد من أنه يرغب في طرد بطليموس وتحويل مصر إلى إقليم روماني. عندما سيتأكد انتصاره، سيحرص على تقديم الشكر للذين ساعدوه على فرض نفسه.

- اتخاذ موقف لصالح قيصر... هذا هو اقتراحك؟ قال أكابي متعجباً.

- في نظري، لا يوجد حل آخر.

- هذا جنون! أنا أطلب من هذا المجمّع أن يبقى محايداً!

رنَّ صوت قديم القدماء، الذي لم يسمع منذ أشهر عدة، داخل الكنيس.

- أنتيباتر يفتّح أعينكم؛ زمن بطليموس انتهى، يبدأ عهد جديد. طائفتنا ستساند قيصر، شريطة أن يحترم عقيدتنا ويمنحنا المزيد من المسؤوليات.

31

رغم الحامية المهيبة التي توفِّر أمنه، وأمن بطليموس ومؤدِّبه، لم يكن الخصي فوتان مطمئناً. في صباح الرابع من أكتوبر سنة (48-) الهادئ، كان الأسطول الصغير يبحر بسرعة نحو الإسكندرية سالكاً قناة ضفافها محفوفة بأشجار النخيل والسنط والصفصاف.

كان الجنرال أخيلاس قد وافق على البقاء في بيلوز، من أجل أن يمنع تقدم كليوباترا التي لم تكن قواتها بالقوة التي ستمكنها من احتلال القلعة وفتح الطريق نحو الإسكندرية. على الأقل كان فوتان يتمنى ذلك، كما كان يتمنى أن يقنع قيصر بأن يصبح حليفه الأساسي.

- تنتظرنا مخاطر كبيرة، استنكر ثيودوتوس؛ عندما قدّمت له رأس بومبي، بكى قيصر.

- قدّمنا له خدمة كبيرة بتخليصه من ألدِّ خصومه، لكني أخشى غِلّه.

كان الصغير بطليموس يقفز في مقدمة الباخرة، يرمي إلى الماء كرات من الخِرَق، يجر الحبال ويطالب البحارة بالإسراع في السير.

- هو يافع جداً، ذكر ثيودوتوس؛ ولا يستطيع تقدير خطورة الوضع!

- ربما كانت ميزة، قدم فوتان؛ هذا الطفل سيُليّن الروماني وستبدد براءتُه سخطَه. عسكري قادر على البكاء على عدوه له بلا شك نقط ضعف.

- لم تكن سوى لحظة تأثر لدى هذا الجنرال، الطموح يطغى على كل شيء.

- وهذا الطموح سيقوده إلى الرغبة في الاستحواذ على الإسكندرية. . .

- هو يدّعي العكس، حدد ثيودوتوس؛ وذلك الخطاب هدّأ جموعاً غاضبة.

- كيف يمكن الوثوق في روماني؟

- هو لا يعرف مدينتنا وعاداتنا جيداً؛ فلنعرف كيف نقنعه بأن مساعدتنا ضرورية وأنه وحده بطليموس، الملك الشرعي، قادر على الحكم.

*

لم يكن قيصر يغادر جناح الحديقة الملكية؛ كان يستقبل فيه الأعيان، كبار الموظفين والمسؤولين الإداريين، بحيث يفهم طريقة الحكم. على أسئلته المحددة كان يطالب بأجوبة محددة؛ في غياب الملك وأعضاء مجلس الوصاية، كان الأعيان المحرجون يحاولون المواربة لكنهم كانوا مضطرين إلى تقديم حدّ أدنى من المعلومات، مخافة إشعال غضب الإمبراتور.

أخيراً، الخبر الجيد! وصل بطليموس، وفوتان، وثيودوتوس؛ أسرعت في الحال جموع المتملقين إلى القصر وأعلنت وفاءها للملك. قاطع روفين التهاني وطلب من الثلاثي الذهاب إلى الجناح حيث ينتظرهم قيصر.

كان قيصر جالساً على كرسي بمسندٍ مرتفع، تفحّص ضيوفه بحدّة جعلتهم يحسون بحيرة. تحت السيطرة من النظرة الأولى، أحاط فوتان وثيودوتوس بالصبي، كما لو كانا راغبين في حمايته.

نهض قيصر، اقترب ونظر إلى الطفل بازدراء.

- ها هو إذن بطليموس الثالث عشر! سعيد بلقائك، صاحب الجلالة.

لأول مرة في حياته القصيرة، كان الطفل مسحوراً إلى درجة أنه لم يستطع أن يعبِّر.

- باسم ملك مصر ومجلس الأوصياء، قال فوتان بصوت مرتعش؛ أرحب بك أشد الترحيب في الإسكندرية.

- لم يكن من ألطفها، تحسَّر قيصر؛ وأنا أرثي أمواتاً وجرحى. اتخذت الإجراءات الاحتياطية الأمنية الضرورية، متجرئاً على تمني أن يحفظ وجود الملك الهدوء.

- الشعب يحب ملكه، أكد ثيودوتوس.

- قمت بجزء من المهمة، لاحظ الروماني؛ هل اتصلت أيضاً بالملكة كليوباترا؟

- من سوء الحظ، ذلك مستحيل! لا نستطيع مراقبة تحركاتها، ولن تسمح لنا تلك الثائرة بالاقتراب منها. تحت قيادة الجنرال أخيلاس، يتمركز معظم جيشنا في بيلوز ليمنع تلك الشيطانة من مهاجمة الإسكندرية وإشاعة الفوضى.

- الشعب يكرهها، أضاف فوتان؛ لأنها حاولت القيام بانقلاب كي تفرض جبروتها وتحدث إصلاحات كارثية؛ وحده بطليموس جدير بأن يحكم ويحقق ازدهار مدينتنا الجميلة.

عاد قيصر ليجلس، دون أن يدعو الثلاثة إلى ذلك. كان هو القاضي، وهم المتهمون.

- عهد بطليموس الثاني عشر بوصيته إلى روما، ذكّرهم قيصر؛ وإلي يعود، بعد وفاة بومبي العظيم المأساوية، أن أحرص على احترام آخر رغبات الملك الراحل، حليفنا؛ أن أدوس على هذا الواجب المقدس سيكون خطأ كبيراً لن تتقبله الآلهة ولا الرجال. وبنود الوصية واضحة: السلطة يجب أن تُقتَسم بين بطليموس الثالث عشر وأخته كليوباترا. نيتي هي أن أصلح بين الوريثين الشرعيين للعرش وأن أحقق بهذه الطريقة حكماً مستقراً.

- كلنا نتمنى ذلك، قدم فوتان؛ لكن الملكة لا يمكن السيطرة عليها، وهي خطيرة...

- لا يمكن أن أطلق حكماً قبل أن أراها وأستجوبها، حسم قيصر؛ ابعثوا لها رسولاً واطلبوا منها الحضور إلى الإسكندرية ضامنين لها الأمن التام. بانتظار مجيئها، لن يغادر الملك ومستشاريه المدينة.

لم يكن الوضع يستدعي جواباً.

- تفصيل مهم، أضاف الإمبراتور؛ عندما طلب مساعدة روما[1] من أجل الاعتراف به ملكاً، وعد بطليموس الثاني عشر بتقديم ستة وثلاثين مليون ديناري في حالة حقق التحالف النتيجة المتوخاة. في الواقع، في نهاية منفاه وبفضل تدخلنا، اعتلى العرش؛ قبل وفاته، لم يكن قد سدد سوى نصف المبلغ. على الزوج الملكي الجديد تبديد ما تبقى لروما التي أُمثّلها.

---

(1) سنة 59-.

كان فوتان على وشك أن يغمى عليه.

- لست... لست جاداً؟ إنه مبلغ ضخم!

- هذا كان ثمن استعادة الحكم؛ وللحكومة الحالية تعود مهمة تنفيذه. عدم تسديد الدين سيكون جرماً شديد الخطورة، يستوجب عقوبات صارمة.

- ستة وثلاثون مليون ديناري، تمتم فوتان في حالة صدمة.

مرعوباً، كان الملك الصغير بالكاد يجرؤ على النظر إلى قيصر، الوحش السلطوي ذي الكلام الهادئ.

- هذا اللقاء الأول يبدو لي بنّاء، استنتج الروماني؛ والآن، قوموا بتأدية واجبكم.

32

سعيداً بالتواجد في قصره، جناحه، لُعَبه وسريره، تعشى الملك الصغير بشهية مفتوحة، وبالتفكير في وجود قيصر، القائد الحقيقي، نام بسرعة.

مفرطاً في تناول أطباق الصلصة، كان فوتان يحاول استعادة هدوء أعصابه، بينما أخذ ثيودوتوس كأساً من النبيذ الأحمر القوي.

- هذا الروماني يعتقد نفسه سيد الإسكندرية، قال الخصي متضايقاً؛ ويريد إفراغ خزائننا!

يجب أن نستدعي أخيلاس ونريه قدراتنا العسكرية؟ إذا اعتراه الخوف، سيغادر قيصر مصر.

- هذا الرجل لا يتراجع أبداً، عارض المؤدِّب؛ ماضيه يبرهن على ذلك. إذا أحس أنه مهدد، سيتصرف بطريقة عنيفة وسيتسبب في خسائر فادحة. أخيلاس يمنع عصابة كليوباترا من مهاجمة الإسكندرية، يجب أن يظل في موقعه.

- كليوباترا... يجب إقصاؤها بأسرع ما يمكن! بعد أن تختفي، ستتحرر أيدينا.

- فلنطع قيصر ولنبعث إليها رسولاً يضمن لها حصانة تامة.

- هل ستبتلع الطعم؟

- لن يرافق مبعوثنا أي جندي، تستطيع كليوباترا إحضار حرسها الخاص؛ ماذا ستخشى؟ أنا متأكد من أنها تريد لقاء قيصر، أن تتحدث وتقنعه.

- ذلك اللقاء سيكون كارثة!

- لن يحدث، تنبّأ ثيودوتوس؛ سنهاجم باخرة الملكة في منتصف الطريق بين بيلوز والإسكندرية، وسنغرقها. لن يكون هناك ناجون. إما أن تموت تلك الساحرة غرقاً، وإما أن تحرق جثتها.

وهو يتصور نجاح تلك الخطة البسيطة والحاسمة، أحس فوتان بالاسترخاء وبلع عشر حبات من التين.

- ستة وثلاثون مليون ديناري، هذا الروماني لص!

- هو لا يطالب سوى بالنصف، ذكّره ثيودوتوس.

- كثير جداً! أرفض الاستجابة لطلبه.

- استعمل مواهبك التفاوضية وأخّر إتمام الأمر، ثم بعد أن تختفي كليوباترا، وتصبح قواتنا متفرّغة، ونؤلّب الشعب ضدّ المحتل، سنحاول دفع قيصر خارج مصر. هذا الاستراتيجي عاقل وسيفضّل الذهاب إلى روما على أن يعيش فشلاً سيُنهي شهرته ويبعده من السلطة.

أعجبت براهين ثيودوتوس الماهر الخصي؛ أثنى على نفسه بتعيينه العلّامة في مجلس الأوصياء. مواهبه كمؤدّب وعلّامة لم تكن تمنعه من الدعوة إلى أفعال جذرية وأن يكون هو نفسه في الخط الأول.

- سأرسل مبعوثنا في الحال إلى كليوباترا، قرر فوتان؛ بعد أن أحس بالاطمئنان.

*

لم يكن سوى على معرفة سطحية بالإسكندرية، ومع ذلك كان قيصر يعتبر شهرتها مبررة. أجل، هذه المدينة تدير ثروات هائلة وتستحق وصفها بـ«متجر العالم»؛ كل شيء فيها يباع، وكل شيء يشترى، وذلك المتجر الكبير يضمُّ عدداً هائلاً من مطامر القمح ومخازن تحتوي عل جرار النبيذ والزيت والبردي والحلي ومئات البضائع الأخرى. كانت الصناعات تنتج الزجاج، والورق، والعطور، والخزف والمجوهرات الثمينة.

بسبب الحروب الأهلية، كانت روما، روما القوية، تعاني من الجوع؛ ألم تكن مصر هي المخزن المأمول من حيث سيأخذ قيصر القمح الوفير الذي سيمنحه لرعيته؟ بإلحاق هذه الأرض بالجمهورية، سيظهر كمُصلِح وسيُرهِب أتباع بومبي الذين لم تكن قدرتهم على الإساءة قليلة. المجد العسكري لا يكفي لكسب ثقة النخبة وشعب روما؛ كان قيصر في حاجة إلى المال والنجاح الاقتصادي الذي سيجعل منه رئيس دولة لا يناقش. وبلد الفراعنة العتيق يمنحه فرصة لم تكن في الحسبان.

- يرغب رجل من الأعيان في مقابلتك، أعلن روفين.

- المقابلات انتهت؛ فليأتِ في الغد.

- يدّعي أنه يحمل اقتراحاً مستعجلاً.

- هل قمت بتفتيشه؟

- أكيد، يبدو جاداً.

واثقاً في غريزته، استسلم قيصر.

كان الرجل صارماً وعنيداً.

- اسمك؟

- أنتيباتر، ممثل الطائفة اليهودية، ما يعني ثلث السكان.

من دون مفاخرة، لكن بحزم، واجه أنتيباتر نظرة قيصر التي شابتها شبه ابتسامة.

- حجة وازنة، أعترف بذلك؛ لماذا هذه الزيارة؟

- سأذهب مباشرة إلى الهدف: طائفتي لا تتحمل غطرسة الإغريق. نحن نشتغل بكدٍّ، نحقق ازدهارهم ونظلُّ في الصف الثاني؛ لذا نرغب في أن نُحترَم وأن نحصل على مزيد من الحقوق.

- على بطليموس أن يقرر ذلك.

- ذلك الملك الصغير ليس سوى دمية يحركها خدم أصبحوا وزراء! ببيع نفسه لروما، كسر والده الزّمّار الفاسد المملكة التي أسَّسها الإسكندر؛ وهذه العصابة من الأشرار تقود البلد إلى الإفلاس. سيدها المقبل، هو أنت.

عمَّ صمت طويل. إما أن يطرد قيصر الرجل الوقح، وإما أن يقبل المناقشة.

- هل تعرض علي مساعدة الطائفة اليهودية؟

- بالفعل.

- بأي شروط؟

- هل تحترم عقيدتنا وتقاليدنا؟

- تستقبل روما جميع الاعتقادات التي لا تزعزع النظام العام ولا تخل بتوازن المجتمع.

- هل ستمنحنا درجة مواطن بشكلٍ كامل؟

- ولماذا سأرفض ذلك؟

- هل أستطيع أن أثق في كلمة روماني؟

تلاشت شبه ابتسامة قيصر.

- هل تجرؤ على الشك في ذلك؟

- هل ستمنح ثقتك لساذج؟

- سأنفّذ مطالبك، أنتيباتر، بشرطين: لا تكذب علي ولا تخذلني.

33

بينما كان يبدو مستغرقاً في نوم عميق، وقف ريح الشمال فجأة على قوائمه وتوجه نحو مركز الحراسة، قبالة جيش العدو. «هذا ليس جيداً»، دمدم العجوز، بعد أن انتُزِع هو الآخر من قيلولة مرمِّمة؛ تبع حماره، وأنذر الجنود النائمين، ولم يلبث أبولودور أن قام بموافاتهم.

- يتهيأ شيئاً ما.

- لا شيء يتحرك، لاحظ الصقلي.

- ريح الشمال لا يخطئ أبداً؛ هو أول من يستشعر الخطر.

- هنالك، صاح أحد العَسَس؛ رجل وحيد!

لوَّح الرماة بنبالهم.

المهاجم، رجل في الخمسين، سمين ذو مشية مترددة، رفع ذراعيه في الهواء.

- يبدو خائفاً وأعزلاً، قدَّر العجوز؛ نستطيع أن نسأله عما يريد قبل أن نقتله.

وافق أبولودور.

- كان الرجل ينضح عرقاً ويجد صعوبة في الكلام.

- أحمل رسالة إلى الملكة كليوباترا.

فتّش العجوز بنفسه الرجل الدبلوماسي وقام ريح الشمال بشمه، دون أن يظهر عداء.

- اتبعني، أمره الصقلي.

*

كانت الملكة تقرأ وثيقة تركها لها هرمس؛ تتحدث عن تغيرات الروح القادرة على التحول إلى عصفور، أو نار، أو ريح، أو نجمة، وتنتهي بـ: «الولادة ليست حياة، بل الإدراك». كانت كليوباترا تتمنى رؤية الساحر كي تطرح عليه آلاف الأسئلة؛ لا أحد يستطيع إمساك هذا الرجل، بعيد المنال مثل النفَس الخالق. هل سيتقاطع طريقاهما من جديد؟

- صاحبة الجلالة، هنا رسول، أعلن أبولودور وهو يضغط على معصم المبعوث، الذي قام بالانحناء.

- من أرسلك؟

- الوصي فوتان بأمر من يوليوس قيصر؛ يرغب الروماني في رؤيتك.

- هل تحدَّث مع بطليموس؟

- بالفعل، صاحبة الجلالة، هو يرى أنه من الضروري أن يسمعك من أجل أن يبدأ مسار تهدئة وصلح. أنا مكلَّف بأن أقدِّم لك الباخرة التي ستقلك من بيلوز إلى الإسكندرية؛ طاقمها، المحدود، سيكون مكوَّناً من بحارة مجردين من السلاح، وسيرافقك حرسك الخاص. بهذه الطريقة سيكون أمنك مضمون تماماً.

- اقتراح مُشهٍ، قذرت كليوباترا؛ متى ستكون الباخرة تحت تصرفي.

- ابتداء من الغد؛ قيصر يتطلع إلى لقائك.

- قُم باللازم.

رافق أبولودور الرسول إلى خارج المعسكر. ابتعد الرجل بسرعة وعاد الصقلي إلى خيمة الملكة.

- صاحبة الجلالة، إنه فخ! قيصر وبطليموس يغرونك بوفاق مستحيل.

- لم أشك في ذلك لحظة؛ تلك الباخرة سيتم الهجوم عليها بين بيلوز والإسكندرية، وسيكون المخربون قد تلقوا الأمر بقتلي.

أحس الصقلي بالارتياح.

- الأمر الأساسي، صاحبة الجلالة، هو الحفاظ على حياتك. أقترح عليك تفريق هذا الجيش المرتجَل واختيار عدد صغير من الرجال الذين تثقين بهم والذين سيرافقونك نحو الشمال؛ ستمنحك إحدى الإمارات المنفى، وستكونين بعيداً من أعدائك.

كان ذلك أفضل مخرج لهذه الحرب التي لا طائل من ورائها، لكن الملكة بدت مترددة.

- ما زلت محتاجة إلى قليل من التفكير، أبولودور.

- كل هجوم أصبح مستحيلاً، صاحبة الجلالة، بما أنك لن تصعدي إلى السفينة، سيغضب قيصر، وسيلتحق رجال فيالقه بقوات أخيلاس لدحضك. ما جدوى هذه المجزرة؟ فلتكوني عاقلة، أرجوك، الوقت يداهمنا!

- دعني.

لم يكن الصقلي مطمئناً تماماً؛ ثائرة، كانت المرأة الشابة تذكي آمالاً أخيرة وعبثية. كان دور حاجبها تبديدها. ذكاء الملكة سيقودها

إلى مواجهة الواقع والحفاظ على المستقبل، ولو كان محبِطاً؛ في عمرها، لا يشعر المرء برغبة في أن يموت.

*

كان المبعوث قد شاخ بعشر سنين وفقد كيلوات عدة. معتاداً على ترف القصر وجَوّه المخملي، اعتقد أن ساعته الأخيرة قد حانت وهو يقترب من معسكر كليوباترا؛ لم يستعمل أبداً سلاحاً ويكره العسكريين، كان قد عاش أسوأ لحظات حياته! لكن لا أحد يعصي الخصي فوتان، وإلا جُرِّد من مهامه، أو حتى أن يختفي بشكلٍ مباغت.

استقبله رئيس الحكومة في مكتبه الفسيح، بعيداً من الآذان.

- النتيجة؟ سأله فوتان، بشكلٍ عدائي.

- ممتازة، سيدي، ممتازة! قبلت الملكة كليوباترا الاقتراح.

- تهاني، صديقي؛ هل راقبت معسكرها؟

- شيء فظيع! خيام بئيسة، قطّاع من أصول متنوعة، روائح المطبخ، رجال جلف كلامهم سوقي، ضجيج لا يحتمل بسبب تدريبات الجنود... خلط من القاذورات.

- هل بدت الملكة بصحة جيدة؟

- لا تزال بنفس الجمال والسحر.

- خذْ قسطاً من الراحة، صديقي، ثم هيئ تنقلك الوجيز إلى بيلوز واحضر لنا كليوباترا؛ ستستحق مكافأتك جيداً.

لم يجرؤ المبعوث على طلب توضيح: ترقية، مبلغ من المال أو الاثنين؟

- لا أعرف كيف أشكرك، سيدي!

«بالاختفاء»، فكر فوتان الذي كان قد تفادى أن يقول لذلك

الوضيع أنه سيهلك خلال الهجوم على باخرة كليوباترا؛ لن يبقى أحد من شهود الحدث السعيد الذي سيضع حدّاً لانشقاق الساحرة. بعد أن يحل ذلك المشكل، ستبقى المشكلة المالية الشائكة التي طرحها قيصر. كان الروماني يأمر، لكنه لم يكن يعرف فوتان؛ التعرض إلى ماله يحوله إلى وحش كاسر.

34

بدت الإسكندرية هادئة، لم تتعرض أي دورية للهجوم خلال الليل؛ مع ذلك، لم يكن قيصر يشك في ذلك. عدد كبير من الأهالي يكنُّ له العداء؛ وهو يدين لتدخل اليهودي أنتيباتر بالهدوء الذي يخيم على حي البروكيون حيث يقيم رجال فيالقه. طواقم البواخر كانت تظل في حذرٍ دائم، خشية أن يغلق المرفأ مثل شبكة صيد.

كانت مساندة الطائفة اليهودية تقدِّم دعماً غير منتظر، لكن هل ستكون دائمة؟ لا شيء يُخشى من بطليموس الصغير، طفل تائه، غير قادر على حمل ثقل تاج، لكنّ مستشاريه، ثيودوتوس وفوتان، كانا متلاعبين خطيرين شديدي التعلق بسلطتهما وامتيازاتهما. في روما، كان قيصر سيسحقهما بقدمه؛ على أرضهما، كان في إمكانهما القضاء عليه.

كان الوضع يهدد بالتأزم في أية لحظة، ولم يكن رجال الفيالق، رغم شجاعتهم، قادرين على دفع الجموع الهائجة. لم يكن قيصر أبداً بمثل تلك الهشاشة، في مواجهة قدر لا يسيطر عليه؛ كل هذا الطريق، كل هذه المِحن التي تخطاها كي يصل إلى هذا الجناح الأنيق، سجن ذهبي، ركن المحتضرين... لا، لن تذيقه الآلهة هذا الإذلال.

تأمل الإمبراتور ختمه الذي يحمل صورة فينوس، راعيته السماوية؛ رغم أنه كان عشيقاً أُشبِعت رغباته، رجلاً شغوفاً بالنساء، إلا أنه لم يصادف الحب، بسبب انشغاله بالحروب والجري وراء السلطة. في العمق، لا يهم كثيراً؛ وحدها تهمه عظمة روما التي جعلها عناد بومبي، الذي كانت تنقصه الرؤية الواضحة للمستقبل، في خطر.

من سفرياته وحروبه، كان قيصر قد تعلَّم درساً: ضرورة تأسيس إمبراطورية تفرض السلم على البلدان المحتلة وتجعلها مزدهرة. نجاح هذا العمل العملاق يقتضي إلحاق مصر ذات الثروات الكثيرة والتي لم تحكم جيداً. بجره إلى هنا، كان بومبي قد فتح أمامه آفاقاً غير متوقعة.

قطع روفين تأمله.

- يرغب فوتان في رؤيتك.

- فليدخل.

أظهر الخصي وجهاً لطيفاً.

- ستتحقق رغباتك قريباً، أكد لقيصر، وهو متملقاً؛ أهنّئ نفسي على تفاهمنا، يصبو بلدي إلى الهدوء، وأشكرك على المساهمة في تحقيقه. مع الأسف! المهمة لا تبدو سهلة! لقد قامت كليوباترا بإعدام مبعوثنا، ما يعني رفضها اللقاء بك ورغبتها في أن تقاتل.

لم يخفِ قيصر امتعاضه.

- تلك المرأة الشابة أصبحت حمقاء، أضاف فوتان؛ تريد أن تحكم لوحدها وتنشر الفوضى. إذا لم نهشم أضلاعها، ستتسبب عصابة الأشرار التي معها في خسائر فادحة.

- هل استنفذنا كل الوسائل الدبلوماسية؟

- لا تفكر في إرسال مبعوث روماني! المسكين سيُقتل. المواجهة تبدو لي حتمية، لكن الجنرال أخيلاس، العسكري المقتدر والماهر، سيتفادى الكارثة، وهذه الفترة العصيبة ستعرف نهاية سعيدة. على الأقل شرط ألا يُزَج بالإسكندرية في البؤس! وستكون أنت صانع تلك الكارثة، إذا صممت على متطلباتك المالية، المبالغ فيها كثيراً! بصفتي وزير المالية والاقتصاد، أراقب الفلاحة والصناعة التقليدية، وأحرص على تحصيل الجبايات والضرائب، وأفتخر بتدبيري الصارم ولا أعتبر نفسي مديناً بثمانية عشر مليون ديناري.

- ومع ذلك فالوضع كذلك، حسم قيصر؛ يجب على مصر أن تفي بالتزامات الملك الراحل، تحت طائلة إثارة غضب روما.

تجمد وجه الخصي.

- بين مسؤولَين، ألا يمكن أن نصل إلى تسوية؟

- أقترح عليك واحدة: عشرة مليون ديناري حالاً، وأتنازل عن الباقي.

أخذ الخصي وقتاً للتفكير.

- مصر مملكة عريقة، تقاليدها معقدة؛ معذرة، لن يستطيع روماني أن يحيط بكل جوانبها. مات بومبي، لكن أتباعه لا يزالون عديدين وسيواصلون سدّ الطريق؛ إقامتك المطولة هنا ستسبب لك الخسارة.

ظلَّ قيصر محايداً.

- هل تتوفر على معلومات تخص خصومي؟

- في الشرق، الشائعات تسري بسرعة؛ انتصارك في فارسالوس لم يكن سوى مرحلة: غزو روما النهائي أبعد مما تتصور؛ في الإسكندرية، أنت تضيع وقتك.

- والعشرة مليون ديناري خاصتي؟

أبان فوتان عن سحنة نادمة.

- أهديتك رأس بومبي. . . ألا يساوي هذا المبلغ؟

- منحتك تخفيضاً مهماً، وهذه آخر كلمة عندي.

مرر الخصي سبابته على شفتيه.

- هذه المعاملة مكلِفة، جد مكلِفة. . . لكنني مستعد أن أقبل.

- بأي شرط؟

- تغادر مصر حالاً، وعندما تعود إلى روما سأرسل إليك مبلغ الديناري، هناك ستفيدك أكثر كي ترسِّخ نفوذك.

كان صمت قيصر الطويل موافقة، وهنّأ الخصي نفسه على مواهبه التفاوضية. في النهاية، حتى أكثر الأبطال مجداً كان له ثمنه.

ببطء شديد، نهض الإمبراتور.

كانت نظرته تحمل الكثير من العنف حتى إن فوتان تراجع خطوة إلى الخلف؛ أصبح الروماني فجأة أشبه بعملاق.

- أنت، مجرد خادم، تجرؤ على أن تفرض على قيصر كيف يتصرف وأن ترسم له الطريق بشرائه مثل أحط اللصوص! وقاحتك وجبنك ليس لهما حدّ، وتظن نفسك قادراً على التلاعب بي.

ارتعشت شفتا الخصي.

- أنا. . . أنا لم أكن أريد. . .

- وأنت تسبني، أنت تسب روما، ولن أنسى ذلك؛ ستؤدي ما عليك، فوتان، ستوفر معيشة رجال فيالقي ولن تأخذ أي مبادرة دون أن تعلمني. فلتكن متأكداً من احتقاري لك ولا تزعجني بنصائحك الرديئة.

35

بعيداً من الإسكندرية الإغريقية، استقبلت دندرة الشمس المشرقة في صباح جميل من أيام الخريف؛ نهضت حتحور، رئيسة كاهنات الإلهة التي أعطتها اسمها، قبل الشروق من أجل أن تحتفل، باسم الفرعون، بالطقس الأساسي، طقس يقظة القوة الإلهية الآمنة في قلب الحرم. سينشر التمثال الإلهي، الذي بُخِّر، ودهن، وغطي، وغذي بالطاقة اللطيفة للأطعمة، الضوء القاهر للظلام.

في ذلك الصباح، انتابت رئيسة كهنة وكاهنات دندرة مشاعر خاصة؛ منذ بداية بناء المعبد الجديد الذي سيصبح بحجم مهم، كان رئيس العمل وأفواجه من الصنّاع قد اشتغلوا من دون توقف، تُلهِمهم حتحور، ملكة النجوم. كان الصرح يكبر بشكلٍ أسرع مما كان متوقعاً، تحت أنظار سكان الإقليم المليئة بالإعجاب، السعداء برؤية إنشاء مقر فخم من الحجر حيث ستقيم إلهتهم الراعية.

كانت مهام الستينية مرهقة؛ بفضل عدد القاعات المنتهية، أصبحت قادرة على تنظيم الحياة اليومية لخدم كثر وأكفاء، ابتداء من خدم وخادمات الإلهة، دائرة محدودة قادرة على التفكر في أسرارها، إلى الكهنة العرضيين المكلّفين بالعناية بالمعبد والحفاظ على الأدوات الخاصة بالطقوس. كانوا جميعهم يعرفون القراءة والكتابة،

ويحلّفون قسم احترام قاعدة تقتضي الاستقامة والإخلاص. كان على الرئيسة أن تنظم تتابع الدوريات وتحرص على تطبيق المهام، الكبيرة منها والصغيرة.

لم يكن دور المعبد يقتصر على وظائفه الطقوسية والمقدسة؛ كان أيضاً يؤوي مدرسة، ومستوصفاً، ومركز مساعدة للفقراء. كان الكهنة يتحولون في الغالب إلى كتّاب عموميين ويقومون بتحرير عقود البيع والشراء والتداين والزواج لصالح الأميين أو الناس البسطاء. تنتشر حركة اقتصادية كثيفة حول المعبد، تخلق مناصب شغل؛ فلاحين وجزارين وصيادين وخبازين وصانعي خمور وحرفيين كانوا فرحين بوجود مركز الحياة هذا، الذي يوحّد الأرض والسماء.

في ساعة الغداء، اقترح المقاول على الرئيسة مشاركته وجبته. لم يكن البنّاء ثرثاراً؛ متصلباً، ومحترماً، ومقدِّراً، كان يقف في وجه السلطات الإدارية ويظهر قدرة على العمل لا مثيل لها.

- الأخبار الآتية من الإسكندرية ليست جيدة، صرَّح للرئيسة؛ العاصمة على وشك الدخول في حرب أهلية، جيوش كليوباترا وبطليموس على وشك أن تشتبك قرب بيلوز. لا أحد منهما يبدو مستعداً لاقتسام الحكم، ولست متأكداً، هذه المرة، من نجاح وساطة الرومانيين. الرسائل المقبلة ستخبرنا المزيد.

- هل تعرَّض تمويل الأشغال لتهديد؟ قلقت حتحور.

- أخذت احتياطاتي بتقديم عروض الأثمان للاستراتيجي المسؤول عن إقليمنا ونقل جميع اللوازم تقريباً؛ مهما تكن نتيجة الصراع بين بطليموس وكليوباترا، سننهي بناء المعبد. مشكل وحيد في الأفق: قد ترفض الإدارة الإغريقية دفع رواتب الحرفيين.

- ستكون كارثة!

- لا تقلقي، سأتصرف.

- سيقدم المعبد الطعام والسكن، وعدت الرئيسة؛ وسيساندنا الشعب.

- سأستشير السلطات وسأقنعها بعدم ارتكاب حماقة، حدد المقاول؛ اشتغال معبد من هذا الحجم بشكلٍ جيد مصدر ربح، بما أن الإغريق لم يتوقفوا عن اختراع الضرائب وتحصيلها. من مصلحتهم إنهاء دندرة التي سيثقلونها بالضرائب.

- ستساعدنا الإلهة على تجاوز هذا المحنة، قدَّرت الرئيسة وهي تبتسم. مَن مِن بطليموس وكليوباترا سيكون الأفضل بالنسبة إلينا؟

- إغريقي وإغريقية... يقتصران على الإسكندرية، لا يعرفان شيئاً عن مصر ولا يهتمان سوى بازدهار عاصمتهما الفاخرة. في يوم ما، سيثور الفلاحون. الكثير من البؤس، الكثير من الجور، الكثير من الاحتقار... ولّى عصر بلدنا الذهبي.

- ومع ذلك، أنت تبني معبداً جديراً بالقدماء، كائن حي سيستمر إشعاعه أبعد من وجودنا.

للحظة، تبدد تشاؤم المقاول.

- أنت تجعليننا دائماً نعتقد بإمكانية كل شيء، أيتها الرئيسة، وبعودة الوقت الذي كانت فيه الشوكة لا تنغز والحية لا تلدغ.

- ألا يعيد المعبد كل يوم إحياء «المرة الأولى»، ألا يضعنا الاحتفال بالطقوس في أصل الخلق، ألا تتيح لنا ممارسة الأسرار التواصل بالآلهة؟

نظر المقاول إلى السماء.

- عندما ننقش اسم أحد الفراعنة على أسوار المعبد، ألا نترك فراغاً؟

- نحن محظوظون لأننا نعيش القاعدة التي نُقِلت بالتواتر منذ الأسرة الحاكمة الأولى، ذكرت الرئيسة؛ تظل المؤسَّسة الفرعونية كما هي، حتى إن كان ممثلها على الأرض غير جدير بها. ببناء هذا المعبد بواسطة الأحجار الحية، أنت تشتغل بطريقة آبائك؛ وستغطيه بالرموز المقدسة التي توضِّح طقوسنا وأساطيرنا، كلمات الآلهة التي تنقل المعرفة الحقيقية. بعد أن نختفي، ستواصل نشر رسالتهم.

عند عودته إلى الورشة، انتاب المقاول إحساس أنه يخرج من حقبته ويضع خطواته في موضع خطوات البنّائين القدامى. بدت له دندرة مثل هضبة أصلية، جاءت من محيط الطاقة، تشكلت الحياة فوقها. لم يكن يشيد مَعلَماً بسيطاً، لكن وعاء يتلقى القوة النورانية التي تعيد بناء العالم في كل لحظة.

أراحه غناء الأدوات؛ كان حرفيوه واعين بأنهم يشنّون معركة أساسية، مخصَّصة للحفاظ على الكنز الذي ورّثه الحكماء. كانت أكفّهم التعبير التام عن روحانية تعود إلى عصر الأهرامات الذهبي، كانوا لا يزالون قادرين على تحويل المادة إلى وضوح.

لامرأة مميزة، الرئيسة ذات المظهر الهشّ، كان البنّاؤون يدينون بتلك المعجزة؛ أثار تصميمها الثابت تدخّل الإلهة، ولا أحد سيعيق بناء المعبد.

36

توقف فوتان أخيراً عن تقيء أمعائه، استرجع أنفاسه بصعوبة؛ سارع خدمه بإزالة الأثواب المتسخة وتعطير الغرفة، بينما كان الخصي يغطس في حمام حارق.

اقترب ثيودوتوس.

- هل هو قيصر الذي جعلك مريضاً؟

- لم أعامل من قبل أبداً بذلك الشكل! دقيقة إضافية واحدة، وكنت سأتقيأ على عباءته لشدة ما جعلني أحس بالغثيان... ذلك الروماني وحش من أسوأ الأنواع، حيوان متعطش للسلطة والمال!

- هل فاوضت على الأقل؟

- لن ينزل عن عشرة ملايين ديناري ويريدهم حالاً.

تذبذبت حنجرة المؤدِّب.

- إنه ابتزاز!

- لن نستسلم لذلك اللِّص، أكد فوتان.

- يتوفر على وثيقة رسمية... بالتزامه، حكم علينا بطليموس الزّمّار بالإفلاس!

- يعتبر قيصر نفسه في أرض محتلة؛ بيننا وبينه الحرب معلنة. ونحن نملك امتيازين مهمين: العدد والميدان.

- فلنحذر ذلك الجنرال، أوصى ثيودوتوس؛ يبدو لي ماكراً تماماً، ومسألة كليوباترا لم تحسم بعد.

- ستحسم غداً! بعد ذلك سنتفرغ لقيصر.

- كيف تنوي التصرف؟

- سأنغّص حياته وحياة رجال فيالقه، بحيث نضطره إلى مغادرة مصر. هو لا يتوفر على ما يكفي من الجنود والبحارة كي يستولي على الإسكندرية وعليه عاجلاً أو آجلاً أن يستسلم للواقع. سنهيّئ له انسحاباً مشرفاً وسنعده بالأداء على دفعات؛ إذا عاند، سنخصّص له مفاجأة سيئة، ورغم كونه إمبراطوراً، سننجح في تقويضه!

أُعجِب ثيودوتوس بتلك الاستراتيجية؛ لم يكن فوتان ثقيل الدم ينقصه الذكاء، وربما استطاعت حِيَله اختراق درع عسكري جد واثق من قوته.

*

غضبى، دفعت أرسينوي باب جناح بطليموس الصغير، الذي كان مستغرقاً في لعب النرد مع أحد خدمه الذي كان يحرص على ترك الطفل يفوز طواعية.

- يجب أن أتحدث إليك!

- أنت تشعرينني بالملل.

- الأمر جدّي، جدّي تماماً!

رمى بطليموس النرد.

- خسرت مرة أخرى، عاتب خصمه؛ أنت تلعب بشكلٍ رديء! انصرف، وأنت أيضاً، أرسينوي.

- أنا، سأبقى.

- أنا الملك، ورغباتي أوامر!

انصرف الخادم.

شبكت المراهقة ذراعيها ورمقت أخاها بنظرة تهكمية.

- ما دامت كليوباترا حية، فستظل خادمها.

انتفض الصغير.

- اصمتي، أنت قبيحة وبليدة!

- لكني أقول الحقيقة؛ متى ستقرر أنت ومستشاروك تصفيتها؟

اتخذ بطليموس هيئة جادة.

- ما تقرر قد تقرر.

أضاءت ابتسامة عريضة وجه الفتاة الشابة الدميم.

- رائع... أمر رائع! إذن، سأكون ملكتك!

- ماذا تخرِّفين؟

- وحده زوج يمكن أن يحكم، ستتزوجني.

- لا، لا... لا أريد ذلك!

- ستتزوجني وسنحكم معاً.

*

فريسة لحرقة لا تطاق، أعصابه متوترة، سارع أكابي عند المومس المفضلة عنده، والتي تشتغل في ماخور في الضاحية الشمالية من الإسكندرية. كانت القيّمة تدير المؤسَّسة بيدٍ من حديد وتناقش بشراسة مبلغ الضرائب التي تفرضها عليها الدولة. كانت تقدِّر اليهودي أكابي، الزبون الدائم الذي يدفع جيداً؛ عصبياً بطبعه، كان يبدو فاقداً صوابه عندما اجتاز عتبة المؤسَّسة.

- اهدأ، يا ولدي؛ اشرب كأساً من النبيذ، سأبحث لك عن صديقتك. آه... النقوذ في النقود.

سدد أكابي ما عليه واستغنى عن المقدمات. بعد الإذلال الذي

تعرض له بسبب أنتيباتر، كان محتاجاً إلى إخراج غِلّه من أجل أن يستعيد وعيه.

استطاعت الخبيرة أن تفي بذلك، وأنهت رياح الليل العليلة إنعاش الرجل القصير الممتلئ الخدين؛ كيف يمكن أن يتصور أن أنتيباتر الطموح سيسدد ضربة شديدة القوة وأن قديم القدماء سيخرج من سُباته ويمنحه موافقته؟

كلام رئيس الطائفة لا يناقش، ويهود الإسكندرية سيقترفون خطأ جسيماً بدخولهم في خدمة قيصر؛ كان الشعب يكره ذلك الغازي، والذين سيساندونه سيتلقون غضبه. في مواجهة هذا الحمق، على أكابي أن يحاول إنقاذ أهله بإعلام السلطات الإغريقية. التبليغ عن أنتيباتر، رجل من نفس ديانته... عمل حقير، مغامرة كبيرة قد تجر عليه غضب القديم. أن يقتل المخبول بيديه؟ لم يكن يملك الشجاعة لذلك وكان يخشى القوة العضلية لخصمه. أن يجتر حقده ويشاهد، بسلبية، أفعال أنتيباتر وهو يجر اليهود نحو الهاوية؟ لا، سيكون خطأ لا يغتفر!

أن يُعلِم الحكومة الإغريقية، لكن بأي طريقة؟

وهو يقترب من الكنيس، حيث يجتمع المجلس الكبير، خطرت لأكابي فكرة. كونه المتحدث باسم قديم القدماء، كان مسموحاً له استعمال ختم العجوز لأنه كان يحرر مراسلاته الرسمية، والتي تخضع لمراقبة سكرتيره. كان الختم يُحفظ في علبة في الكنيس بإمكان أكابي أن يصل إليها.

37

شائعات متناقضة أخذت تسري؛ البعض يتحدث عن هجوم وشيك، وآخرون عن تشتيت الجنود، خوفاً من هجوم محتمل يشترك فيه جنود بطليموس وقيصر. لماذا لا تتحدث كليوباترا؟ لم يكن أحد ينقصه شيء، وكانت الجِعَة متوفرة بفضل تدبير العجوز الجيد، غلب التفاؤل. ألم يتراجع أخيلاس عن شنِّ الهجوم؟ هذا دليل على أن جيش كليوباترا المتكون من الرجال القساة الأقوياء يرعب الجنرال الإغريقي!

ثملاً، بدأ عبد سابق أغنية بذيئة عن مقاطعته النائية، الغال الألبية، فردّ عليه رفاقه. «على الأقل، سيلاحظ العدو معنويات القوات!»، فكّر العجوز.

- ترغب الملكة في رؤيتك، قال له أبولودور وهو يلمس كتفه.

- أنا، في هذه الساعة؟ أرغب في النوم!

- اتبعني، أيها العجوز.

تخطّى الرجلان بعض النائمين والثمالى كي يصلا إلى خيمة كليوباترا التي تعبق برائحة الياسمين. كونها لا تكل، وتحلم بنظافة تامة، كانت شارميان تنظّف ليلاً نهاراً.

كان العجوز يقدِّر شخصية الملكة الشابة التي لا تقهر، لكنه لم

يكن يشك في فشلها؛ هذه المغامرة المجنونة ستنتهي، سيحل الجيش وسيعود الهدوء إلى الإسكندرية.

- لدي مهمة جديدة أعهد بها إليك، أعلنت الملكة.

- لي أنا، هل أنت متأكدة؟

- فكرت، أنا أعتبرك رجل المهمة.

كان العجوز يخشى الأسوأ ولم يخب أمله.

- خلال فترة غيابي، التي أتمنى أن تكون قصيرة، ستكون ترجماني عند الجيش.

- سأعجز عن ذلك، صاحبة الجلالة!

- بالعكس، فرضت نفسك على مرِّ الأيام، وهؤلاء المرتزقة يحترمونك؛ إذا دعت الحاجة، قُم بطمأنتهم وأعلن لهم عن عودتي الوشيكة بأخبار سارة ورواتب زائدة.

أحنى العجوز رأسه.

- وإذا... لم تعودي؟

- لن يكون عليك سوى أن تصبر يوماً أو يومين؛ بعد ذلك، سيستحيل تفادي الفرار الجماعي.

- هذا سيعني...

- موتي.

- أجهل ما تنوين فعله، صاحبة الجلالة، لكن ألا يوجد حل أقل خطراً؟

- مع الأسف لا.

- ألن يكون الصقلي أكثر فعالية مني؟

- أحتاج إلى أبولودور، باستثنائه هو وخادمتي شارميان، أنت الوحيد الذي أثق به.

«مرة أخرى يحدث هذا معي، لم يكن علي مغادرة قريتي». فكّر العجوز.

- سأبذل قصارى جهدي، وعدها قبل أن يخرج ويخبر ريح الشمال.

كانت الساعات المقبلة تهدد بأن تكون ساخنة.

مشبكاً ذراعيه ومنتبهاً إلى أقصى حدّ، لم يسمح أبولودور لنفسه بالتدخل خلال الحديث المدهش؛ الآن هو يريد أن يفهم. ظلت شارميان خرساء من شدة القلق.

- هل يمكن أن أعرف استراتيجيتك الجديدة، صاحبة الجلالة؟

- أن ألتقي قيصر، وأخبره الحقيقة، وأقنعه بعدالة قضيتي.

ظل أبولودور وشارميان متعجبين.

- ذلك الجنرال الروماني أصبح حليف بطليموس، ذكّرها الصقلي؛ ولن تصلي إليه! توابع فوتان ينتظرون هذه الخطوة كي يقوموا باغتيالك.

- بالضبط، اعترفت كليوباترا.

- بما أنك تقرّين ذلك، تدخلت شارميان؛ لا جدوى من القيام بهذه الحماقة!

- وجدت طريقة أتفادى بها القتلة وأن أتقدم أمام قيصر. مركب وذراعاك يكفيان أبولودور؛ إذا قبلت، سنذهب إلى الإسكندرية الليلة.

ظنَّ الصقلي أنه لم يسمع جيداً.

- سيعترضون طريقنا، نحن...

- السماء داكنة، الغيوم كثيفة، أنت تعرف الطريق جيداً ونحن نعرف كيف ندخل إلى القصر.

- مع احترامي، صاحبة الجلالة، هذا المشروع يبدو لي مجنوناً!

- هل ننطلق؟

أجهشت شارميان بالبكاء، صبَّ أبولودور لنفسه كأساً من كحول التمر.

*

دخل أكابي إلى الكنيس النائم، وتوجه خلسة نحو الغرفة التي كانت تحفظ فيها نسخ مراسلات قديم القدماء وختمه الثمين. وهو يشعر بالعصبية، فتح الخزنة؛ أن يكتب رسالة يقلِّد فيها خط العجوز سيكون أمراً سهلاً، وجود الختم سيضفي عليها طابعاً رسمياً. بعد أن يتهم بالتآمر ضدّ مجلس الأوصياء، سيتم إيقاف أنتيباتر وسيُعدم، بهذا الشكل سيتم إنقاذ الطائفة اليهودية.

أنذر وميض مصباح أكابي الذي التفت واكتشف قديم القدماء، وهو يجاهد كي يقف متكئاً على عصا.

جامداً، مشدداً قبضته على الختم، لم يجرؤ الرجل القصير الممتلئ الخدين على النظر إلى سيده.

- لماذا هذه السرقة، أكابي؟

- أنا. . . أنا يجب أن أوقف كارثة.

- هل قررت التصرف بدلاً مني؟

- أنت. . . أنت لا تفهم الوضع!

- بانتحالك شخصيتي واستغلالك اسمي، تستعد للوشاية بأنتيباتر إلى الحكومة الإغريقية. هل أنت واعٍ بأنك ترسله إلى الموت؟

- هذا ضروري!

- من يستطيع مسامحتك على جرم بهذا الشكل؟

رفّ خدّا أكابي؛ لم يتصور أبداً من قبل أنه سيضطر إلى تصفية قديم القدماء؛ مع الأسف! بمفاجأته، لم يكن العجوز يترك له خياراً آخر! يجب إخراسه.

- أنا متأسف، أنا...

- تريد أن تقتلني، أنا أيضاً؟

- هل تقسم لي بأنك ستصمت؟

- سيكون جبناً لن يغير في قرارك.

ترك أكابي الختم واقترب، مستعداً لأن يخنق العجوز.

- سيتم ذلك سريعاً، لا تحاول مقاومتي.

- لا أملك القوة لذلك.

- سامحني، أنا...

- تمكّن الشر منك، ولن تفلت من العِقاب!

تردد أكابي.

- متأسف، فعلاً متأسف...

- أي شيطان تمكّن من روحك؟ لم تعد تستحق أن تعيش.

غير قادر على الهروب، كان قديم القدماء يظهر سكينة مدهشة.

رنّت كلمة «عِقاب» في رأس المعتدي وأرغمته على التراجع.

- أنت لست سوى عجوز!

- هو، لا.

- هو...

أعمى مصباح آخر عيني أكابي.

على يساره، بوجه صارم تحفره التجاعيد العميقة، يرتدي رداء صفراء.

- من أنت؟

- اخرج من هذه الطائفة التي قمت بخيانتها، أمره هرمس، ابتعد من الإسكندرية ولا تعد إليها.

والنار تأكل أحشاءه، كان أكابي عاجزاً عن التفكير؛ بتصفية عدويه سيخرج من هذا الشبق. لذا ارتمى على عدوه الأساسي. بعد أن ينتهي منه، سيكون العجوز فريسة سهلة.

تدفق شعاع ضوء من راحتي هرمس.

بعد أن ضُرب في قلبه، نشر ذراعيه، ترنّح بضع لحظات، ثم سقط مصعوقاً.

38

في ليلة السابع من أكتوبر سنة (48-)، كانت الرياح مواتية وقام أبولودور الصقلي باستغلالها جيداً كي يقلِّص من المدة الزمنية التي يستغرقها قطع الطريق بين بيلوز والإسكندرية. بحَّار جيد، استمتع أبولودور باستخدام شِراع المركب حيث كانت كليوباترا، هادئة الأعصاب، تستعد لمواجهة قدرها. هل كان هرمس ليشجب هذه المبادرة؟ غيابه يبرهن على العكس. لو كان يعتبر هذا العمل أحمقاً، لكان تدخّل.

البحر من جهة، شاسع، عويص، ذو نبض لا ينقطع، مُؤمّن الحرية؛ من الأخرى، الساحل المصري، ساحل بلد ترغب الملكة في غزوه. هي، وحدها في مواجهة أقوى الرومانيين، حليف بطليموس وجماعته التي كان هدفها الأساسي هو تدميرها.

كل شيء كان ليكون بسيطاً... هي، كليوباترا السابعة، رمزياً متزوجة من بطليموس الثالث عشر، بحيث يكونان زوجاً ملكياً يملك مدينة مزدهرة، ذات ثروات أكبر من ثروات روما! كان في إمكان الملكة أن تكتفي بحياة باذخة، جماعة من الخدم يلبّون أدنى رغباتها. يحيط بها عشاق يسارعون في مدح سحرها، كانت الملكة لتذوق العديد من المتع، تقسم وقتها بين العلاقات الوجيزة،

والنزهات الممتعة وقراءة الأعمال الأدبية والعلمية، دون أن ننسى الحفلات والأمسيات الطويلة التي يقوم بتنشيطها المغنون والراقصون.

هادئة ومترفة، كانت السنوات لتمر؛ لماذا أحست كليوباترا بالرغبة في ممارسة الحكم؟ بصورة غريزية، كانت قد انطلقت في تلك المغامرة، جاهلة أنها تهدم مستقبلاً مبتسماً؛ ومع ذلك فهي لن تندم على شيء، لأنها اكتشفت حقيقة أخرى يخفيها مسرح الإسكندرية. في داخلها كانت قد استيقظت ذكرى مصر ألفية، ذات كنوز غير متصورة؛ اكتشافها يستدعي قيامها بوظيفتها كملكة، مهما كانت الظروف.

كانت تعرف ضعف بطليموس الصغير، ضعف مؤدِّبه ثيودوتوس وخيانة الخصي فوتان؛ لكن من كان يوليوس قيصر؟ جنرال ثمل من المعارك، غاز عديم الرحمة، طموح عديم الضمير؟ سينزاح الحجاب إذا استطاعت أن تتحدث إليه.

- باخرة على مرمى البصر، صاحبة الجلالة؛ اختبئي!

معادية لتلك الرحلة الحمقاء، كانت الخادمة شارميان قد بسطت سجادة ناعمة على أرضية المركب ورتّبت عدداً من الأثواب، من أجل أن توفر لسيدتها حدّاً أدنى من الراحة من أجل ذلك السفر الأخير. مقتنعة من أنها لن ترى كليوباترا ثانية، كانت شارميان قد قبّلت يدي سيدتها طويلاً؛ عندما ستعلم بموت سيدتها، ستضع الخادمة حدّاً لحياتها.

استلقت كليوباترا وتغطت بعدة أثواب بينما حاول الصقلي، الذي اتّخذ هيأة صياد بسيط، الإبحار في عرض باخرة بمرساة. سفينة حرب أو بضائع؟ لا يوجد رماة، حراسة بسيطة اكتفت بمراقبة

تحرك المركب ليلاً، لن يدخل قبطان الباخرة التجارية إلى المرفأ سوى عند شروق الشمس.

- لا خطر، حدد الصقلي.

تحررت الملكة وراقبت البحر من جديد، كان هدوءه مطمئناً. كم من الإنذارات المشابهة ستحدث؟ فقط زورق بحجم متواضع، يسير بمحاذاة الساحل، يمكن أن يمر دون أن يلاحظه أحد وينسل إلى رصيف ميناء القصر الملكي. كان يجب ألا يرتكب أي خطأ في الملاحة، أن يفلت من المراقبين المحتملين وأن يرسو في مكان سري ويفلت من الحراس؛ بطريقة أخرى، سلسلة من الامتيازات التي حتى الآلهة الخيرة لن تمنحها لبشر.

- صاحبة الجلالة، هل ترغبين في الاستمرار؟

- هل تشك في ذلك؟

كان الصقلي يحب الإبحار؛ كان قد قام بخطواته الأولى على باخرة ولم يكن يخشى الأمواج ولا الوقت الرديء. رجل عادي كان ليشعر بالقلق؛ هو كان يستمتع بهذا الهروب الليلي، صوت الريح وروائح البحر. كانت كليوباترا تفتنه؛ لم تكن المِحن تقلّل من تصميمها، ولم يكن شبابها يمنعها من أن تكون ناضجة. حتى لو كانت قد عاشت في حظيرة، كانت لتكون ملكة. التقاء كائن استثنائي كان امتيازاً لا يريد أبولودور إضاعته؛ من الأفضل له أن يموت في خدمة امرأة من هذا النوع بدل أن يموت بشكلٍ وضيع.

مرت الساعات بطيئة، ومسحت المخاوف؛ ألم تكن الملكة المعزولة وحاجبهما يسيطران على العالم؟

في البعيد، وميض:

- نحن نقترب من الإسكندرية، صاحبة الجلالة.

- من الآن. . .

- سأطوي الشراع وأستعمل المجاديف.

ابتسمت لهما الآلهة. بالدوران حول رأس لوخياس، تسلل القارب بين أحد الأرصفة وبعض الشعاب للوصول إلى ميناء الزوارق الملكية. كانت أعصاب أبولودور مشدوهة، كان يخشى تدخّل الشرطة البحرية. لم يقع أي حادث، دَنا الصقلي من طرف الرصيف الخالي والمظلم. متعجباً من ذلك النجاح، أحس أنه يخرج من حلم.

- سيوقفنا حرّاس القصر، صاحبة الجلالة، دعينا لا نغامر أكثر.

- لم نأتِ إلى هنا كي نختبئ!

أحس بالذهول فجأة، ترك أبولودور المجاديف.

- إذن ماذا تريدين؟

- لفني في السجادة والأثواب؛ واحملني على كتفك وقدِّم الحمل هدية لقيصر.

- صاحبة الجلالة. . . الفشل حتمي!

- أسرع.

استلقت كليوباترا على الأثواب، غطاها الصقلي، ثم لفّ السجادة عليها وأغلق حزمته الثمينة بخيط.

متأكداً من أنه في أحسن الأحوال سيتم رفضه، وفي أسوئها سيتم إيقافه، توجّه بخُطى مترددة نحو أول مركز حراسة يغلق منفذ حي القصور.

كان جنديان يغفوان، ناداه الثالث.

- إلى أين أنت ذاهب، يا رجل؟

- أحمل هدية لقيصر.

- آه، الروماني... في حاجة إلى سجادة كما يبدو. مر، وانتظر؛ سيقودك أحد الخدم.

مذهولاً لتخطيه الحاجز، اقترب أبولودور من مجال يعرفه جيداً، حيث يمكن أن يكون الخطر قاتلاً؛ كان المكان يعجُّ بكائنات تابعة لمجلس الأوصياء، وسيبلغ أحدها عن حاجب الملكة التي يكرهونها.

رصده شخص ذو كرش كبير.

- أبولودور! ماذا تفعل هنا؟

- من حسن الحظ، طبّاخ كليوباترا المفضَّل كان صديقاً منذ مدة طويلة.

- أحمل هدية إلى قيصر.

- سأقودك إلى الجناح الذي يسكنه، في حديقة القصر. فلنسرع! إذا تعرف عليك أحد كائنات فوتان، سينتهي أمرك. هل تريد مساعدة؟

- لا، سيكون كل شيء على ما يرام.

سارع الرجلان في سيرهما.

- لماذا تخاطر على هذا النحو؟ قال الطبّاخ متعجباً.

- إنه وعد.

- ها هو، هنا... بعد ذلك، الحق بي، سأخبؤك وأساعدك على الهرب.

كان فيلقيان يحرسان مدخل الجناح؛ سهماهما متصالبان.

- هدية من أجل قيصر، أعلن أبولودور.

تأمّل الحارسان السجادة.

- ستحسّن إمكانية الراحة! اتبعني.

وسط الليل، كان قيصر يواصل عمله؛ بفضل أخبار حليفه اليهودي، أنتيباتر، كان يتعلم أن يتعرف إلى الإسكندرية واستطاع تحقيق أمن جيشه الصغير.

رفع عينيه، وضع الصقلي السجادة.

- من أرسل الهدية؟

فكّ الصقلي الحبل، أطلق السجادة وأزال الأثواب.

مصعوقاً رأى قيصر امرأة شابة تنهض بوقار؛ بمجرد أن وقفت، تأملت الإمبراتور بنظرة حازمة وساحرة في الوقت نفسه.

- أنا الملكة كليوباترا، أعلنت بصوت رخيم، سعيدة لتلبية دعوتك.

39

كانت كليوباترا قد اختارت ثوباً من الكتان الملكي الرائع النعومة، شفاف تقريباً، والذي بالكاد يغطّي جسدها الرائع.

- اتركانا، أمر قيصر أبولودور والفيلقي.

احتجّ هذا الأخير.

- يمكن أن تكون المرأة خطيرة و...

- هل أحتاج إلى تكرير الأمر؟

اختفى الجندي والصقلي.

كان واضحاً أن كليوباترا لم تكن تخفي سلاحاً. مسحوراً، لم يزح قيصر بصره عن الملكة ذات الجسد الكامل والوجه الذي يحمل تصميماً نادراً.

- أي لغة سنتحدث؟ سألها بالإغريقية التي كان يتحدث بها منذ الطفولة.

- هذه تناسبني.

- تعرفين العشرات، كما يبدو؟

- حوالي عشرين.

نهض قيصر.

- أنا أيضاً. أنا سعيد بلقائك، لكني لم أكن أتوقع...

- كان بطليموس وجماعته قد قرروا قتلي كي يمنعوا هذه اللقاء.

هزَّ الروماني رأسه.

- عادات بلاط الإسكندرية بالأحرى وحشية!

- وعادات روما الغازية هل هي أقل وحشية؟

ابتسم قيصر. هاوٍ كبير للنساء، كان يعتقد أنه التقى جميع أنواع الشخصيات وفكّ شفرة مجموع خفايا بنات فينوس؛ هذه الملكة الشابة، التي تجمع يقظة الفكر، الثقافة والجمال، تفاجئه. كان سحر صوتها أخّاذاً بحيث أحس برغبة في سماع بياناتها، حتى لو كانت جدالاً؛ بالإضافة إلى أنها تجرأت على مواجهته دون أن ترتجف وخاطبته نداً إلى ند. بغيضاً من بعض النواحي، كان موقفها يستحق الاهتمام والاحترام؛ هذا الخصم سيكون على مقاسه، وفهم الروماني لماذا كانت الملكة، الشرسة والفاتنة، تثير كره زمرة البطالمة الوضيع.

- بعد سفر غير مريح، هل ترغبين في قليل من النبيذ؟

- بكل سرور.

ملأ قيصر كأسين وقدّم أحدهما لضيفته؛ وهو يقترب من كليوباترا، حبس قشعريرة وخشي أن تلاحظ المرأة الشابة ذلك.

- دعينا نكن صادقين: الخمور المصرية ذات جودة عالية، وأنا أنوي استيرادها.

- تخبئ لك مصر عدة مفاجآت أخرى.

- لطيفة، كما أتمنى! فلنجلس، أترغبين؟

اختارت كليوباترا وسائد كانت على سرير ارتُجِلَ من أجل الجنرال، بينما جلس هو على مقعد بسيط ذي عوارض.

لم تكن الملكة تتصور أقوى المحاربين الرومان على هذا النحو. بالتأكيد، كان وجهه هزيلاً،وأنفه مهشّماً، والتجاعيد تملأ جبينه وذقنه؛ لكن ملامحه لم تكن ملامح عسكري فظّ. رغم صلابة بنيته، كان قيصر يبدو رجلاً أنيقاً، خطابه منتقى وحضوره لا يمكن إنكاره. أرستقراطي فخور بسلالته، كان يتمتع بعزة نفس طبيعية، مقرونة بموهبة القيادة. كانت هذه أول مرة تلتقي فيها كليوباترا هذا الصنف من الرجال وانتابها إحساس غريب. خطير، وعديم الرحمة، وطموح؟ بلا أدنى شك، لكن شديد الجاذبية!

«مبهرة عند رؤيتها، عذبة عند سماعها»، فكّر قيصر الذي قرر أن يستعيد سيطرته على نفسه بالخوض في الأهم.

- آخر رغبات والدك بطليموس، الثاني عشر في أسرة البطالمة، يجب أن تُحترَم، وأنا موجود هنا كي أحرص على ذلك. وبالتالي فإن عرش مصر مشترك بينك وبين أخيك، بطليموس الثالث عشر!

- ليس لدي شيء آخر لأطلبه.

- ألم تحاولي التخلص من بطليموس الصغير؟

- العكس هو الذي حصل! أمسكت بزمام الدولة، لأن إصلاحات عاجلة كانت تفرض نفسها؛ عندما تصرفت، أشعلت كره ثلاثة من الخدم السعداء بممارسة وظيفة وزير، الخصي فوتان، والمؤدِّب ثيودوتوس، والجنرال أخيلاس. بتكوينهم لمجلس الأوصياء كانوا يتوقعون إخضاعي؛ غاضبين من مقاومتي، اضطروني إلى اختيار المنفى، وليس لهم حالياً سوى هدف واحد: موتي. أكبُر بطليموس الصغير بسبع سنوات، وقد برهنت على مقدرتي على القيادة وتخطّي المِحن. تكوين جيش من المرتزقة لم يكن أمراً سهلاً، ومع ذلك نجحت فيه، وقوات بطليموس تخاف مواجهة قواتي.

- الحرب الأهلية دائماً خراب، قدَّر قيصر؛ إذا تمكنت من عقد الصلح بينكما، هل ستتنازلين عن القتال؟

- سأتنازل. وأنت، هل ستتنازل عن احتلال بلدي؟

- روما في حاجة إلى ثروات مصر، بخاصة الحبوب، وأنوي إجراء علاقات تجارية مكثفة مع سلطة قوية ودائمة.

- ما يعني، أنت وبطليموس.

- هذه هي متطلبات والدك الراحل، هذا هو قانونكم؛ على احترامه يتوقف السلم المفيد للجميع.

- هذه الكلمات الحكيمة تغمرني! كأسي فارغة... فلنحتفل بميثاقنا.

فتح قيصر أمفورة بيضوية الشكل ممتلئة الوسط، أسطوانية العنق؛ كانت تحتوي على نبيذ أحمر من الدلتا زكي الرائحة.

- بحسب فوتان، أنت كنت لتقتلي رسوله.

- هو يكذب، اعترضت الملكة؛ لو قبلت الصعود في السفينة التي أرسلها، لكانوا قتلوني.

- بعد أن تمَّ تفادي الكارثة، فلنشرب نخب أعراس روما ومصر!

جلس الإمبراطور على يمين الملكة، تاركاً بينهما مسافة معقولة.

- هل كنت تحبين والدك، كليوباترا؟

- كنت أكرهه! بسبب رذائله، ضعفت مصر؛ وروما تدّعي أنها تحكمنا.

- أنا روما، وكلامك يمكن أن يكلفك حياتك.

- أنت أيضاً، تتمنى موتي؟

- طبعاً لا!

- موقفك يقول العكس. . . إذن، لا تتردد! استعمل سيفك، واضرب.

انتفض قيصر.

- هل تعتبرينني بربرياً؟

- ألست حليف بطليموس؟

- أنت مخطئة، كليوباترا! التقيت بطليموس ومستشاريه الرديئين، فوتان وثيودوتوس.

- و. . .

- وأنا أحتقرهم. هم أوباش؛ بينما أنت، أنت ملكة.

أمسك يدها، لم تسحبها.

- في نظر شعبك، أنت زوجة شقيقك بطليموس؛ سيمكّنك ذكاؤك من ترويض الصبي وممارسة الحكم من جديد. ولن أعارض ذلك.

- دعم روما. . . أليس فخاً قاتلاً؟

- ألديك حل آخر؟

- أنا أريد إعادة مجد مصر وأنت تريد خنقها!

منزعجاً، ابتعد قيصر وأدار ظهره لكليوباترا.

- اذهبي إلى جناحك، كليوباترا.

- لن أكون فيه بأمان؛ سأمضي الليل هنا.

- على راحتك.

راجع الإمبراطور تقارير الدوريات التي جمعها روفين؛ عليه أن ينسى هذه المرأة ولا يهتم سوى بالتوازن السياسي لمصر.

- لا تتركني، قيصر.

عندما استدار، كانت الملكة عارية؛ جمال المرأة الشابة المضيء ذات القلب المشتعل أيقظ فيه رغبة قوية ألهبته.

- كنت أجهل سلطة الحب، صرّحت؛ وأنت تفرضه علي.

- عمري اثنان وخمسون سنة، كليوباترا.

- هل الشغف مرتبط بالسنوات؟

- ابتعدي، أرجوك.

ببطء، اقتربت، أمسكت يده؛ يد لطيفة، محمومة، عاشقة.

40

في صباح الثامن من أكتوبر سنة (48-)، كان الخصي فوتان في مزاج رائع. كان قد استعاد شهيته والتَهمَ فطوراً وفيراً احتوى على الحبوب والألبان والفواكه؛ بعد ذلك، تصور ساعات كليوباترا الأخيرة، ستكون مذعورة عندما ترى القراصنة يهاجمون باخرتها. قريباً، ستختفي الساحرة نهائياً من الساحة، وسيتأسف مجلس الأوصياء على موت الملكة العنيف، الموت الذي تسببت فيه عناصر غير منضبطة، والتي تبحث عنها الشرطة بهِمّة. وسيتم عرض جثثهم على قيصر كي يطمئن على سير العدالة الجيد.

يظل أمر تكوين زوج ملكي، وهنا أيضاً كان الحظ يخدم رئيس الحكومة بما أنه يتوفر على الأميرة أرسينوي؛ كان بطليموس الصغير قد أخبره أن المراهقة ترغب في أن تحكم وتصبح زوجته بعد القضاء على كليوباترا. كانت الفرصة عملية شرط الإحاطة بتلك المزعجة ذات المظهر البشع ومنع أي تجاوز يصدر منها؛ في الرابعة عشر، كان بطليموس قد بدأ يظهر توجهات ذكورية ستخرس أرسينوي. معتبراً نفسه ملكاً، لن يسمح لأخته بالكلام وسيظل دمية بين اليدين الماهرتين لفوتان، مالك مفتاح السلطة الحقيقية: الإدارة المالية.

ذهب فوتان للبحث عن الطفل الذي كان خدمه يسرّحون شعره،

ويعطرونه، ويلبسونه ثيابه؛ نافد الصبر، كان الصبي يتسلى بمدفع صغير.

- هل نمت جيداً، جلالتك؟

- هل ماتت كليوباترا؟

- لن يتأخر الإعلان الرسمي، هذا المخرج الحزين لا يمكن تفاديه.

فكك بطليموس مدفعه وداس على الحطام.

- الآن، فلنتخلص من قيصر ولنقطع رأسه، كما فعلنا ببومبي!

- استراتيجية أكثر لطفاً تفرض نفسها، قدَّر فوتان؛ هذا الطاغية يتمتع بحماية مقربة ويحذر منا.

- أكره هذا الروماني، وأريده أن يغادر!

- فلتطمئن، سيغادر؛ أنا وثيودوتوس نجمع الشروط اللازمة.

حاملاً نصوصاً شعرية تتغنى بسحر الإسكندرية، لحق ثيودوتوس بالخصي والملك.

- ستؤجل الدراسة إلى ما بعد الظهر، حدد فوتان؛ مهمة مستعجلة تستدعينا: إعلام قيصر بوفاة كليوباترا وزواج الملك من أرسينوي.

كان الطفل طائراً من الفرح، وأتعب مؤدِّبه في تعديل وضع التاج.

كلهم حيوية، توجه الثلاثي نحو جناح الحديقة الملكية. في المدخل، صلب الحارسان سهماهما.

- هل تجهلان من نكون؟ استنكر فوتان.

- دعهم يدخلون، أمر روفين؛ الإمبراطور ينتظر الملك بطليموس ومستشاريه.

بمجرد أن تخطّوا العتبة تجمّد الملك الصغير والخصي والمؤدِّب من الدهشة.

مرتدياً رداء أنيقاً أحمر اللون، وجالساً إلى مكتبه، كان قيصر يراجع وثائقه؛ على شماله، المرأة التي كانت تزيل الخيط الذي يغلق لفائف البرديات لم تكن سوى... كليوباترا!

كليوباترا حية، قرب الغازي، وفي عينيها وميض جديد!

- كيف... كيف وصلت الملكة إلى هنا؟ تعجّب فوتان الذي ابيضت شفتاه الغليظتان.

- لا يهم، قدَّر قيصر الذي رفع رأسه وتفحّص مخاطبيه بنظرة باردة؛ قبلت كليوباترا الامتثال للشرعية التي أمثّلها، بإعلان نفسي من مصر ومن روما. وأدعو بطليموس إلى أن يحذو حذوها.

وهو على وشك أن ينفجر من الغضب، قام الصبي بانتزاع تاجه ورماه على الأرض.

- إنها خيانة! سأحتكم إلى شعبي، سيقضي عليكما!

بعد أن أفلت من مستشاريه، سارع بطليموس خارج الجناح وجرى ناحية القصر، وهو لا يتوقف عن الصياح: «خيانة، خيانة...».

- عليكما تهدئته، دعاهما قيصر؛ يمكن للوضع أن يسوء.

- إنه الملك، ذكّره ثيودوتوس؛ لسنا سوى خدامه المتواضعين.

نهض الروماني، ساحقاً باحتقاره المنافقين.

- في هذه الحالة، سنواجه الشعب.

كان لاحتجاج الملك الصغير فعالية مهمة؛ في أقل من ساعة، اجتمع عدد غفير من الأهالي أمام القصر مطالبين بتوضيحات.

- سأتحدث إليهم! قرر بطليموس.

- يكفي، تدخّل قيصر.

أحاط فوتان وثيودوتوس بالصبي.

- لا تتدخل، همس الخصي في أذن محميه.

وهو يغلي من الغضب، شدد بطليموس قبضته؛ كان مستشاراه يتمنون مجيء جماعة تصرخ محتجة كي ترغم الرومانيين على الصعود إلى سفنهم والتوجه نحو عُرض البحر.

ظهر قيصر في إحدى نوافذ المبنى، رفقة كليوباترا، وأعلن:

- ملكتكم على قيد الحياة، تمَّ تفادي الحرب الأهلية؛ بحسب تقليدكم، هي متزوجة من بطليموس الثالث عشر، وبحسب وصية والدهما، سيحكمان معاً تحت حماية روما. الآن ملكاكما متصالحان، حفلة ووليمة ستحييان السلم المستعاد؛ وأنا أمنح لمصر جزيرة قبرص من أجل الاحتفال بهذا الحدث السعيد.

- نريد رؤية بطليموس! صاح أحد المتظاهرين.

- تعال بالقرب مني، صاحب الجلالة، طلب قيصر.

دفع فوتان سيده؛ رغم حرنه ظهر على يسار قيصر، الذي انسحب تاركاً الزوج الملكي في مواجهة شعب الإسكندرية.

بعد لحظة تأرجُح، تغلب الارتياح والفرح؛ بفضل حكومة مستقرة، سيواصل متجر العالم أنشطته التجارية، مستفيداً من رعاية روما.

بحنجرة واحدة، هتفت الجموع من أجل بطليموس وكليوباترا.

لم يَبدُ على قيصر أي تأثر، بينما أحس فوتان بحرقة فظيعة في المعدة، في حين عضّ ثيودوتوس على شفتيه حتى أدماهما.

41

كانت القباب الملبّسة للقصر الملكي في الإسكندرية[1] محمَّلة بالزينة؛ شرائح الذهب تستر الخشب، رخام وفير يضيء الغرف، بالإضافة إلى ذلك، كميات وفيرة من اليَشب وحجر السُّمّاق، دون أن ننسى وفرة العقيق الذي كانوا يمشون عليه. لا وجود للسنديان المألوف من أجل الأبواب ودعائمها، لكن أبنوس وغشاء قشور السلحفاة الهندية الملونة، وزمرد مرصَّع في شوائبه. العاج يغطّي الممرات، واليَشب يعطي للأثاث انعكاسات صهباء، أحجار كريمة تجعل الأرائك تلمع، وكذلك الزرابي، بعد حمام طويل في الأرجوان.

قادراً على تحمّل أقصى ظروف الحروب، كان قيصر حساساً للترف، وترف إقامة البطالمة لم يكن له مثيل. كان المدعوون إلى وليمة الدولة، التي ستذكر في الحوليات، قد ارتدوا أجمل ثيابهم، والنساء اللواتي تزينّ بالجواهر كنّ يتنافسن أناقة، بدءاً بالملكة كليوباترا والأميرة أرسينوي. حضر كل أفراد الحاشية الأساسيين حفل الصلح الذي فتح عهداً جديداً ضامناً سنوات عديدة من الازدهار للإسكندرية؛ بما أن قيصر لم يتقدم كمسيطر بل كمصلح،

(1) نتبع وصف لوكان (Lucain).

لم يعد هناك من صراع مهدد، وسيستطيعون التفرغ من جديد للتجارة بالتفاوض بصرامة مع الرومان.

كان طباخو القصر قد أبدعوا من أجل أن يستمتع المدعوون المهمون بالوليمة؛ عجائن، ولحم بمرق، وسمك البحر والنيل، وخضر متنوعة بالتوابل، وأجبان، وحلويات وفيرة، كل هذا مصحوباً بنبيذ الدلتا الفاخر الذي يحمل علامة «طيب المذاق ثلاث مرات».

على يمين قيصر، كان بطليموس يفرط في الأكل؛ على يساره، كانت كليوباترا تأكل بأطراف أصابعها. كان صبي الأربعة عشر سنة قد تغيّر؛ مقتنعاً بأن مستشاريه لن يستطيعا القضاء على أخته الكبرى دون أن يثيرا غضب الإمبراطور، كان قد بدأ يشك في فعاليتهما. وإن حوَّل لقب ملك الذي ألبسه إياه القدر إلى حقيقة؟ وإن مارس حكماً، سيضطر، ولو لبعض الوقت، اقتسامه؟ كانت شخصية يوليوس قيصر تثير إعجابه وتنزعه من غلافه الواقي؛ به يجب أن يتشبه أي ملك وليس بفوتان أو ثيودوتوس. أما بالنسبة إلى كليوباترا، عدا كونها امرأة، فهي كانت تتغذى بطموح غير مبرر، محكوم عليه بالانكسار.

- هل تستمتع بالعشاء؟ سأل الملك الصغير قيصر.

- طباخوكم فنانون.

- هذا الصلح... هل تريده فعلاً؟

- هل تشك في ذلك، صاحب الجلالة؟

- أريد دليلاً، أكبر من الكلام المعسول.

نضج بطليموس المفاجئ أدهش الروماني.

- ماذا تريد بالضبط؟

- هل أعطت شقيقتي وزوجتي كليوباترا لعصابة مرتزقتها الأمر بالتشتت؟

- هذا الصباح، أجابت الملكة؛ تلقّوا رواتبهم وغادروا منطقة بيلوز.

أومأ المراهق برأسه...

- إذن لن تكون هناك حرب أهلية... ربما يجب علي أن أشكرك.

- لا أطلب ذلك؛ بعد أن استتب الهدوء، من اللائق أن نجري إصلاحات إدارية ونضمن قوة عُملتنا.

- هذه المواضيع تهمني بقدر ما تهمك، أختي العزيزة، وسيكون علينا أن نناقش ذلك.

- هل يمكن أن تتصرف عكس رأي مجلس الأوصياء؟

- وجود المجلس كان بسبب سني وعدم خبرتي؛ قريباً، سيزول هذان النقصان. معرفة الشعر لا تكفي كي نحكم، وقد بدأت دراسة عالم المالية.

- احذر فوتان، أوصته كليوباترا؛ هو لا يفكر سوى في مصالح طائفة صغيرة.

- سأتعلم كيف يكون لي رأيي الخاص؛ سيساعدني وجودك كثيراً.

متألفة من عازفي النايات والمزامير والقيثارات، بدأت إحدى الجوقات لحناً مبتهجاً، وأدّت راقصات يرتدين ملابس خفيفة حركات راقصة أعجبت الحضور؛ ملأ السقاة الكؤوس بنبيذ حلو بنكهة الفواكه، فأخذت الرؤوس تدور. أخذ الجميع في المزاح، وسردوا النكات السفيهة، تمَّ ذكر حفلات بطليموس الزّمَّار الماجنة... نهضت كليوباترا.

- إذا سمح ضيفنا، قالت لقيصر؛ أودّ أن أنصرف.

- كان يوماً طويلاً، وسأنصرف إلى جناحي.

بعد أن أسرف في الطعام والنبيذ الفاخر، وجد بطليموس صعوبة في فتح عينيه؛ رافقه ثيودوتوس إلى غرفته.

شكاكاً، كان فوتان قد راقب الروماني والساحرة، متوجساً من أن يكونا قد أصبحا عشيقين؛ كان برودهما المتبادل طوال العشاء مطمئناً. موضوع آخر للقلق: تصرف بطليموس الصغير؛ كان الصبي يبدو واثقاً من نفسه. هل أصبح مغروراً بالقدر الذي يجعله يعتبر نفسه ملكاً؟

*

قبّلت شارميان كفي الملكة.

- أنا سعيدة، صاحبة الجلالة، جد سعيدة! أخيراً ها نحن قد عدنا إلى القصر... كنت قد يئست من أن أراك على قيد الحياة ولم أؤمن بالتسوية. جناحك منظم، أتمنى ألا أكون قد نسيت شيئاً... في حالة الخطأ، اعذريني!

- عندي مهمة سأكلفك بها: استقبال زائر مهم في سرية تامة. سيقوم أبولودور بإحضاره، يجب عليكما تفادي الفضوليين.

كانت شارميان سعيدة.

- رجل؟

- يوليوس قيصر. يجب أن أتحدث معه.

- ألا تعرّضين نفسك للخطر؟

ابتسمت كليوباترا.

- اطمئني، هذا الروماني يعرف أن يكون دبلوماسياً.

انسحبت الملكة إلى غرفتها الفسيحة التي تعبق بروائح الياسمين؛ مرتدية ثوباً مقصَّباً ذهبي اللون، كان سريرها مكاناً

سيستمتع فيه عشيقها حتى الضياع. كانت شارميان قد وضعت باقات السوسن في زوايا الغرفة؛ على منضدة قصيرة، كأسان من الفضة وأمفورة صغيرة من النبيذ الأبيض مزينة بمشاهد رومانسية.

كيف استطاعت الخادمة أن تخمّن؟ كانت دائماً تحس مسبقاً برغبات سيدتها وتجد الوسائل التي تتيح لها إرضاءها. خلعت كليوباترا ثوب الاحتفال الثقيل، أرخت شعرها وارتدت ثوباً بسيطاً، عائماً وشفافاً.

ألم تكن ضحية سراب؟ لا، قيصر أعظم رجل في العالم سيكون عما قريب بجانبها، مهتماً وعاشقاً؛ كانت ليلتهما الأولى قد محت فارق السن بينهما، لكن كان على كليوباترا أن ترضخ للأمر الواقع: بعد أن انتهت مهمة قيصر، كان يستعد للذهاب إلى روما من أجل محاربة خصومه العنيدين والحصول على السلطة العليا. قبل أن تفقده، كانت ترغب في أن تشاركه لحظات أخيرة من المتعة.

- ها هو، أعلنت شارميان منفعلة.

لم يستطع الإمبراتور مقاومة الدعوة، وعرف الحاجب أبولودور كيف يقوده في سرية تامة.

عندما رأى كليوباترا، أحس مرة أخرى بانجذاب لا يقاوم؛ عندما ارتمت بين ذراعيه، سرى إحساس عارم من السعادة في جميع جسده. لم يتصور أبداً أن يعيش حباً عنيفاً، إلى درجة أن يزيل تحفظه الطبيعي وسيطرته على نفسه. هو الذي كان يعتقد أنه يعرف النساء كان مفتوناً بسحر هذه الملكة التي كان يحس برغبة قوية في اكتشافها.

حملها إلى السرير العريض، نزع ثوبها وأخذ يتأملها.

- ستكون ليلتنا الأخيرة، أليس كذلك؟ سألته بصوت حزين.

- هل ستغلقين بابك في وجهي؟

- لا، طبعاً لا! أنت، يجب أن تغادر...

- السماء تحتفظ بي هنا. إنه فصل الرياح الموسمية، تلك التي تهبُّ من الشمال وتجعل الإبحار شديد الخطورة.

وهي تحس بفرحة عارمة، نزعت المرأة الشابة ملابس عشيقها واستسلمت لمداعباته، متوسلة إلهة السماء، في صمت، بأن تجعل تلك الرياح الخارقة تهبُّ لأسابيع طويلة.

42

يرافقهم رجال الفيالق الرومانية، كان مبعوثو كليوباترا قد دفعوا رواتب المرتزقة، وأمروهم بالتفرق والابتعاد من بيلوز. بعد أن سُمِح لهم بأخذ المؤن التي راكمها العجوز، لم يكن الجنود المرتجلون تعسين لما حصل. كان يمكن لهذه المغامرة أن تنتهي بطريقة سيئة.

- ماذا يحدث في الإسكندرية؟ سألهم العجوز.

- عاد الهدوء، أجاب أحد مفوضي الملكة؛ بفضل تدخّل قيصر، انتهى الصراع بين بطليموس وكليوباترا، الملكان، حليفا روما. أقاما مأدبة للاحتفال بصلحهما. الشعب راضٍ، مدينتنا الجميلة تحيى من جديد. راضية جداً عن خدماتك، تود الملكة استعمالك كمساعد للحاجب؛ راتب جيد، سكن وغذاء. قرارك؟

- أنا، المدينة...

رفع ريح الشمال أذنه اليمنى.

- أنت تريد اكتشاف الإسكندرية؟

أكّد الحمار.

- لم يكن ينقص سوى هذا! طيب، هيا بنا.

كان المفوض مندهشاً.

- هذه الدابة هي التي تملي عليك تصرفاتك؟

- حماري يعرف أين يذهب.

صعد المسافرون إلى سطح سفينة الملكة؛ في المقدمة، استمتع ريح الشمال بمشهد البحر.

*

دفع الجنرال أخيلاس الشابة التي أصبح يحس معها بالملل؛ حان الوقت كي يستهلك أخرى، أقل خُرقاً.

ظهر المساعد الميداني ذو الرأس المربع والزغب الأسود في باب جناحه في قلعة بيلوز.

- هم يغادرون، يغادرون!

- جنود كليوباترا؟

- يغادرون مواقعهم، انظر بنفسك!

ارتدى أخيلاس على عجالة رداء خشناً وتسلَّق قمة السور.

كان المرتزقة يطوون خيامهم، كان صفان من المشاة قد انطلقا نحو الشمال، بينما أخذت أفواج صغيرة تتفرق.

- شيء قذر، قدَّر أخيلاس؛ في رأيي، هذا مجرد تشتيت انتباه. هم قرروا مهاجمتنا من جوانب عدة في الوقت نفسه ويحاولون خداعنا؛ فليبقَ كل واحد في مكانه.

مرَّ اليوم بطيئاً، تحت أنظار الجنرال؛ عند الغروب، ما من شك، كان الأمر فعلاً يتعلق بفضٍّ للتجمُّع. هل ينوي القطّاع التجمُّع في مكان بعيد من بيلوز من أجل الاستعداد لهجوم واسع؟ غير مرجح. وهو يحس بالريبة، أمر أخيلاس كشّافته بتتبع طريقهم والتأكد من أن أولئك الكواسر لا يحضّرون ضربة سيئة.

بسبب إحساسه بالغيظ، اِلتهَمَ أخيلاس بطة مشوية وأنهى أمفورة من النبيذ الأحمر المسكِّر. ممن يهزؤون في الإسكندرية، ولماذا لم

يبعث فوتان بتعليمات محددة؟ كان يسيطر على المالية، لكنه هو، أخيلاس، يسيطر على الجيش! يبدو أن مساعديه الاثنان، الخصي والمؤدِّب، نسيا أنه ثالث أعضاء مجلس الوصاية، وحده القادر على ضمان الأمن؛ أن يتم إهماله بهذا الشكل أمر لم يعد يروقه.

في صباح اليوم الموالي، أكّد الكشّافة تفرق المرتزقة؛ وتلقّى الجنرال أخيراً رسالة رسمية تحمل ختم فوتان. كانت الأخبار مذهلة: بعد أن تصالحا، قبل بطليموس وكليوباترا أن يحكما سوية، وقيصر يرحب بهذا الاتفاق!

«هذا لن يستمر»، قدَّر أخيلاس، مقتنعاً من أن الملكة ستسارع بإبعاد أخيها والإمساك بزمام السلطة لوحدها. كانت التعليمات واضحة: في انتظار ذهاب الرومانيين، سيبقى الجيش متمركزاً في بيلوز من أجل تفادي أي حادث قد يعصف بالاتفاق الحاصل.

كان أخيلاس يستشف استراتيجية فوتان الماهرة: بعد أن تُحرَم من دعم قيصر، ستصبح كليوباترا معزولة وستكون فريسة سهلة. حينئذٍ، سيدخل الجيش إلى الإسكندرية، وسيتم القضاء على الساحرة، ويحكم بطليموس باتخاذه زوجة أخرى، خاضعة وبكماء.

بعد أن ابتعد الخطر، وبدا المستقبل واعداً، أصبح في إمكان أخيلاس ورجاله التفرغ للراحة والطعام الجيد والنساء. وبمجرد أن يعطيه فوتان الأمر سيقطع رأس كليوباترا بكل سرور.

*

أحد خدم الخصي كان حاسماً: قيصر وكليوباترا أمضيا الليلة معاً في غرفة الملكة. رغم احتياطات الحاجب أبولودور، تعرّف الخادم إلى الروماني..

بعد أن انزعج في البداية، قلَّل فوتان من أهمية الحدث: ذلك

الطاغية ذو الاثنتي والخمسين سنة طالب شابة جميلة بحقه، وهي مبتهجة بأنها استعادت بفضله جزءاً من عرشها ومعتقدة أنها ستنجح في طرد بطليموس. سذاجة امرأة طموحة!

بعد أن حَلَقَ وتعطّر وارتدى رداء برتقالياً فاقعاً واسعاً يخفي انحناءاته، كان فوتان مستعجلاً للذهاب إلى المرفأ. أبعد في طريقه بعض أعضاء الحاشية الراغبين في تثبيت امتيازاتهم، وخرج من القصر تحيط به كوكبة صغيرة.

كانت ريح خفيفة تكنس الأرصفة المخصَّصة لبواخر البحرية الملكية؛ في القرب ترسو سفن قيصر التي أثارت تعجّب فوتان عندما وجدها في مكانها.

- استدعوا المفتش الأساسي، أمرهم فوتان.

وصل المسؤول بخطوات هادئة.

- ألم يأخذ قيصر سوى سفينة واحدة؟

- الروماني؟ لم يغادر؛ كل سفنه هنا.

- هل أنت متأكد؟

- أنا في الموقع منذ الفجر؛ وحدها ثلاث سفن تجارية غادرت الإسكندرية.

وهو منزعج استدعى فوتان أحد قبطاني أسطول قيصر؛ مجدداً، لم يكن البحّار سهلاً.

- متى ستغادرون؟

- ليس من تاريخ محدد؛ ألا تحس بشيء؟

- لا، أنا...

- الرياح الموسمية! الملاحة مستحيلة. يجب أن ننتظر حتى تهدأ.

43

كان قيصر يعرّض نفسه لخطر أحمق. بعد أن تمّت تسوية الوضعية المصرية، كان عليه أن يبتعد من الإسكندرية ويهتم بأتباع بومبي الذين كانوا توّاقين للانتقام وسيسعون جاهدين ليسدّوا عليه طريق روما والسلطة المطلقة، تلك السلطة التي كان يحلم بها، ليس من أجل مجده الخاص، الذي كان قد تحقق فعلاً، لكن من أجل وضع حدّ للصراعات الداخلية، لمعارك الأشخاص وللأزمات الاقتصادية؛ عمل جبّار، لكن محمِّس، وطريق مرسوم.

طريق تقف في وسطه كليوباترا.

رغم اعتياده على المعارك والمِحن، كان قيصر قد أغفل واحدة: الحب. هو، الإمبراطور الذي لم يخشَ لا الجرمانيين، ولا الإيبيريين، ولا الغاليين، ولا فيالق بومبي، يستسلم أمام امرأة شابة ضعيفة. لم يكن يجرؤ على الابتعاد عنها ولم يذكر سوى سبباً بئيساً، رياح الشمال، لتبرير إقامته غير المبررة في الإسكندرية.

إقامة خطرة... لم يكن جيش قيصر المتواضع ليزن شيئاً أمام قوات بطليموس، وإذا أعلن عليه الملك الصغير الحرب! بعد مصالحته المتوهِّجة مع كليوباترا، لماذا سيتخذ موقفاً عدائياً؟

عندما داعبت يد الملكة وجنته، نسي قيصر مخاوفه؛ عذوبة

صوتها بالإضافة إلى سحر حركاتها، نعومة تأسره.

- بما أنك باقٍ، لا جدوى من أن نختبئ.

- ألست زوجة بطليموس؟

- تخريف سياسي بسيط! لا شيء يمنعني من أن أحبك.

- ألن يمتعض السكندريون؟

- كانت مغامرات والدي تسليهم! الأخلاق منحلة، هنا، لا أحد سيتضرر من علاقتنا. تحالف مصر وروما... أليس خبراً رائعاً؟

- ألا تكونين أنت السعادة، كليوباترا؟

- لك أن تقرر؟

تعلقت بعنقه.

- سأريك مدينتي! بجانبها، روما تبدو مجرد ضاحية بئيسة.

*

ظل قيصر في حالة تأمل لوقت طويل في الضريح الذي يضم تابوت الإسكندر الأكبر، ثم قادته كليوباترا إلى المتحف، قلب العاصمة الثقافي. مخصَّصاً لعرائس الشعر، مصادر الوحي والإبداع الفني والثقافي، كان يحتل مكاناً فسيحاً حيث تمَّ تشييد معبد، ومكتبة كبيرة، وقاعة طعام، ومبانٍ سكنية، وقاعات دراسة مخصَّصة أيضاً لعلم الفلك والطب؛ كان المتخصصون في علم التشريح يشرِّحون فيها الجثث ويهيئ فيها الصيادلة جرعات الدواء. لأن المتحف كان أرفع مكان للبحث العلمي، متيحاً لنزلائه تعميق معارفهم والوصول إلى اكتشافات عديدة.

العيش في المتحف كان وضعية محسودة وتثير الحسد؛ الغذاء والغسيل على حساب الدولة، لم يكن العلماء يدفعون الضرائب وكانوا متفرغين بشكلٍ تام لفروع معرفتهم، في منأى عن صراعات

العالم الخارجي. كانوا يتمتعون بأجنحة واسعة، وقاعة أكل رائعة، وحديقة، ومنتزه تحت الأروقة، وقاعة مؤتمرات مجهّزة بكراسي مريحة. فلكيون، وأطباء، وجراحون، وفلاسفة، وبلاغيون، ومختصون في الهيدروستاتيك وباحثون آخرون يتعايشون يومياً ويثرون معرفتهم.

قدمت كليوباترا لقيصر كاهن عرائس الشعر الكبير، مدير المؤسَّسة وأحد كبار أعيان البلاط؛ الوصول إلى ذلك المنصب كان يتطلب مهارات جادة، والتسيير الجيد للمتحف كان مهمة ثقيلة ومبهجة في آن.

أحس الروماني باهتمام كبير للتحدث مع نزلاء المتحف، كما أدهش اطّلاعه الواسع سواء في الفلك أو الفلسفة أكثر من واحد؛ هو الذي كان يكتب أفضل اللاتينية، قدَّم نصائح مفيدة لكتّاب النثر. رغبة في المعرفة، حضر قيصر العديد من الندوات وأمضى ساعات عديدة في الحديقة، رفقة عشيقته وعلماء سعيدين بعرض نتائج أبحاثهم المتواصلة عليهما. لم يكن أمين المكتبة الأول، ديمتريوس دي فالن، يتردد عن قول: «الكتب أشجع من الحاشية في عرض الحقيقة على الملوك». مصفوفة بعناية على الرفوف، كانت المجلدات تتكون من أوراق البردي الملصقة والملفوفة حول عصا منظمة ومدرجة بعناية، كانت السبعمئة ألف نسخة في مكتبة الإسكندرية مخصَّصة لمواضيع متنوعة، التاريخ، والجغرافيا، والأنثروبولوجيا الوصفية، والميثولوجيا، وعلم التنجيم، وعلم الفلك، وعلم الطيور، وعجائب العالم، والطب، والسحر، والأدب، وحتى ألعاب وأسزار المطبخ! ذلك التوق للمعرفة الكونية أبهر الإمبراطور الذي عبر قاعات حيث كان الكتّاب وعلماء اللغة

ينقلون من دون كلل نصوصاً مع مراجعتها؛ أمناء المكتبة سيقومون بجرد مقتنيات الدولة الجديدة، كانت الدولة تشتري مخطوطات من الملوك الأجانب، من المدن ومن الخواص. عديد من الترجمات التي من المصرية، والكلدانية، والفارسية، واللاتينية ومن لغات مختلفة تحتل الرفوف.

اهتم قيصر بالترجمة اليونانية للتوراة، تلك التي كان يستعملها صديقه اليهودي أنتيباتر والذين يدينون ديانته، وبعمل الكاهن مانيتو الذي كتبه تحت طلب أول البطالمة معدِّداً لائحة الأسر الفرعونية الثلاثين. لم تعرف أي إمبراطورية نفس الاستقرار والازدهار على مرّ القرون دون أن تتنكر يوماً لمؤسساتها.

أثار أحد الكتب إعجابه: **متون** هرمس ثلاثي العظمة، وريث الإله المصري تحوت، سيد الكلمة المقدسة. لا أحد كان قد كتب تعاليم أعمق حول الولادة الروحية، والعمل الإلهي، والقوانين الأبدية للخلق.

- الآن، أنت تعرف الأماكن التي أمضيت فيها طفولتي ومراهقتي، قالت كليوباترا.

ساخراً من نظرات العلماء المختلسة، أخذها قيصر بين ذراعيه.

- أفهم بشكلٍ أفضل سحر كلماتك، التي تغذت من كل هذه العلوم.

- هل كنت لتفضل جميلة حمقاء؟

- أنت ملكة، كليوباترا، وتستحقين أن تحكمي.

44

كانت تقارير جواسيس فوتان متطابقة: قيصر يمضي أيامه في المتحف والمكتبة، ولياليه في سرير كليوباترا. كان الروماني يستمع إلى محاضرين، ويتناقش مع فلاسفة، يقرأ نصوصاً متعلقة بالسحر وعلم التنجيم، يشارك في النقاشات الأدبية والعلمية ولا يمل من سحر عشيقته الشابة. قيصر المحارب، الغازي، سيد روما المقبل، أصبح تلميذاً عاشقاً!

مذهولاً، لم يعرف فوتان ما يقول في ذلك؛ كانت رياح الشمال قد خفّت، هازِم بومبي كان مقيماً في الإسكندرية. نظراً إلى تصرفه، الخالي من العداء، كان الشعب محافظاً على هدوئه؛ لكن كيف ستتطور هذه الوضعية التي لا تصدق؟

- الملك يستدعيك، أعلن له ثيودوتوس الذي اعتلت جبهته تجعيدة جديدة.

- فيما بعد، أنا مشغول.

- إنه أمر، فوتان.

- عفواً؟

- تغيّر بطليموس كثيراً، هو يشتد ويعتبر نفسه قادراً على أن يحكم.

- أرجع هذا الولد الوقح إلى مكانه!

- هو يقاومني؛ فلنتظاهر بأننا نطيعه.

بطليموس الثالث عشر، كليوباترا، أرسينوي. . . أحياناً، كان فوتان يودّ لو يرمي هذه العائلة المستحيلة إلى الجحيم، ويتلاعب بآخر أعضائها، طفل صغير جداً؛ لكن تصالح الملك والملكة، المرتبطين بمباركة قيصر، يحتم عليه أن يراوغ بمواجهة هذا الواقع.

- توقف ملكنا عن التهام الحلويات، وهو يمرّن عضلاته كل يوم في قاعة الجمباز حيث يحرق شحمه ويتلقى أسرار الأعيان.

عبس فوتان؛ هذه الرغبة في الاستقلال لم تكن تعجبه. بخطواته الثقيلة، ذهب إلى قاعة الاجتماعات التي قرر الملك الشاب استعمالها؛ كان أحد الموظفين السامين قد قدَّم له ملفاً.

- كنت بطيئاً؛ في المستقبل، أسرع بالاستجابة لندائي.

- مفهوم، صاحب الجلالة.

- الشعراء يشعرونني بالملل، اعترف الملك؛ وأنا أفضِّل حسابات الدولة؛ رغم أن إصلاحات كليوباترا كانت على وشك أن تفلسنا، إلا أن التسيير الحالي ليس مرضياً. وأنت المسؤول الرئيسي.

ابتلع الخصي ريقه.

- إنه مجال معقد و. . .

- وأنا جد صغير كي أستطيع أن أبرع فيه! هذا ليس رأيي. تسيُّب، فساد، امتيازات غير مقبولة. . . هل تجهل هذه الانحرافات؟

- إنها تشغلني، صاحب الجلالة.

- غير كافٍ، فوتان! سنزيل هذه الثآليل، لكن هناك ما هو أكثر استعجالاً.

لم يجد الخصي الصبي المزاجي، غير المبالي بأمور الدولة.

- بحسب معلوماتي المستقاة من قاعة الجمباز، قيصر يكون عشيق أختي.

- صحيح، صاحب الجلالة.

- هذا الروماني يدوس على كرامتي! لماذا لم يغادر الإسكندرية؟

- بسبب الرياح الشمالية.

- هو يسخر منا ويتصرف مثل طاغية في بلد محتل!

- في الحقيقة، هو يكتفي بزيارة المدينة، اتّباع تعاليم علماء المتحف ويتردد على المكتبة.

- خدعة! قيصر يدرس الميدان ويحضّر للانقلاب علي؛ افعل كل ما في وسعك لإجباره على الانصراف. إذا فشلت، سأستدعي جيش أخيلاس وسأستعمل العنف.

شحب فوتان.

- صاحب الجلالة، رجال الفيالق الرومانية جنود شجعان، و...

- وجنودنا ليسوا جبناء، ونحن نتمتع بتفوق كبير في العدد. نفّذ أوامري، فوتان، وكن فعالاً.

*

«لنبصق، هذا يستحق البصاق!»، اعترف العجوز وشاركه ريح الشمال رأيه وهو ينزل في مرفأ الإسكندرية الكبير، المغلق من جهة الشرق برأس لوخياس؛ وفي الغرب، رأس بون روتور يستقبل سفناً تجارية ثقيلة. أُعجِب الحمار بالمنارة التي تشرف على الحوضين

الرئيسيين اللذين يفصل بينهما السد الذي يربط بين جزيرة فاروس والشاطئ؛ مرفأ داخلي، «العلبة»، يتصل بقناة تقود إلى بحيرة مريوط وإلى الفرع الكانوبي لنهر النيل.

رغم أن المعابد والمنشآت الرسمية لم تكن تضاهي منشآت المصريين القدامى، إلا أنها لم تكن تقل عنها أناقة، وتعجّب العجوز من اتساع الشوارع، بخاصة الشارع الرئيسي الذي كان عرضه ثلاثين متراً، الطريق الكانوبي الموجه شرق-غرب، والذي كان طوله يبلغ خمسة كيلومترات. كانت الشوارع موزّعة بحسب شبكة تقسم المدينة إلى خمسة أحياء، والتي أطلقت عليها الإدارة الأسماء الموافقة للأحرف الخمسة الأولى من الأبجدية الإغريقية.

كانت الحركة تبدو كأنها لا تنقطع؛ مصريون، وإغريق، ويهود، وقبارصة، وآسيويون، ورعايا الدول القريبة والبعيدة يجرون في كل الاتجاهات؛ بحارة، وعمال موانئ، وموصِّلو طلبات، وتجار، وتجار صغار، وحرفيون يقومون بأعمالهم تحت أعين المواطنين المنتمين إلى القبائل الخمس أصحاب الثقافة الإغريقية والمسيطرون على باقي الشعب.

- الآن، ها أنت قد رأيت، إنهم عصبيون جداً هنا، لذا فنحن يجب أن نعود إلى القرية، قال العجوز لريح الشمال.

لكن الحمار، الذي كان الناس معجبين بقوته وزغبه الرمادي، لم يكن يرى الأمر بالشكل نفسه؛ تبع مندوب الملكة الذي أخذ وجهة حي القصور.

«المكان يعبق بالمشاكل»، استشعر العجوز الذي كان دائماً غير قادر على التنبؤ بالمستقبل.

مع ذلك، كان الترحيب لطيفاً، وجاء الحاجب أبولودور بنفسه لملاقاة القادمين.

- سعيد برؤيتك ثانية! كيف تجد العاصمة؟

- رائعة، رائعة... جفّ ريقي بفعل السفر.

- مشكل يسهل حله! لن يخيّب قبو القصر أملك. خصصت لك مسكناً مريحاً، ولن يحتاج حمارك إلى شيء؛ هل تقبل نقل البريد الخاص للملكة؟

- خاص... هذا يعني سري؟

- نوعاً ما.

«ها نحن»، لاحظ العجوز، «بدأت المتاعب».

- هل الملكة كليوباترا بأمان؟

- بيني وبينك، لست متأكداً من ذلك؛ علاقتها بقيصر أصبحت علنية، وأخشى ألا تعجب شعب الإسكندرية. دعنا لا نكون متشائمين: هذا الروماني سينتهي به الأمر بمغادرة مدينتنا، وسنستعيد عاداتنا. في انتظار ذلك، ستكون مساعدتك ثمينة بالنسبة إلي؛ قمت بإدارة مؤن عصابة المرتزقة بشكلٍ جيد وعملك في القصر سيبدو بسيطاً مقارنة معه!

- بماذا يتعلق الأمر؟

- مراقبة المواد المقدمة لكيلوباترا وقيصر.

- هذا يعني... تذوقه؟

- لا، لا! سيكون هناك خدم تحت تصرفك؛ أنت، ستهتم بجودة العناصر، وستختار أفضل الممونين. هذه المهمة النبيلة، ذات الراتب الكبير، هل تناسبك؟

حكّ العجوز ذقنه.

- من الواضح أن ذلك جميل.

- طيب، فلنحاول...

- مرحباً بك في القصر! معاً، سنقوم بعمل جيد.

«إلى أين قادتني الآلهة؟»، تساءل العجوز.

45

رفقة كليوباترا كمرشدة، استمتع قيصر باكتشاف وِرَش العمل التي تنتج ثروات تصدر في العديد من البلدان، بخاصة ثياب الصوف والكتان؛ لاحظ الروماني أن الحِرف المتعلقة بالنسيج كانت تحت الختم وكان العمال مراقبين من أجل تفادي صناعات سرية تفلت من الضرائب، الصرامة نفسها بالنسبة إلى أصحاب العطور والزجاج المصنوع بمهارة مدهشة، والتي كان عملها يحضر ثروة مهمة للدولة. كانت الشرطة في كل مكان، بحيث تمنع كل اقتصاد موازٍ؛ الضرائب الكبيرة كانت تتيح نمط العيش للأرستقراطيين الإغريق، وحدهم المخولين على حمل لقب «مواطنو الإسكندرية»، وفقاً لمبادئ الديمقراطية التي تضمن امتيازاتهم. بطبيعة الحال، كانت النساء يعتبرن قاصرات تابعات لولي؛ باستحواذهم على السلطة، كسر الإغريق وضعية المصريات، اللواتي كنّ مساويات للرجال، ولم يحتفظوا سوى بصورة الملكة، الحاضرة بجانب الملك. وبما أنه خلال الحقبة الفرعونية، كان الأزواج يكنّون «أخ» والنساء «أخت»، استنتج البطالمة ضرورة أن يتكون الزوج الملكي من أخ وأخت.

أُعجِب قيصر بالمجوهرات الذهبية التي تزينها الأحجار الثمينة ومنح كليوباترا قلادة جميلة زينت عنقها في الحال؛ معاً، كانا

يستمتعان بالتدقيق في تفاصيل التماثيل الفخارية، ذات مواضيع لا محدودة. كانت تمثل المنارة، والمعابد، والآلهة، والممثلين، والموسيقيين، والراقصين، وحاملي المصابيح، والحيوانات، والشخصيات الغريبة، ذكور بعضو كبير أو عشاق منغمسون في اللهو.

متناسياً روما، كان الإمبراطور يخترق قلب الحياة الإسكندرية، يمضي أياماً مثيرة وليالٍ ساحرة، مأخوذاً بشكلٍ متزايد بعشيقته الشابة. هو، رومولوس الجديد، ابن فينوس وسليل البطل إينياس، تحدَّث عن فترة مهنته الطويلة: ضابط سامي، وقسطور، وقاضٍ، وقنصل، وقنصل سابق، وجنرال منتصر، لكن أيضاً حبر كبير، أي زعيم الديانة.

- أدعوك إلى الاحتفال الذي سيعقد في معبد سيرابيس الكبير، أعلنت كليوباترا.

مئة درجة كانت توصل إلى المعبد الذي شُيد على تلٍّ يطل على حي الراكوتيس، اسم قرية مصرية قديمة؛ ساحة واسعة تسبق المبنى ذي السقف المغطى بالذهب. تحت حماية رواق ذي أعمدة، ومكتبة تضم الآلاف من المؤلفات.

اجتازت كليوباترا وقيصر عتبة المعبد ذي الأسوار المزينة بلوحات الذهب والفضة والبرونز؛ قادماً من نافذة من ناحية الشرق، كان الضوء يضيء فمَ التمثال العملاق لسيرابيس، عجوز ملتحٍ وذو شعر كثيف، يعتلي عرشاً ويحمل صولجاناً؛ بالقرب منه سيربيوروس، كلب الجحيم. متوج ببوشل(*) مزين بسنابل القمح

(*) البوشل: أداة قياس تستعمل غالباً في الزراعة لقياس أوزان السلع الجافة (القمح مثلاً) فقط.

وأغصان الزيتون، كان للإله عينين تتكونان من الأحجار الثمينة التي تلمع في الظلام.

- ظهر سيرابيس في الحلم لأول البطالمة، كشفت كليوباترا؛ وطلب من الملك أن يمنحه مقراً في الإسكندرية. في شخصه يجتمع إله القيامة القديم، وأوزوريس، والثور أبيس، رمز القوة الحيوية. بتخصيبه الأرض، يتّحد سيرابيس بإيزيس، ملكة الأسرار الكبيرة، ويحمي الزوج الملكي.

ظهر كهنة طاهرون، يرتدون الكتان الأبيض، في موكب، واحتلوا أماكنهم حول التمثال؛ اقترب منهم قيصر وكليوباترا.

- هل تقبل ممارسة هذا الطقس؟ سألته بصوت خافت.

- هل هو خطير؟

- سيرابيس يقوم بتخصيب الأرض، ذكّرته الملكة، متأثرة؛ وأخشى أن. . .

- فلندع الإله يتصرف، قرر قيصر.

خرج كبير الكهنة من الظلال، يحمل في إحدى يديه إناء يحتوي على الماء المقدس وفي الأخرى مبخرة ينبع منها اللهب.

حبست كليوباترا صرخة تعجّب عندما تعرفت على هرمس؛ سعيدة باصطحابها عشيقها إلى المعبد وجعله يقوم بخطوة حاسمة، أحست أكثر بأهمية اللحظة.

معتاداً على مواجهة نظرات الرجال أصحاب الشخصية القوية، كان قيصر معجباً بنظرة الكاهن الطويل وأحس أنه غير قادر على السيطرة عليه.

بشكلٍ غريزي، ركعت الملكة والإمبراتور.

سكب هرمس الماء المطهّر على جبينيهما ومرر اللهب الخلّاق

أمام وجهيهما؛ مستعملاً عنصرين أساسيين هما اللذان كانا قد مكّنا الآلهة من تشكيل الكون، أثار روح العشيقين إلى حقائق غير مرئية.

من ساحة المعبد، تأمل قيصر وكليوباترا، لفترة طويلة، الإسكندرية والمرفأ والمنارة؛ كانت شمس الخريف تغمر المدينة بضوء دافئ، وزرقة البحر تلتحم بزرقة السماء لتشكل لوحة رائعة، كما أن لا شيء يستطيع تعكير صفو ذلك اليوم المثالي.

كانت كليوباترا تمنح قيصر عالماً لم يكن يتصوره، عالم حب، وعاصمة ذات ثروات مدهشة، وشرق هو مصدر ازدهار؛ العيش هنا كان مثيراً، أفق جديد يتراءى. وأية سعادة في التردد على المتحف والمكتبة، والاستماع إلى الفلاسفة والعلماء، والغوص في نصوص تنقل حكمة القدماء!

مستبعداً الشكليات الاجتماعية، كان قيصر يتناول عشاءه مع كليوباترا التي كان كلامها يسحره؛ مستمتعاً بسعة اطّلاعها وحسّ الفكاهة لديها، كان يتمنى أن يوقف الزمن ويستمتع إلى الأبد بمعجزة هذا الاتحاد. هل كانت أيامه السعيدة في الإسكندرية تتويجاً للصراعات القاسية التي عاشها، هل كانت كليوباترا هي قدره الحقيقي؟

كان قيصر يتساءل، والملكة تجيبه بحماس مشاعرها؛ سجين رغباته ومتعه، لم يكن يشعر برغبة في الهرب وكان يقنع نفسه بأنه وصل أخيراً إلى أرض أحلامه.

كانت كليوباترا تذكر العصر الذهبي لمدرسة الإسكندرية، قرن[1] عالم الرياضيات إقليدس، والنّحات أبلس والشاعر

---

(1) القرن الثالث قبل الميلاد.

كاليماخوس، عندما تجرأت الخادمة شارميان وهي تشعر بالحرج على إزعاج العشيقين.

- يطلبك أحد الضباط.

- اسمه؟ سألها قيصر.

- روفين. ويدّعي أن الأمر خطير.

لم يكن ملازم الإمبراتور مولعاً بالمزاح؛ لا بدَّ أن هذا التدخل كان له ما يبرره.

- فليأتِ.

46

غير قادر على التحكم بمشاعره، كان روفين يشجب.

- أمر لا يطاق! إنهم يسخرون منا، لا يمكن للوضع أن يستمر. فوتان، ذلك الثعبان. . .

- ما الإثم الذي ارتكبه؟ سأله قيصر.

- قدَّم لجنودنا قمحاً قديماً متعفناً، وجِعَة غير صالحة للشرب! هذا يسبب تصدعات في صفوفنا؛ ورجالنا مندهشون من كوننا لا نتدخل.

- طمئنهم، روفين؛ سأسوي هذا المشكل من الغد.

في تلك الليلة، لم ينم قيصر سوى قليلاً؛ استعملت كليوباترا كل وسائل الإغواء كي تحتفظ به بالقرب منها وتمنعه من إيقاظ الخصي. الساعات القادمة كانت تبدو صعبة، أخذته إلى زوبعة من المسرات.

*

كان فوتان ينتظر استدعاء قيصر، لكن ليس في المكان الذي اختاره: قصر كليوباترا على جزيرة أنتيروديوس، بجانب معبد إيزيس. كان المنظر ساحراً؛ في البعيد البحر يلمع.

كفّاه مشبكتان وراء ظهره، يسكنه غضب بارد، لم يزعج الإمبراطور نفسه بعبارات التحية.

- ماذا يعني هذا، فوتان؟

- عن ماذا تريد أن تتحدث؟

- عن الأطعمة الفاسدة التي قدِّمت لجنودي.

- أقدم لهم المخزونات المتاحة، وجحودكم يشعرني بالاشمئزاز؛ ألا ينبغي للرومان أن يظهروا راضين لأنهم يتغذون على حساب الآخرين؟

- أنا لا أستسيغ سخريتك!

أصبحت لهجة الخصي سلسة.

- السكندريون يشكرونك لأنك تفاديت صراعاً دموياً بإصلاحك بين بطليموس وكليوباترا؛ لكن استمرار وجودكم يمكن أن يسبب انقساماً، والحكمة تقتضي، في ما يخصكم، أن تعودوا إلى روما. وستقوم إداراتنا المعنية بعقد معاهدات تجارية، وسيعم التفاهم التام بيننا. هدأت الرياح الشمالية، لم يعد السفر يعدُّ مخاطرة.

صمتُ قيصر الوجيز جعل فوتان يتوقع جواباً معقولاً؛ كانت حججه وازنة، ولم يكن هذا الجنرال يفكر سوى في مساره المهني. الفاصلة كليوباترا، رغم روعتها، يجب أنْ تنتهي.

- مرة أخرى، رجل الحاشية الحقير، تجرؤ على أن تملي علي سلوكي! ليس في نيتي مغادرة الإسكندرية حيث بقي الكثير لأكتشفه، والمحاوران الوحيدان هما الملك بطليموس والملكة كليوباترا. أنت، اجمع بسرعة العشرة ملايين ديناري التي تدين بها لروما، واطعم جنودي بشكلٍ سليم؛ وإلا طالبت برأسك وسأحصل عليه.

مصفرّ الوجه، كان فوتان نصف ميت من الخوف وكان سعيداً لخروجه سالماً من ذلك القصر المشؤوم.

*

خلال عدة ساعات، لم يزل غضب الخصي، وتحمّل خدمه مزاجه السيئ ونزواته؛ أتاح له مجيء المؤدِّب ثيودوتوس أن يحكي بالتفصيل الإذلال الذي تعرض له على يد الروماني الوحشي.

- ذلك القاتل هددني، أنا، فوتان! يريد أن يقطع عنقي، ويستحوذ على الإسكندرية، وأن يعزل بطليموس ويضع المومس على العرش! أن ندفع المال الذي يطالب به لن يفيد بشيء؛ اليوم، أنا أفهم جيداً ما يريده!

- تشاركني الرأي ورأي ملكنا: يجب أن نتخلص من قيصر وكليوباترا. هل تعلم أنهما ذهبا إلى معبد سيباريس وأنه تمّت إنارتهما بالماء والنار، مثل زوج ملكي؟

- هذا كثير، فلنتصرف بسرعة!

- فلنستعمل الوسائل القديمة، قرر ثيودوتوس؛ رغم حذره، سيسقط هذا الروماني.

*

إيزيس، التي تحمل أسرار البعث والعبارات السحرية؛ إيزيس، والدة حورس، التجسُّد البشري للصقر السماوي وراعي الملكية. بتبجيل الإلهة في معبدها الصغير على جزيرة أنتيروديوس، كانت كليوباترا تحس أنها تعود القهقري عبر الزمن وتتّحد مع روح الإلهة الكبيرة، التي كان اسمها في الهيروغليفية يكتب على شكل عرش. هي كانت دليلها وملهمتها، التي تفرض عليها تخطّي عراقيل اليونان والإسكندرية كي تجد أصول مصر الفرعونية وأن تجعل شجرة الحياة تزهر.

أن تحب قيصر، وأن يحبها هو... تلك المعجزة لم تكن كافية بالنسبة إلى الملكة الشابة. بمنحها هذه السعادة غير المتوقعة، ألم

تكن إيزيس تحثها على القيام بوظيفتها بشكلٍ كامل بحيث تحكم مصر كلها وليس فقط الإسكندرية؟ بتوقفها على أن تكون أجنبية، كانت كليوباترا تلتحق بالسلالات الحاكمة بتلقيها إرث الفراعنة وقيامها بتمديده.

- إذا كانت تلك رغبتك، قال صوت هرمس القوي؛ لا تخفيها عن قيصر واقنعيه بأن يساعدك على تحقيق حلمك.

كانت قامة الساحر المديدة تملأ المعبد الصغير.

- هدفك الكبير لن يتحقق في الإسكندرية، أكّد لها؛ بعيداً من هنا، في الجنوب، في دندرة، يقوم البُناة بتشييد معبد فسيح مكرَّس للإلهتين حتحور وإيزيس. سيكون واحداً من أروع معابد البلد، وهناك ستعيشين الأسرار الكبرى، شرط ألا تنسي نداء إيزيس، حتى خلال الفترات العصيبة.

بسط هرمس كفه اليمنى؛ كانت تحتوي على حجر أسود ينشر توهجاً برتقالياً.

- عندما يجمع المتمسكون بالطقوس الأجزاء المتفرقة من جسد أوزوريس ويعيدون ترميمه، يصوغون هذا الحجر الإلهي الذي تستعمله إيزيس من أجل أن تعيد نَفَس الحياة لزوجها الراحل؛ في كل سنة، خلال الاحتفال، يموت الحجر ويبعث من جديد. هذا آخر حجر، كليوباترا؛ لا تفترقي عنه واستعمليه عن بصيرة.

- نورني أكثر! كيف...

- الحكم يعني معرفة مواجهة نوائب الدهر؛ عندما سيتطلب الأمر، اثبتي معدنك.

قدَّم هرمس الحجر لكليوباترا وخرج من المعبد.

47

كانت الملكة تنام وقيصر يتأملها؛ كانت الليالي بنفس جمال الأيام، ولم يكن الشغف الذي يشعر به تجاه كليوباترا يتوقف عن التجدد. بالإضافة إلى مواهبها كعاشقة، كان لها سحر حديث يتجدد على الدوام، أحياناً سطحية، وأحياناً عميقة؛ ملتهبة ولطيفة، متحمسة وحساسة، تلك المرأة كانت كائناً استثنائياً يصعب على قيصر أن يسبر جميع أغواره.

فتحت عينيها، تشابكت نظراتهما.

- أدين لك بالحقيقة، همست.

- ماذا أخفيت عني؟

- الأساسي.

محتاراً، جلس قيصر على طرف السرير وأمسك يديها بلطف.

- هل تتآمرين ضدّ روما؟

- أحبك يوليوس قيصر، وأحب بلدي الذي لا يقتصر فقط على الإسكندرية. انفتح طريق يقود إلى مصر الفراعنة، الحاضرة في أعماق روحي؛ مصر تلك، أرغب في أن أحييها وأعيد لها عظمتها الماضية.

- هذه الإمبراطورية اختفت، عصرها الذهبي ولّى.

- الإسكندرية خدعة؛ لأول مرة تكون عاصمة مصر مرفأ، لأن الإغريق اختاروا أن يكونوا على هامش الدولة الحقيقية، بين بحر وبحيرة، ناسين الماضي المجيد للأرضين، مصر العليا والسفلى! وهذا الماضي لم يمت؛ بالعكس، هو يحيا على شكل معابد ضخمة حيث يستمر تدريس فكر القدامى ويتم نقله.

- أتحلمين بأن تكوني... فرعوناً؟

- شغلت نساء تلك الوظيفة العليا، وبقيت تلك المؤسسة سارية؛ حتى الإسكندر الأكبر اضطر إلى تتويج نفسه فرعوناً من أجل أن يعترف به الشعب المصري! احترم خلفاؤه التقليد، لكنهم أخطئوا بعزل أنفسهم في قصورهم وعقليتهم الإغريقية. أنت، خرجت من حدود بلدك وجلت العالم؛ غداً، سترفع روما إلى صفوف الإمبراطوريات وتستطيع أن تفهم طموحاتي التي لن تتعارض مع طموحاتك.

كانت كلمة كليوباترا كلمة رئيس دولة، وقيصر لم يستخف بها. بالتأكيد، هذه الرؤية لم يكن لها أدنى فرصة كي تتجسد؛ لكن الملكة تخصّص لها طاقتها وقدراتها، وستحاول أن تضفي عليها قدراً من الواقعية. مصر مرتبطة بروحانيتها وتقاليدها، مصر قوية وفخورة بهيبتها... لم يكن لقيصر ما يخشاه من هكذا شريك. المرأة التي يحبها ستحكم الأرضين، مصر العليا والسفلى، بنية إعادة ازدهارها، والثروات المنتجة ستصدّر، في غالبيتها، إلى روما؛ حليفتين، مصر وروما ستسيطران على الشرق والغرب.

قلقة، انتظرت الملكة حكم **الإمبراطور**؛ من دون دعمه سيظل حلمها حرفاً ميتاً.

- عندي أهداف كبيرة من أجل روما، وأنت من أجل مصر، ونحب أحدنا الآخر كما يحب كل منا بلده؛ امرأة نظرتها قصيرة وأفكارها ضيقة كانت ستشكل خيبة أمل. وأنت تطمحين إلى قلب مسار الوقت بإعادة بناء الأرضين، مصر العليا والسفلى، على صورة أجدادك! هذا مستحيل، كليوباترا، لكن وحده المستحيل يهمني، ولم أتوقف عن مواجهته؛ كوني على مستوى الكمال، وسنبقى متحدين إلى الأبد.

فلنشكر إيزيس، عانقت المرأة الشابة عشيقها؛ قريباً سيذهبان إلى دندرة، من أجل تمجيد الإلهة الكبيرة والتشبّع من قوتها.

*

مبتهجاً لكونه يجوب شوارع وأزقة الإسكندرية، كان ريح الشمال يقوم بمهمته كساعٍ بشكلٍ كامل، ناقلاً بريد الملكة الخاص إلى من يهمهم الأمر؛ حِرفيون وتجار كانوا يتلقون الطلبات ويسارعون بتلبيتها، آخر طلب كان عند أفضل صانع عطور في العاصمة، والذي كان يحتفظ لزبونته المهمة بعطر لا يضاهى يستخلص من الياسمين. كان الحمار يحمل أيضاً لليهودي أنتيباتر، الموالي لقيصر، تقارير موجزة يخبره فيها عن وضعية القصر. بعد أن مدد الإمبراتور فترة إقامته وأصبحت علاقته مع كليوباترا علنية، أصبحوا يخشون ردود فعل من عشيرة بطليموس. هذه الأحداث كانت تدعم رأي أنتيباتر وطائفته: روما كانت مدعوة لتلعب دوراً حاسماً من أجل مستقبل الإسكندرية اللامعة، ومعارضة قيصر كانت لتكون خطأً فادحاً.

أما بالنسبة إلى العجوز، فقد كان يقوم بمهمته على أتم وجه، الشيء الذي كان يسعد الحاجب أبولودور؛ كانت اللحوم والخضر

والفواكه منتقاة بحيث ينعم قيصر وكليوباترا، واستكشف العجوز قبو القصر متذوقاً كل أمفورة، موفراً بهذه الطريقة أفضل الخمور لقيصر وكليوباترا.

ذلك الصباح، بعد انطلاق ريح الشمال، استقبل ممونين، وبعد فحص دقيق، حدد مواد وجبة الغداء التي سيحضرها طبّاخ الملكة: فيليه سمك الفرخ، ولحم ساق الضأن، وفول بالكمون، وجبن طري، وعنب، وحلوى بالتفاح. وجبة خفيفة، يجب إرفاقها بنبيذ أبيض حديث وبارد، ثم بأحمر قوي مستخرج من الكروم الملكية للدلتا.

عند مدخل القبو، غريبان؛ جبين منخفض، حليقان بشكلٍ سيئ، لم يكونا من ضمن خدم الملكة.

- من أنتما وماذا تفعلان هنا؟

أخرج الرجلان سكيناً وطعنا الرجل في بطنه.

- معك مفاتيح القبو؟

- أجل، لكن...

- افتح الباب، وإلا قتلناك!

مضطراً لتنفيذ الأمر، استعمل العجوز مفتاحين كبيرين من الحديد؛ دفعه الغريبان في الدرج.

- نبيذ قيصر من أجل الغداء، أمر أحدهما.

حدد العجوز جرتين؛ بمجرد أن أنهى حركته هشَّم السارق الثاني عنقه بضربة من هراوته. انهارت الضحية، من دون وعي.

- هل أخلِّص عليه بالسكين؟ سأله رفيقه.

- لا داعي لأن تتعب نفسك، لقد مات.

صعد الرجلان الدرج، أغلقا باب القبو بالمفتاح وسلما الجرتين لمساعد كبير الطهاة، شريكهما. كان الثلاثة قد تلقوا مبلغاً مهماً، وعندما سيجدون جثة العجوز، سيكون الوضع قد تغيّر بشكلٍ راديكالي، مفسحاً مرة أخرى المكان لفوتان وعشيرته.

48

في نهاية صباح أمضاه رفقة كليوباترا في قراءة تاريخ السلالات التي حكمت مصر القديمة، والتي حررها الكاهن مانيتو، أحس قيصر بالجوع والعطش. قدَّم له الساقي كأساً من النبيذ الأبيض البارد تجرّعه برشفات صغيرة.

كانت كليوباترا تحس بفرح جديد، فرح الأمل؛ من الآن فصاعداً، لم تعد أحلامها الأكثر حمقاً سراباً. خبرة وعبقرية الإمبراطور كانا ميزتين مهمتين، وكان الثنائي الذي يكونانه يزداد صلابة ويفرض نفسه على شعبيهما. كانت الملكة حريصة على أن تذهب إلى دندرة وأن تحصل على مرهم إيزيس؛ حينئذٍ فقط، سيبدأ حكمها.

وضع قيصر يده على جبهته.

- صداع مفاجئ... قطع شهيتي. تألَّقت حبّات من العرق في منابت شعره، اعترى وجهه شحوب مقلق وتباطأ تنفسه.

لم تستغرق كليوباترا وقتاً طويلاً كي تفهم؛ في السابق، كان بلاط البطالمة يستعمل السم بسهولة. ركضت إلى غرفة الماء، فتحت الصندوق الذي يضم خجر هرمس الأسود وعادت بالقرب من قيصر الذي كان قد بدأ يخفت، وعيناه في الفراغ.

اعتمدت على غريزتها، مررت الحجر ببطء على شفتيه اللتين غادرهما الدم؛ لم يجعلها انعدام ردّ الفعل تشعر باليأس، تابعت مصممة. عندما ظهر أثر للاحمرار، عرفت أن مثابرتها ستنقذ عشيقها.

عاد تنفس قيصر إلى الطبيعي شيئاً فشيئاً، اختفى العرق، توقفت نظرته عن الزوغان؛ وقف منهوكاً.

- هذا الألم، هذا الألم الرهيب... أخذ يتوقف. وأنت، أنت... لم تتركيني.

*

- تسميم قيصر؟ اندهش بطليموس؛ شقيقتي العزيزة، من كان أحمقاً ليرتكب جريمة كهذه؟

- المحيطون بك، شقيقي العزيز؛ ألا يكرهون الإمبراطور؟ ولا أجرؤ على تصور أنك أعطيت الأمر بقتل مبعوث روما ومنفّذ وصية والدنا.

- أنت تهذين! لدي مأخذ واحد آخذه عليه: لماذا لا يغادر الإسكندرية؟

- لأنه يحبني وأنا أحبه.

- علاقة عابرة ومن دون مستقبل! أقنعي هذا الروماني بمغادرة الإسكندرية، وسنعيش بسلام.

- من حاول تسميم قيصر؟

- أجهل ذلك، شقيقتي العزيزة!

- فوتان يعرف من.

صرّ الملك أسنانه.

- هل تشكّين في رئيس حكومتي؟

- حكومتنا، شقيقي العزيز؛ من واجب فوتان التعرف وبأسرع وقت على الجاني، وإلا أشعل غضب قيصر.

ظل ريح الشمال جاثماً أمام سرير العجوز، الذي كانت رقبته مضمّدة، وكان يلحس يديه كي يمرر له قُوته. بعد أن تلقّى العلاج من طرف أفضل متخصصي المتحف، نجا الجريح من الموت؛ بمجرد أن فتح عينيه طلب جرعة من النبيذ القوي وقدَّم وصفاً دقيقاً للمعتدين.

لم يدم بحث فوتان سوى يوم واحد. قدَّم لقيصر، الذي تعافى تماماً، جثث المجرمين وشريكهما، مساعد طباخ كليوباترا التي برِئ ساقيها. تقاتل المجرمون فيما بينهم، ولا شيء يسمح بافتراض ارتباطهما بمحرِّض؛ تحركهم مشاعر عداء ضدّ روما، كان الثلاثة قد كفّروا عن جريمتهم، وأغلقت القضية.

لم ينخدع الخصي بصمت قيصر وكليوباترا؛ لم يكن أي منهما يصدِّق ذلك الإخراج، واثقين من أنه مخطط المؤامرة المحبَطة. بين ذلك الثنائي المستحيل وبطليموس، لم يكن الهدوء سوى واجهة، وكان فوتان في وسط الصراع.

- فشل أولئك الأوغاد، قال ثيودوتوس الذي كان قد زودهم بالسم؛ سيتخذ قيصر الكثير من الحيطة ولن نستطيع الوصول إليه.

- أنت مخطِئ، عارضه فوتان؛ سنقوم بتشويه سمعته وسنثير ضده كراهية السكان.

*

لم يصدِّق مأمور مَذخر المعبد سيرابيس أذنيه؛ موظفو وزارة المالية يريدون رأسه!

- أن أقدم لكم مزهريات الذهب والفضة؟ هذه مزحة ثقيلة!
- أوامر قيصر. هو يصادر ثروات معابدنا.
- لا يحكمنا روماني، بحسب علمي!
- ملكانا مضطران إلى الخضوع لرغباته. لا جدوى من النقاش.
- وإذا رفضت؟
- ستتم محاكمتك، وسيقوم رجال الفيالق بنهب المعبد؛ الحل الأمثل يكمن في الطاعة.

بروح ميتة، فتح المأمور باب المذخر للموظفين الذين قاموا بملء أكياسهم بالأدوات الطقوسية.

بعد أن أنهى مهمته، اتصل بزملائه المكلفين بتسيير ممتلكات معابد إيزيس، وكرونوس، وبوسدون، وبان، والآلهة الأخرى الموجودة في الإسكندرية.

في كل مكان، الإثبات نفسه: الجنرال الروماني ينهب كنوز معابد العاصمة، كي يثري روما! بتصرفه مثل سارق، أصبح مدنساً وعدواً للآلهة الإغريقية. قام الكهنة باجتماع طارئ، وأدانوا تصرف ذلك الأجنبي.

توجه وفد إلى القصر، مطالباً بأن يستمع إليه؛ استقبل فوتان وفد السلطات الدينية للمدينة ومنحهم أذناً صاغية. بما أنهم كانوا يحثونه على التدخل، لم يخفِ اضطرابه واعترف لهم بالحقيقة: بعد أن أصبح عشيقاً لكليوباترا، يهيئ قيصر لعزل بطليموس، ولن يتأخر في وضع عشيقته على العرش، بإعلان قوتها. حينئذٍ، ستستعمل كليوباترا، حليفة روما، سطوتها، وستقضي على الكهنة وكبار الشخصيات السابقة، وتضع مكانها مرتزقة وتطلب فدية من الأثرياء. سجين رجال الفيالق، كان بطليموس مكبل اليدين.

الحل الوحيد: انتفاضة شعبية، باتفاق مع مجلس الأوصياء وإعلان الحرب.

وهم مستاؤون، وافق الكهنة على تلك الاستراتيجية ووعدوا بنشر التعليمات.

49

تبنّى بطليموس الصغير هيئة وقورة وتفحّص مستشاريه بغطرسة.

- يشاع أن قيصر نهب كنوز معابد الإسكندرية؛ هل الشائعة مؤكدة؟

- أجل، مع الأسف، أجاب ثيودوتوس مذعوراً؛ والكهنة مذعورون.

- استقبلتهم، أضاف فوتان؛ وحاولت عبثاً التخفيف من غضبهم.

- هذه الانتهاكات شتائم لا تطاق لجلالتنا! اعتبر الملك؛ هل تفهمان أن علينا طرد هذا الروماني؟

- أنت محق، اعترف الخصي، لكنه يرفض مغادرة المدينة، لشدة ارتباطه بشقيقتك. في رأيي، هذا الثنائي الشيطاني قرر الانقلاب عليك والاستحواذ على السلطة؛ حياتك في خطر، صاحب الجلالة.

- في هذه الحالة، فلنتصرف!

- لم يعد من حاجة إلى الدبلوماسية، لن يتراجع قيصر وكليوباترا؛ لذا يبدو التدخل العسكري أمراً ضرورياً.

- بدا الشاب متضايقاً.

- الحرب ضدّ روما. . .

- روما بعيدة، حدد ثيودوتوس؛ يتعلق الأمر بحرب ضدّ قيصر، في الإسكندرية، على أرضنا، حتى إمبراتور سيكون عاجزاً على الانتصار علينا، لأن تفوقنا ساحق. سنخنق هذا الغازي ثم نقطع رأسه، كما فعلنا ببومبي. ستختار روما رئيساً جديداً وستنسى مصر.

- لا يتوفر قيصر سوى على عدد قليل من البواخر ورجال الفيالق، ذكره فوتان؛ هجوم الجنرال أخيلاس وثورة الشعب ستطغى عليه.

رفع الملك الصغير رأسه.

- أنا، بطليموس، قاهر قيصر العظيم! أي انتصار رائع. . . سأدوس على جثته وسأقتل كليوباترا بيدي!

- ستتغنى العصور المقبلة بمجدك، أكّد ثيودوتوس؛ وسيحتفي الشعراء بإنجازاتك.

أحس الملك بفرحٍ متوحش لهذه الفكرة؛ أخيراً، سيتجاوز كليوباترا!

*

كان فوتان وزيراً دقيقاً ولم يكن من عادته التعهد بشيء بلا تروٍّ؛ تدمير قيصر كان يستلزم حدّاً أدنى من الاحتياطات. لا يجب أن يقوم سوى بضربة أكيدة، تحقق انتصاره على الخصم من الهجوم الأول؛ لكن، كانت هناك مشكلة عويصة. كونه استراتيجياً يمتاز بالدهاء، كان الإمبراتور بالضرورة واعياً بضعف قواته فقام إذن بطلب تعزيزات؛ هذه الأخيرة ستتفادى مرفأ الإسكندرية، الذي يسهل إغلاقه، وستمر عبر بيلوز حيث ينتظر الجنرال أخيلاس الأوامر. افتراضاً أن فوجاً كان في الطريق، سيعترضه ويسد عليه طريق

الإسكندرية؛ لذا على الجنرال أخيلاس أن يقسم قواته ويترك في بيلوز حامية كافية.

هذه الضرورة تفترض هجوماً يأتي من داخل العاصمة، وهذا لم يكن سهلاً تنظيمه؛ أعدّ فوتان بمساعدة ثيودوتوس خطة لا تشوبها شائبة. سيكون الكهنة عملاء اتصال، ولن يلحظ رجال الفيالق المقيمين في حي البروكيون شيئاً.

ستقدِّم قوات الأمن أسلحة لعبيد الأرستقراطيين الإغريق وستعدهم، بحالة النصر، بتعويض مهم؛ مرتبطين بأسيادهم، ستكون تلك الكائنات سعيدة بمحاربة الرومان وإثبات بسالتها. إلى حين إعلان الحرب، ستتم تغذيتها بشكلٍ أفضل من المعتاد وستعفى من بعض المهام. سيخمد جنود قيصر هذه الفتنة، لكنها ستتسبب لهم في عدة خسائر وستضعف الإمبراطور بخاصة.

سيشكل فوتان عدة أفواج من قدماء المحاربين، ستتجمع في أماكن استراتيجية من العاصمة؛ جنود مدربين، سيعرفون كيف يخوضوا حرب شوارع ضدّ الرومانيين الذين لا يعرفون المدينة بشكلٍ جيد وليسوا معتادين على هذا النوع من المواجهة. سيكون على قدماء المحاربين غلق الشوارع والأزقة بتشكيل أسوار، بحيث يمنعوا انسحاب جموع رجال الفيالق الذين سيتم اصطيادهم؛ سيستعملون آليات راجمة بدأنا نخرجها من الترسانة بسرية تامة. بالإضافة إلى أبراج ذات عجلات تجرها الخيول؛ مخصَّصة للرماة، ستمكنهم من القضاء على عدد مهم من رجال الفيالق.

راضٍ عن تلك الآلية الحربية التي لن يستطيع قيصر، رغم مهارته، مواجهتها، عرضها الخصي على بطليموس، الذي كان فخوراً بالموافقة عليها.

- بقيت نقطة أساسية، صاحب الجلالة.

- ما هي، فوتان؟

- على الملك أن يعطي الأمر للجنرال أخيلاس بالتقدم نحو الإسكندرية مع جزء من قواته؛ حضّرت الرسالة، ينقصها ختمك.

حرص الشاب على قراءة الوثيقة.

- ممتاز. . . أوافق على هذه الرسالة، وسأوقعها.

فجأة، تردد بطليموس.

هل أعددت آلية تضمن لنا نصراً تاماً ونهائياً؟

- أنا ضامنه، صاحب الجلالة؛ أخطأ قيصر بتمديد فترة مقامه في الإسكندرية، واختيار كليوباترا عشيقة له وتدبير مؤامرة تهدف إلى القضاء عليك وتسليم كامل السلطة لتلك الساحرة. يعتقد أننا انكسرنا، غير قادرين على التصرف؛ عندما ستضرب الصاعقة، سيلاحظ غروره وعماه.

أصبحت نظرة الملك قاسية.

- احتقروني، أنا، سليل الإسكندر الأكبر! لا يجب أن يعيش قيصر ولا كليوباترا.

- فلتطمئن، صاحب الجلالة.

وضع بطليموس ختمه؛ لفّ فوتان البردية، وربطها بخيط ووضع ختمه. هكذا لن يشك الجنرال أخيلاس بشرعية الرسالة التي ستغير مجرى التاريخ.

كانت حرب الإسكندرية قد بدأت، وكان قيصر يجهل ذلك.

50

كان أنتيباتر يمنّي نفسه بوجبة غداء فاخرة. بعد مناقشات طويلة وقاسية، كان رجل الأعمال اليهودي قد باع لنضير قبرصي حوالي مئة جرة مزينة من الطراز الأول، أطباقاً من فضة ومجموعة جواهر ستثير جنون الأنيقات. تلك الثروة الصغيرة ستمكنه من امتلاك مخزن جديد، قرب المرفأ الكبير، وتشغيل مستخدمين آخرين.

حضر ريح الشمال إلى مكتبه في الساعة المعتادة؛ من حقيبته الجلدية، أخرج أنتيباتر الرسالة التي كانت موجهة إليه. لا أحد غيره كان قادراً على القيام بتلك الحركة، وإلا تلقّى ركلة من الرمادي القوي.

كانت الرسالة من الحاجب أبولودور، يتحدث فيها عن محاولة الاغتيال التي تعرض لها قيصر الذي نجى في آخر لحظة.

- سيئ. هذا، دمدم الرجل؛ سيئ جداً.

أنذره أحد موظفيه.

- يحدث شيء مريب، أيها الرئيس؛ يجب أن ترى.

داعب أنتيباتر ريح الشمال.

- انتظرني هنا، ربما يكون عندي بريد لأعطيه إليك؛ اصبر وأنت تأكل أشياء لذيذة.

لم يزدرِ الحمار الخبز الهشّ المحشو بالتمر، بينما تبع التاجر دليله.

وقف جامداً.

- حذار أيها الرئيس، لا تظهر! البناية هناك، في مفترق الطرق... تمتلئ بأناس مسلحين. كأنها ثكنة جديدة!

ملاحظة خاطفة كانت كافية: الوافدون كانوا محاربين قدامى، تحت إمرة ضابط كبير.

- هذا ليس كل شيء، أضاف الموظف.

مغيراً الاتجاه، اصطحب أنتيباتر إلى تقاطع جادة وشارع، مزدحم في الغالب؛ عسكريون من الهندسة يشيّدون حائطاً سيقطع المرور عبره عما قريب.

- لم أرَ هذا من قبل أيها الرئيس... ماذا يهيئون لنا؟

- حرباً أهلية.

فقد رجل الأعمال شهيته. عاد إلى مكتبه، حرر تقريراً موجهاً لكليوباترا ودسّه في حقيبة ريح الشمال.

- مهمة عاجلة وخطيرة، حدد له؛ قد تعترضك عدة مخاطر قبل أن تصل إلى القصر، هل ستقدر عليها؟

رفع الحمار أذنه اليمنى وابتعد وهو يركض ببطء. إذا كانت ميليشيات فوتان قد عزلت قيصر وكليوباترا، فلم يعد من رسول أفضل؛ أنتيباتر، هو، سيتكلف بإبلاغ أعضاء طائفته وينظر في التدابير اللازمة.

*

كان الجنرال أخيلاس في مزاجٍ سيئ؛ الإفراط في النساء والشرب يتعبه، لم تكن قلة الحركة تناسبه. من أجل أن يهدأ، أخذ

يفتّش قلعة بيلوز، ينظِّم دورات مصارعة كان الغالب فيها دائماً، يمارس الرمي، ويجوب التحصينات وهو ينظر إلى البحر.

عندما أحضر له مساعده الميداني رسالة رسمية، تمنّى أن يتطور هذا الوضع الذي لا يطاق؛ عند قراءة النص، لم يخب رجاؤه! بطليموس، سجين قيصر وكليوباترا، يطلب تدخل أخيلاس، على أن يحتفظ في بيلوز بمجموعة قادرة على منع أية إمدادات من الوصول إلى الإمبراتور.

من الواضح، إنها الحرب! في لحظة، استرجع السمين ذو الرأس المربع والشعر الغزير طاقته ورغبته في القيام بمعركة. القيام بمذبحة للرومانيين وإظهار تفوقه كان يحفزه؛ أخطأ يوليوس قيصر بالتقليل من شأنه.

دون أدنى شك، كان غالبُ حرب بلاد الغال قد أوفد مبعوثين كي يطلب إمدادات لتدعم جيشه الصغير المتمركز في الإسكندرية. احتراز بلا جدوى، لأن البحرية المصرية ورجال أخيلاس الشجعان ستوقف في بيلوز المتدخلين المحتملين في آخر لحظة؛ لا شيء يؤكد، علاوة على ذلك، أن دعوته سيستجاب لها.

جمع الجنرال أركان جيشه وطلب رأي رفاق السلاح الرئيسيين، القلقين لفكرة محاربة قيصر؛ طمأنهم أخيلاس، وتمَّ الاتفاق حول الأعداد اللازمة: ألفان من الفرسان وعشرون ألفاً من المشاة. بعد أمسية من الشرب وليلة من الراحة، سينطلق الجيش ليحرر بطليموس ويهزم أعدائه.

- أصدقائي، هتف أخيلاس؛ فلنحتفل بانتصارنا المقبل، فلنُحضِر الشراب!

لم يعر الجنرال أي انتباه لحاملي جرار الجِعَة القوية المخصَّصة

للضباط؛ بينهم، أشقر جنّد قسراً في حين كان تابعاً لكليوباترا.
عندما سمع أخيلاس وأركان جيشه يتحدثون عن انطلاق الجيش الوشيك نحو الإسكندرية، فهم الشاب أن الحرب قد أعلنت وأن الملكة كانت في خطر كبير إذا فاجأها الهجوم.

بعد أن أنهى خدمته، جرَّ الأشقر رجليه وهو يذهب إلى مطبخ القلعة.

- لا تبدو بخير، لاحظ رئيسه.

- أعاني من الحمى... ضربة برد.

- اذهب للنوم؛ غداً ستكون بحال أفضل.

بدلاً من أن يذهب إلى مرقده، خرج الشاب من المبنى؛ على دراية بموضع الحراس، استغل الغروب كي ينزلق إلى الشاطئ الذي كانت تضربه الأمواج الغاضبة.

بحّار جيد، لم يكن يخشى رداءة الجو ولا غضب البحر، شريطة ألا يبتعد من الساحل ويتوفر على مركب متين؛ المكان الوحيد الذي يستطيع أن يعثر فيه على واحد: ورشة بناء السفن في بيلوز.

عند سقوط الليل، كان حارسان يحرسان المراكب في طور التصنيع. وكان الأشقر محظوظاً: مركب في حالة جيدة كان راسياً في العوامة. بحذر، راقب حواليه خشية جولة.

الظلام، الرياح... استغل الشاب هذين العنصرين، واعياً بمغامرة تصرّفه؛ في حالة العاصفة، لن يستطيع تفادي الغرق. مع ذلك، هاجس واحد يؤرقه: إعلام كليوباترا.

أن يصل إلى الموقع دون أن يراه أحد كان إشارة جيدة؛ بما أن

الآلهة تحميه، لم يكن الأشقر ليشك في نجاحه. لن يتعرض له وحوش الأعماق، وسينجح في الوصول إلى الإسكندرية وسيمنع الجنرال أخيلاس من ارتكاب جريمته.

والأمل متعلق بجسده، أمسك المجاديف.

51

برأس تلفها الضمادات، وهو يعاني من الصداع، استأنف العجوز عمله، يساعده حارس يقوم على حمايته. بعد استجواب عميق، بقي عمال المطبخ في مكانهم، بعد أن تمّت تبرئتهم، من الآن فصاعداً، سيتحقق ثلاثة متذوقين من سلامة الطعام والشراب.

- حمارك، أعلمه الحاجب أبولودور؛ تعال بسرعة!

وهو يحس بالقلق، تسلَّق العجوز السُلَّم متخطياً بعض الدرجات ووافى ريح الشمال الذي كان جانبه الأيسر يسيل دماً.

- لقد تمّت مهاجمته، لاحظ الصقلي؛ فلتبقَ هادئاً، سيعالجه بيطري القصر.

وهو يلهث، أفلت الرمادي من الموت. عندما قرأ في عينيه، فتح العجوز الحقيبة ووجد رسالة أنتيباتر.

- أوصلها إلى كليوباترا، قال العجوز؛ غامر ريح الشمال بحياته كي يوصلها إلينا.

*

من شرفة قصر كليوباترا، على جزيرة أنتيروديوس، كان قيصر يتأمل البحر، الطريق التي توصل إلى روما، وأسطوله المستريح. كان عليه الإبحار منذ مدة طويلة ونسيان هذا البلد. . . لكن كان

هناك كليوباترا، نظرتها إلى المستقبل، فكرها المفتوح أمام المستحيل، قوة سحرها. شدة الحب؟ لم يكن قيصر ينكرها؛ في الأفق تلوح إحياء إمبراطورية الفراعنة، مصدر الإلهام بالنسبة إلى روما المستقبلية.

إقامته في الإسكندرية ولقاؤه بالملكة الاستثنائية غيّر مصيره؛ في العديد من الأحيان، كان الإمبراطور يعرف أنه سيغير مجرى التاريخ وسيطبع إرادته على شعوب كانت عدائية في البداية ثم ستشعر بالعرفان. تلك المرأة كانت تسحره، ومن خلالها، ملايين السنوات من العظمة تحثه على تخطي ضآلته بتأسيس مملكته الخاصة.

ذلك الطموح كان يتضمن مخاطر مهمة، ومحاولة التسميم ستتبعها حتماً عدة محاولات أخرى للاعتداء؛ واعٍ بالخطر، لن يتراجع قيصر. عدم تجربة المغامرة سيكون جبناً.

عندما جاءت كليوباترا بالقرب منه وأمسكت ذراعه، أحس بقوة متجددة.

- هل تحلم بروما؟ سألته.

- بروما عظيمة أتمنى أن تولد.

تنحنح أبولودور، التفت الاثنان.

- رسالة مستعجلة من أجل الملكة.

قراءتها أحزنت الملكة.

- حليفنا، التاجر اليهودي أنتيباتر، جد قلق؛ تجتمع أفواج من قدامى المحاربين في مختلف أحياء الإسكندرية، والجنود يضعون آليات راجمة وبدؤوا يغلقون الشوارع.

قرأ قيصر بدوره ذلك التقرير المثير للقلق.

- يستعد بطليموس لمهاجمتي ويريد أن يستفيد من حرب شوارع لم يعتدها رجال فيالقي.

- هنالك، مركب يقترب! صاح الصقلي.

كان الرجل الوحيد على سطح المركب يجد صعوبة كبيرة ليقوم بالتجديف الأخير؛ ساعده جنديان من حرس قيصر على أن يرسو. بعد أن تغلَّب الأشقر على مخاطر البحر، لم يفلت من نبال سفينة حرب متمركزة في مدخل المرفأ. رغم إصابته الخطيرة، استطاع الشاب أن يتحدث إلى الرومانيين قبل أن يموت؛ وسارع أحد الجنديين بتوصيل ذلك الكلام إلى الإمبراتور.

- تلقى الجنرال أخيلاس الأمر بالسير نحو الإسكندرية، مرفوقاً بآلاف من الفرسان والمشاة.

الهجوم وشيك.

استدعى قيصر روفين وأخبره.

- كل رجالك مستعدون للقتال حتى الموت، أعلن الملازم القوي، لكن القتال يبدو غير متكافئ. من المستحيل، في آنٍ واحد، أن نهدئ المدينة وندفع جيشاً.

- أليس من خبر عن الإمدادات؟

- لا شيء.

- ما رأيك، روفين؟

- أنت القائد الأعلى، وسأمتثل لأوامرك.

- في رأيك!

- فلنبحر ما دام ذلك ممكناً ولنصل إلى عُرض البحر بأسرع ما يمكن.

- سيأمر بطليموس بإغلاق المرفأ، أعلنت كليوباترا.

- يمكننا أن ندفع السد؛ بالبقاء هنا نحكم على أنفسنا بالهلاك.

- هذه الحرب ليست حتمية، قدَّر قيصر؛ سأستعمل سلاحاً سرّياً.

- ما هو؟ اندهش روفين.

- بطليموس الثالث عشر.

*

- اخرجا، أمر قيصر الخصي فوتان والمؤدِّب ثيودوتوس؛ يجب أن نتحدث أنا والملك لوحدنا.

لم تكن النبرة تحتمل الردّ، خرج المستشاران؛ في غاية التوتر، أمسك الملك الصغير بمساند عرشه وحاول تفادي نظرة الروماني.

- الحرب الأهلية هي أسوأ المصائب، أعلن قيصر بنبرة هادئة، خالية من العداء؛ بهجومك على كليوباترا، أنت تهاجم روما وتشعل صراعاً جديداً، خطيراً إلى درجة أن مصر بأكملها ستعاني منه. تفوقك الاستراتيجي والعددي يضمن لك، كما يبدو، انتصاراً مدوياً؛ ألم تنسَ كفاءة رجال فيالقي وقرب وصول جيش إنقاذ؟ رأيت العديد من الرجال يموتون، ولم يعجبني ذلك المنظر أبداً؛ أنت، في مأمن في هذا القصر، وتتصور الأمر لعبة بسيطة. وهو ليس كذلك، صاحب الجلالة.

حرك الخطاب الملك الصغير، الذي أحس بالفخر لكونه يستشار بهذا الشكل.

- تجاوزت سن اللعب! احتجَّ منقسماً بين شعور طفل بالخوف أمام والده السلطوي والرغبة في أن يثبت نفسه.

- مئات الجثث ستتناثر في شوارع الإسكندرية، هل هذه فعلاً

هي رغبة الثالث عشر من ممثلي الأسرة البطلمية؟ مؤسِّسها الإسكندر الأكبر، كان قد أثبت السلم، وليس لدى روما أي رغبة في زعزعته.

- ماذا يقترح قيصر؟

- بما أنه إلى حد الآن لم يُقترف أي عمل لا يمكن علاجه، التفاوض سيكون هو الحل الأمثل. الشيء المستعجل هو إيقاف هجوم الجنرال أخيلاس.

- بأي طريقة؟

- إذا أوصل له مبعوثون من ملكه أمراً واضحاً، سيستجيب أخيلاس؛ بعد ذلك، سنبحث معاً اتفاقاً مرضياً.

- هل سيتضمن مغادرة جميع الرومانيين؟

- سنتناقش ذلك.

قام بطليموس.

- سأتبع نصيحتك، سنحاول تفادي المواجهة.

بمجرد أن غادر قيصر قاعة الاجتماعات حتى سارع فوتان وثيودوتوس بالدخول، يريدان معرفة مضمون الحديث.

- هل تجرأ الروماني على تهديدك؟ سأله الخصي.

- بدأ قيصر يحترمنا وهو يخشى هجوماً من أخيلاس؛ ترجّاني أن أمنعه.

- وبالطبع، أنت رفضت!

اتخذ الملك هيأة مترفعة.

- سنعيّن مبعوثَين مكلفين بالإفصاح عن رغباتنا لأخيلاس، دون أن ننسى تذكيره بأننا لا نزال نعاني من نير الطاغية الروماني.

ابتسم فوتان وثيودوتوس؛ رغم صغر سنه، لم يكن بطليموس ينقصه المكر.

- قوما باختيار شخصيتين تتمتعان بالمصداقية وقدماهما لكليوباترا.

انتاب الخصي الشك.

- هل تعتقد في الصلح، جلالتك؟

تكشيرة بطليموس جعلته يحس بالاطمئنان.

52

انحنى رجلا قانون، تكوّنا في المتحف وينتميان إلى بلاط البطالمة، أمام قيصر وكليوباترا، اللذان كان قد سبق لهما أن حضرا دروسهما. مؤثران وجديران بالاحترام، لم يكن الرجلان يؤيدان تحريض السياسيين ويفضِّلان التفرغ للتعليم. صديقان منذ فترة طويلة، كان ديسقوريدس وسرابيون يقضيان أغلبية اليوم في المكتبة، محاولين نسيان فواحش العالم الخارجي.

- فلنكن صريحين، قال ديسقوريدس لكليوباترا، الرجل الخمسيني المزدري؛ لم نوافق أنا وصديقي على إصلاحاتك وحاربناها. الكثير من السرعة وعدم الدقة... بعد إعادة التفكير، أنت لم تكوني مخطأة. عُملتنا سلاح حاسم، وقوتها تضمن ازدهارنا؛ لكن سنّ قوانين جديدة يستوجب احترام الشكليات.

وافق سرابيون، الذي كان شديد الشبه بديسقوريدس، بحركة من رأسه؛ شديد التمسك بالقواعد، كان يكره التصرفات المستعجلة التي تقوم بها الملكة، والتي لا تفضي إلى ممارسة صارمة للقانون.

- هل شرح لكما الملك مهمتكما؟ سألهما قيصر.

- نحن لا نحب تجاوز اختصاصاتنا، اعترف ديسقوريدس، لكن ملكنا يرغب في أن نوصل إلى الجنرال أخيلاس الأمر بإقامة

معسكره على مسافة معقولة من الإسكندرية. الحل الوحيد لتفادي حرب أهلية، كما يبدو؛ بحق الآلهة، العسكريون والأسلحة بغيضون! هذا رأيك، سرابيون؟

وافق المخاطب بنظرة مركزة.

- ومع ذلك، واصل ديسقوريدس؛ سنقوم بهذه المهمة من أجل منع اضطرابات بائسة. العنف لا يؤدي إلى شيء.

انسحب الدبلوماسيان.

- هل تعتقد في نجاح هذين الساذجين؟ سألت كليوباترا قيصر.

- لماذا سيعتدي أخيلاس على تعليمات ملكه؟ بعد أن يتوقف جيشه، سيكون لدينا متسع من الوقت كي ننظم دفاعنا.

تأملت كليوباترا عشيقها بقوة خاصة.

- أليس هذا ضرباً من الوهم؟ ملازمك، روفين، ربما كان على حق؛ غادر، انجُ بحياتك!

- أتركك وأهرب مثل جبان؟ سيدنِّس شرفي إلى الأبد وسيتحطم حلمك. هنا والآن سنبني المستقبل.

غارقة في الحب، استسلمت المرأة الشابة لرغبة الرجل الذي يمنحها الأمل مقابل شجاعة رعناء.

*

في ذلك اليوم الأخير من أكتوبر سنة (48-)، ساء الجو؛ هبطت درجة الحرارة، وأتت رياح غربية قوية بالسُّحُب. كانت العربة التي تنقل ديسقوريدس وسرابيون مجهّزة بالوسائد، لكن هذه الراحة المؤقتة لم تكن تبهج رجلي القانون اللذين كانا يكرهان الابتعاد من الإسكندرية. لم يكونا يحبان البادية، الطرق المتعرجة، والأسفار، ولو شديدة القصر؛ عالمهما، كان هو المتحف والمكتبة حيث يهيئان

نصوص قانون سيعرضانها على الحكومة. منذ القطيعة بين بطليموس وكليوباترا، ظلَّ العديد من المشاريع مجمّداً والعديد من الإصلاحات الضرورية تنتظر؛ على الأقل، هذا السفر القاسي سيؤدّي إلى التهدئة. ستستعيد العاصمة أخيراً وجهها المعتاد.

كانت عجلات العربة وحوافر الجياد تُحدِث ضجيجاً مزعجاً؛ كم يفتقد العالمان صمت قاعات المطالعة! المتعة القصوى كانت تتجلى في فرد بردية تتضمن معلومات قيّمة ببطء، قراءتها بتأنٍّ، ثم إعادتها إلى مكانها الصحيح. بعد أن تنتهي هذه المهمة، سيسارع ديسقوريدس وسرابيون بالعودة إلى الإسكندرية.

كان موكب حراستهما يتكوّن من حوالي عشرة فرسان مدرّبين يقودهم أحد المحاربين القدامى؛ ضمنهم، كان أحد الموالين لكليوباترا يجهل رئيسه آراءه. كانت الملكة قد كلّفته بتتبع مجرى المفاوضة وإعطاءها تقريراً مفصَّلاً.

- يا للرعب! قدَّر ديسقوريدس عندما رأى طليعة جيش أخيلاس؛ أكره المناورات العسكرية.

وافقه سرابيون.

توقف الفرسان والعربة فجأة، ارتطم رجلا القانون أحدهما بالآخر.

- لقد آذونا هؤلاء الحمقى! احتجَّ ديسقوريدس.

باعد رئيس الحرس بين ذراعيه ووضع رجليه على الأرض؛ كان رماة الجنرال مستعدين للرمي، مندهشين لالتقائهم بهذه المفرزة التي ربما تكون معادية.

- مهمة ملكية! صاح رئيس الحرس.

اقترب أحد الضباط يحيط به عساكر يقظون.

- أصطحِبُ سفيرين إلى الجنرال أخيلاس، أوضح الجندي المخضرم.

- ستعطيني أسلحتكم.

تحت أنظار الرجلين القانونيين القلقين، أطاع رجال الحرس الأوامر، ثم صعدت العربة وسط طابور من المشاة.

راكباً على فرسه، معتمراً خوذة، كان أخيلاس واقفاً وسط قواته.

- يا له من شخص وقح، همس سرابيون في أذن ديسقوريدس؛ أتساءل إن كان يعرف القراءة والكتابة.

- انزلا، أمرهما مساعد الجنرال الميداني.

متألّمان، استغرق السفيران بعض الوقت.

- من أنتما؟ سألهما أخيلاس.

- ديسقوريدس وسرابيون، مبعوثا جلالته بطليموس الثالث عشر؛ كلّفنا بتسليمك رسالة سرية وعاجلة.

- سمعت عنكما، اعترف الجنرال؛ بحسب ما يقال، أنتما أفضل رجلي قانون في البلاط.

غيّر قوله غير المتوقع رأي السفيرين المعاكس؛ ألا يخفي مظهر الجنرال الفظّ عقلاً نبيهاً.

- اتبعاني.

مشى ديسقوريدس وسرابيون بعيداً من الحصان؛ كانا يخافان من الحيوانات، وبالأخص من هذه الكائنات رباعية القوائم ذات الركلات غير المتوقعة. اصطحبهما الجنرال تحت ظل شجرة تين وطمأنهما بالقفز من مطيته.

- إذن، تلك الرسالة؟

- يرغب بطليموس في أن توقف تقدمك نحو الإسكندرية وأن تقيم معسكرك غير بعيد من المدينة.

ظنَّ أخيلاس أنه لم يفهم جيداً.

- هل هي مزحة؟

- وقف العداء سيُسهّل المفاوضات مع قيصر وكليوباترا.

- مفاوضات، كرر أخيلاس مشككاً؛ لم تعد مناسِبة.

- تلك رغبة الملك، ألحَّ سرابيون؛ وكل رعاياه الأوفياء يجب أن ينصاعوا لها.

- إرادة الملك... هل هذا أكيد؟

- لقد حدَّثنا، حدد ديسقوريدس؛ ونحن لا نشكك فيها!

- تحدث إليكما... بحرية؟

- بطريقة ما.

- كن واضحاً! أمره أخيلاس.

- ذكر بطليموس أنه تحت نير الطاغية الروماني و...

- هذه هي الحقيقة! قطع أخيلاس؛ كان المسكين مضطراً لترديد تعليمات قيصر الذي يريد أن يحتفظ بملكنا سجيناً، أن يؤخّر الهجوم ويشن هجوماً مضاداً.

مرتبكين، أحس السفيران بالضياع.

- أي سيد تخدمان؟ سألهما أخيلاس.

- بطليموس الثالث عشر! هتف القانونيان معاً.

- في رأيي، ستكون تلك الكلبة كليوباترا، خادمة قيصر.

- لا، لا، أنت مخطئ!

خرج سيف الجنرال من مغمده وقطع حلق ذيسقوريدس. نظر سيرابون برعب إلى صديقه يموت دون أن يقوم بأدنى حركة فرار.

بهدوء ودقة، خصَّص له الجنرال المصير نفسه.

بعد أن مسح سيفه على ثوب ديسقوريدس، صعد أخيلاس على فرسه والتحق بجيشه.

- إلى الطريق! سنحرر ملكنا وعاصمتنا.

53

كانت الرواية التي أوردها التاجر اليهودي مفصّلة بقدر ما كانت مرعبة، وكان كل تفصيل يقدمه يصيب قيصر وكليوباترا كأنه ضربة خنجر. عشرات الآليات الراجمة كانت قد وضعت في تقاطعات الطرق الرئيسية في الإسكندرية، محاربون قدامى وجنود أتوا من الأقاليم ينتشرون في المدينة، عبيد مسلحون يشكلون الصفوف الأولى، عدد من الطرق كان مغلقاً بواسطة أسوار مبنية بالأحجار. المدينة بأكملها تتحول إلى قلعة مليئة بالخصوم المستعدين لمحاربة الرومانيين.

بدل إيقاف نشر الآلية الحربية، كان بطليموس يسرّع من وتيرتها، مثبتاً رغبته في إعلان صراع واسع النطاق.

- الميناء لا يزال في المتناول، أضاف أنتيباتر؛ ويمكن لسفنك أن تخرج. سارعوا قبل أن تمنعكم البحرية المصرية من ذلك.

أدخل الحاجب أبولودور الفارس الذي كان ضمن حرس ديسقوريدس وسرابيون.

- قتل أخيلاس السفيرين بيده، صرَّح لهما؛ ابتداءً من الغد، سيصل جيشه إلى الإسكندرية.

- بطليموس الصغير أكثر مكراً مما كنت أتصور، لاحظ قيصر؛ بعث عمداً اثنين من كبار الشخصيات إلى الموت. وأخيلاس يعتقد أنه سجين روما ويريد تخليصه، ولو بثمن مذبحة.

هذه المرة، الاشتباك الدموي لا مفر منه والوضع واضح. كانت قوات قيصر تضم ثلاثة آلاف ومئتين من المشاة، وثمانمئة من الفرسان وأربع وثلاثين سفينة؛ في حين كانت قوات بطليموس تضم عشرين ألفاً من المشاة وألفين من فرسان أخيلاس، الاحتياطات في ثكنة بيلوز، والقوات في الإسكندرية.

كيفما كانت شجاعة وخبرة الرومانيين، معركة حضرية خاسرة مقدماً.

- فلنذهب مباشرة إلى الميناء، اقترح الصقلي؛ المنطقة آمنة، والطريق قصير. بالانطلاق عند الغروب، ستتفادى سفننا عملية من الخصم.

- أنا سأبقى في الإسكندرية، قررت كليوباترا؛ إذا هربت، سيستولي بطليموس على السلطة ولن أرى بلدي أبداً.

- صاحبة الجلالة، إنه انتحار! أتباعك ليسوا كثراً، سيندثرون في بضع ساعات، ولن يفلتك الملك!

- أنت تنسى جنودي، تدخّل قيصر.

كان الحاجب مندهشاً.

- أنت أيضاً ستبقى؟

- في مواجهة الشدائد، قاتلت دائماً، وفي نيتي الانتصار في هذه المواجهة الجديدة.

تغيّرت ملامح قيصر؛ تأمّل الحاجب أبولودور والتاجر أنتيباتر

بتأثر سحنة كاسر عيناه ملتهبتان وباردتان في آن؛ ترك الساحر ذو الكلمة الطيبة المكان للإمبراتور، سيّد الحرب. ذلك التحول طمأن كليوباترا التي تملكتها رغبة شرسة في القتال.

- يبدو الجنرال أخيلاس مقتنعاً بأننا نحتفظ بملكه الصغير سجيناً، ذكّرهم قيصر؛ طيب، فلنؤكد له ذلك!

*

في القصر الملكي، كانت الأجواء رائعة؛ كانت خطة فوتان وثيودوتوس، بمساعدة محميهما بطليموس الماكر، قد طُبِّقت من دون خطأ ومكّنتهم من انتصارٍ تام. قريباً، سيقتل قيصر وكليوباترا، ويثبت بطليموس الثالث عشر نفسه كاستراتيجي، هو فائز أشهر الجنرالات الرومانيين!

حريصة على الزواج من شقيقها وتتويجها ملكة بدل كليوباترا، لم تتوقف أرسينوي عن سؤال الخصي الوفي لها، جانيميد، من أجل الحصول على معلومات. انتفاضة العاصمة ضدّ الروماني وعشيقته يبشر بساعات رائعة وانتشار قوات أخيلاس سيكون مشهداً رائعاً!

فتح باب مكتب فوتان عنوة؛ ظهر قيصر وروفين وبعض رجال الفيالق.

نهض الخصي وثيودوتوس.

- ماذا يعني...

- أنتما تحت الإقامة الجبرية، أعلن قيصر؛ كل محاولة للهرب أو الاتصال بالعدو سيكون جزاؤها الموت. إلى إشعار آخر، أنا أمنحكما الحياة.

نظر الخصي والمؤدِّب وهما مصعوقان إلى الباب ينغلق، من

الآن فصاعداً هما تحت حراسة جنديين لن يترددا في قتل كل من يحاول الفرار.

بخطوات كبيرة، ذهب قيصر ورجاله إلى جناح بطليموس؛ متأكدين من أنهم لا يستطيعون شيئاً، ترك الحرّاس أسلحتهم وتمَّ توثيقهم.

كان الحلاق يمسِّد شعر المراهق؛ عندما رأى قيصر، أوقف عمله وانزوى في زاوية الغرفة.

فتح بطليموس عينين خائفتين.

- أظهر المناور الصغير الكثير من القسوة بالحكم على الدبلوماسيين، أعلن قيصر؛ التقيت العديد من الناس الضعاف، لكنك أنت تتجاوزهم.

تمرّد المتهم.

- لقد صرعتك، قيصر! شعبي وجنودي سيدوسون عليك!

- أنت سجيني، بطليموس، وهذا القصر أصبح حبسك؛ لا تعتقد أن انتصار أخيلاس المفترض، والذي لن يحصل، سينقذك.

- أنت، كي تنقذ نفسك، ستبدّلني مقابل حياتك! والآن، أنا كنزك الثمين.

أخرست نظرة الإمبراتور الشاب اليافع.

سُمِعت صرخات حادة؛ أحضر فيلقيان أرسينوي وهي هائجة، تصرخ بسباب لا يليق بأميرة.

جعل ظهور كليوباترا أختها تخرس من السخط؛ حاول بطليموس الاعتداء على الملكة، لكن ذراع قيصر أوقف حركته المندفعة.

- أنتما عدوا روما ومصر، اليوم أنتما لا تستطيعان إحداث الضرر.

- كليوباترا، توعّدها الملك الصغير، وهو يرتجف من الكراهية؛ سأمزّقك حية!

54

تحول جزء من القصر الملكي إلى سجن، والجزء الآخر أصبح المقر الرئيسي لقيصر؛ على طاولة كبيرة من الرخام نشرت خريطة للإسكندرية.

- هل تعي أنك قد تخسر صالح انتصاراتنا؟ سأله روفين.

- أليس هذا هو الحال قبل كل معركة؟ هذه قد تكون الأكثر صعوبة، أنا أعترف بذلك، لكنها ستكون مبهِجة.

نفخ ملازم الإمبراتور صدره.

- بطبيعة الحال، سوف ننتصر.

أشارت كليوباترا إلى مكانٍ محدد من الخارطة.

- لا يمكننا أن نمسك سوى حياً واحداً، البروكيون؛ القصر الملكي، والمتحف، والمكتبة يسهل الدفاع عنهم. وأفضل معقل لنا سيكون المسرح، من حيث يمكن أن نصل بسهولة إلى الميناء الشرقي والوِرَش البحرية.

- تحليل جيد، اعترف قيصر؛ يجب ألا نشتت قواتنا. بتمركزها في الموضع المحدد، سنضع أمام المعتدي خط دفاع يصعب اختراقه.

- مقبول، قدَّر روفين.

- أعلم جميع رجالنا؛ فليستعد كل واحد لتلقي هجوم من الغد، عند الفجر.

واصلت كليوباترا النظر في رسم عاصمتها؛ أخذها قيصر بين ذراعيه.

- سيموت الكثير من الرجال، وستتشوه المدينة، مهما كانت نتيجة الحرب.

- كابوس... هل سيتبدد؟

- فلتُوجّه الآلهة أفعالنا.

- ربما ليلتنا الأخيرة...

- هل أنت نادمة، ملكة مصر؟

- لماذا سأفعل، ما دمنا سننتصر؟

- امنح الطاقة اللازمة لرجالك؛ أنا، سأدعو إيزيس. سنلتقي بعد ذلك.

*

بعد أن تمّت الاستعانة بهما، قام العجوز وريح الشمال بمهمتهما على أكمل وجه، جرياً من بيت إلى بيت من أجل إعلام الجنود وجمعهم؛ قدَّم التاجر أنتيباتر وعدد من اليهود مساعدتهم، واعين أن كل ثانية كان لها وزن. ساعدهم انضباط رجال الفيالق بطريقة لا تقدَّر بثمن، وقت قليل بعد هبوط الليل، استمعوا إلى خطبة قصيرة من الإمبراتور الذي تحدَّث إليهم من فوق خشبة المسرح.

لم يخفِ قيصر خطورة الوضع وصعوبة المهمة؛ نظراً إلى شراسة وتفوق الخصم، تعد المعارك بأن تكون قاسية، ولن يرى

العديد من الشجعان روما ثانية. وحدهما الشجاعة والثبات سيمكنانهم من الصمود في انتظار الإمدادات.

*

بالقرب من المرفأ الملكي، ينتصب معبد لإيزيس راعية البحارة؛ التمثال الذي يمثلها كان مزيجاً من الأساليب المصرية واليونانية. متوّجة بقرص شمسي تحيط به قرون البقر، مرتدية فستاناً طويلاً بطيات، حول عنقها قلادة من الذهب، كانت الملكة تمسك مِزهَراً، آلة موسيقية تتكون من قضبان معدنية تبدد ذبذباتها موجات الشر؛ عند قدميها، سنابل القمح وقرن الوفرة.

هدّأت ابتسامة الإلهة كليوباترا؛ زال الخوف من الكارثة، مشهد بحر هادئ وعائم في أشعة الشمس فرض نفسه. أمسكت الملكة اليد التي مدتها إليها إيزيس، وبرفقتها، انتابها إحساس أنها تمشي على الماء، تستمتع بإسكندرية سليمة، ذات مآثر مبهرة ببياضها.

بينما كانت الرؤية تختفي، دار التمثال، مفسحاً المجال كي يظهر درج. تبعته الملكة لتجد نفسها في سرداب حيث يلمع ضوء خفيف يصدر من مصباح زيت؛ كان يضيء تمثالاً للإله تحوت، رجل برأس أبي منجل. كان هرمس، الذي يرتدي ثوباً مذهّباً، يقدِّم له البخور.

- بما أنك لم تنسي إيزيس، أكّد صوت الساحر القوي؛ فهي لن تتركك.

- بدأت حرب الإسكندرية، وليست لدينا حظوظ كثيرة للنجاة؛ مع ذلك، وافق قيصر على الذهاب إلى دندرة، بعثت رسالة إلى الكاهنة الرئيسة مؤكدة لها أنه مهما حصل، فالأشغال ستستمر وسيتم إنهاء تشييد المعبد.

- بَجّلي تحوت، سيد اللغة المقدسة التي حفرت على جدران المعابد؛ مرور الوقت، والدمار، وجنون البشر لا ينالون منه. يلهم فكر المؤمنين به، يفتح عقولهم، ويمدّهم بنُسغ شجرة كبيرة ذات أوراق وفيرة تنشر ظلالاً لطيفة. عندما ستقطعها البربرية والعصبية، ستندثر الطبيعة بأكملها، ولن يبقى سوى بشر يواجهون بشراً. تلك المعركة، هي معركتك أنت، كليوباترا، وهذا هو طريقك، كم هو وعر، نحو أسرار إيزيس؛ إذا قاد علم ومهارة تحوت فعلك، ربما تمزق الأفق.

*

بعظام متألمة وعضلات متعبة، أنهى العجوز أمفورة من النبيذ الأحمر؛ خمر قوي ومنشِّط، بنكهة رائعة. داعب عنق حماره، الرابض على مقربة منه، وعيناه شبه مغمضتان.

- هذه المرة نحن في ورطة! كنت تريد رؤية الإسكندرية، وسنرى حرباً، وليست حرباً صغيرة! قل لي... حان وقت الرجوع إلى القرية، ألا تظن ذلك؟

ارتفعت أذن الحمار اليسرى.

- كيف، لا؟ نحن عالقون بين مدينة تثور بأكملها ضدنا وجيش جرار يريد إبادتنا، وأنت تريد البقاء هنا!

أكدت الأذن اليمنى بانتصابها بشكلٍ جيد.

- من دونك لن أجد طريقي أبداً! اللعنة، تريد أن تواصل لعب دور البطولة... شيء جهنمي، هذا الهوس، عند بعض الحمير، في أن يقوموا بغزو العالم!

أغلق ريح الشمال عينيه، معلناً عن ضرورة الخلود للنوم قبل بداية يوم شاق؛ قلّده العجوز منزعجاً.

كان الحرّاس الرومانيون في مواقعهم، يترقبون أقل حركة عداء من طرف السكندريين؛ متحصنين في حي البروكيون، كان رجال الإمبراطور مقتنعين بقدرتهم على صدّ هجوم واسع النطاق. ألم يكن قائدهم لا يهزم، يخرج سالماً من أسوأ المزالق؟

في القصر، كانت كليوباترا تصف رؤيتها لقيصر؛ كانت الليلة هادئة، والرياح لطيفة، والبحر ساكناً، والنجوم لامعة، والإسكندرية تحبس أنفاسها.

55

في منتصف النهار، اجتاز جيش أخيلاس الباب الكانوبي، غرب العاصمة؛ عند رؤيتهم للجنرال، أطلق قدامى المحاربين ورجال القوات والتعزيزات التي استدعاها بطليموس الهتافات. انضمام القوى المعادية لقيصر ستكوّن موجة قوية لن يقاومها أحد.

وجد الجنرال بعض الصعوبة في إثبات نظام عسكري داخل الجماعة التي احتلت الطريق الكانوبي الذي كان من حسن الحظ عريضاً بثلاثين متراً، ويفضي إلى البروكيون والقصور التي يحتمي بها العدو، محتفظاً بالملك ومستشاريه سجناء. في نهاية الخمسة كيلومترات التي كان عليهم اجتيازها، سيخترق أخيلاس دفاعات الإمبراتور الهزيلة وسيلحق به هزيمة نكراء ستتحدث عنها الأجيال المقبلة.

لكن كان هناك خطر؛ ألن يقتل قيصر بطليموس، وأرسينوي، وباقي الرهائن قبل أن ينتحر؟ رغم التصريحات المطمئنة، كان أخيلاس يتمنى أن يُقدِم الغازي على ذلك الانتقام الراديكالي، كي يستحوذ هو على كامل السلطة؛ سيرغم الجنرال نفسه على سكب بعض الذموع على الجثث وسيتولّى العرش مُنشئاً نظاماً قوياً.

قامت الخيول بجرِّ الأبراج الشاهقة المليئة بالرماة، والتي سهل

نقلها بفضل العجلات؛ كان المشاة والفرسان يمشون وراءها، مصحوبين بمتخصصين مسؤولين عن الآليات الراجمة. كانوا يتدافعون ويغنون ويثملون من انتصار سريع، مع شعار واحد: لا للرحمة. عند حلول الظلام، لن يتبقى ولا روماني حي في الإسكندرية، وسيتم رفع رأسي قيصر وكليوباترا المقطوعتين كل على رمح.

فجأة توقف التقدم.

- واصلوا التقدم! أمرهم أخيلاس.

- مستحيل، صاح ضابط من فوق أحد الأبراج؛ قطع الرومانيون الطريق!

لاحظ الجنرال بنفسه. مقلّدين الخصم، كان رجال الفيالق قد سدوا الشوارع والأزقة، واحتموا داخل القلعة المرتجَلة.

وجاء أول سهم من قوس روماني ليدخل في حلق الضابط الذي كان يقف على يسار أخيلاس.

جاء الجواب في الحال، وقامت الآليات الراجمة بقصف مواقع العدو. كان وابل السهام والحجارة سيُحدِث خسائر فادحة، إلا أن رجال الفيالق، المحتمين في الدور والمنازل، لم يتلقوا سوى خسائر طفيفة.

غاضباً، كرر أخيلاس الهجوم عدة مرات دون أن ينجح في كسر دفاعات قيصر الذي كان قناصته يصنعون العجائب؛ بسبب خطوة خاطئة، انهار أحد الأبراج، سحق العديد من المشاة، وزرع بداية حالة من الذعر.

محتاجاً إلى التفكير، أمر الجنرال أخيلاس بوقف العداء؛ واجه طرفاً أقوى مما توقع، وعليه أن يغير تكتيكاته.

*

بمجرد أن عاد السلم، سارع ريح الشمال والعجوز والمسعفون إلى إسعاف الجرحى. تلقى الحمار استقبالاً حاراً وهو يحمل جرار الماء، بينما تلقى العجوز تبادل الاتهامات بين رجال الفيالق.

عرض روفين تقريره.

- الموتى ثلاثون، والجرحى عشرون إصابتهم خطيرة، وخمسون إصابتهم طفيفة لا تحبسهم عن القتال؛ تمَّ اختراق متراس واحد. فشل العدو الآن وفقد العديد من الرجال؛ هجومهم أصبح عشوائياً وغير فعال.

- المعنويات؟ سأل قيصر.

- مرتفعة.

- يجب أن نظل حذرين؛ بعد هذا الفشل، سيتضاعف غضب أخيلاس.

- استوليت على الطاقم الطبي للقصر، أعلنت كليوباترا؛ ستستقبل عدة صالات الجرحى الذين سيتلقون أفضل العلاج.

- ها أنت حليفة روما، لاحظ الإمبراطور.

ابتسمت له.

- ولِمَ لا العكس؟

لم يفتأ قيصر يكتشف تلك المرأة الشابة ذات المبادرات الدائمة؛ في عمق الصراع، وحياتها مهددة، كانت تحتفظ ببرودة الأعصاب وتبدو كأنها لا تهتز، هذا بالإضافة إلى توفرها على فتنة ساحرة.

- ماذا تظنين بخصوص أخيلاس؟ سألها قيصر.

- زعيم حرب حقيقي، عنيف، وعديم الرحمة؛ لن يتراجع عن

تدميرنا، لأنه يسخر من العائلة الملكية ويتخيل نفسه سيداً مطلقاً على الإسكندرية.

- معركة حتى الموت... قد تعميه؛ هل سيصمم على خرق متاريسنا؟

- أخيلاس شرير؛ في حالة تكرر فشله، سيبحث عن حلٍّ أفضل.

انحنت الملكة وقيصر على خارطة المدينة، محاولين اكتشاف زاوية جديدة قد يهجم منها الخصم.

*

منهاراً، لم يكن ثيودوتوس يستطيع قراءة شعراء الإسكندرية؛ فوتان المتعب، كان يدور في حلقة مفرغة.

- لن يدوم اعتقالنا طويلاً، قدَّر الخصي؛ لن يتأخر جيش أخيلاس عن تحريرنا.

- لا أشاركك تفاؤلك، أعلن العلَّامة؛ قيصر استراتيجي خطير.

- هو ليس خبيراً في حرب الشوارع، وسيسقط بسبب العدد!

انفتح باب سجنهما؛ دخل أبولودور الصقلي يتقدم خادمين أحضرا الطعام.

- فشل هجوم الجنرال أخيلاس، وجيش قيصر سليم. لأنكما سجينان، وإلى إشعار آخر، سيكون طعامكما هو طعام الجنود.

بينما كان الحاجب يدير ظهره، دسّ فوتان في جيب رداء أحد الخادمين قطعتين من البرونز ورسالة وجيزة إلى أخيلاس تطالبه بمواصلة القتال وتحرير بطليموس.

شمّ الخصي طبقاً من الفول المسلوق ممزوجاً بقطع من اللحم الفاسد؛ بعد أن أحس بالغثيان فضَّل الصوم.

*

استغلت الخادمة شارميان الهدنة كي تسرّح شعر الملكة، وتعطرها، وتجبرها على تغيير فستانها.

- حرب أو لا حرب، يجب أن تظلي جميلة وأنيقة؛ أن يحبك قيصر يقتضي عدم الإهمال. يا له من قوام يتوفر عليه الجنرال! معطفه الأحمر لا تشوبه شائبة، يداه تتمتعان بالعناية، هو لا يسمح لنفسه بأي تسيُّب في الذوق. في العمق، أنا أفهمك؛ رغم عمره، هو أشد وسامة من شباب البلاط الفاتر! لكثرة ما يترددون على قاعة الرياضة، أصبحت أدمغتهم فارغة وأعضاؤهم رخوة.

- شارميان!

- كنت تصدينهم لأنك كنت تتمنين رجلاً بقوام قيصر وكنت محقة؛ نظراً إلى شخصيتك، كان يلزمك عشيقاً من هذا الحجم. حاولي الانتصار في هذه الحرب والاقتران بالجنرال؛ أنتما الاثنان، ستصلحان حال بلدنا التي أفسدها بطليموس وجماعته، وسيحبكما الشعب. أنا، أحارب على طريقتي، ألغيت كل الحلويات التي كان ذلك الوحش شرهاً تجاهها؛ على الأقل، سينحف! آه، لا تتحركي. . . أنت رائعة.

قربت شارميان مرآة أمام الملكة عكست شمساً خريفية ذهبية بدأت تغرب. قلقة، أحست كليوباترا بليلة مأساوية وذهبت بالقرب من قيصر.

هو أيضاً كان يبدو مهموماً.

- لقد دعّمنا خط دفاعنا، وسنقاوم؛ أخيلاس يعرف ذلك ولن يلحّ.

تأملت كليوباترا الميناء والأرصفة وجزيرة أنتيروديوس، والممر الرئيسي والمنارة... وانتابها يقين.

- المرفأ الملكي... سيستولي عليه أخيلاس!

56

بعد الاستماع إلى تقارير ضباطه، وصل الجنرال أخيلاس إلى خلاصة؛ يصعب خرق حواجز الرومانيين. بالإضافة إلى أنهم استغلوا الهدنة كي يقوموا بتدعيمها، وأمواج الهجوم كانت ستتكسر الواحدة تلو الأخرى.

عليه إذن أن يجد نقطة ضعف في نظام قيصر الدفاعي، وانتهى الأمر بأخيلاس إلى اكتشاف زاوية هجوم: مرفأ الشرق حيث كانت ترسو اثنتان وسبعون باخرة اسكندرية والأسطول الروماني، الذي كان يظن نفسه في مأمن. لم يكن بطليموس قد أعطى الأمر للبحرية بإغلاق مخرج الميناء، وقيصر، الذي رفض مغادرة المدينة، كان يحتفظ بسفنه في الاحتياط.

هدف محدد: الاستيلاء على سفن بطليموس، منع قيصر من أي محاولة فرار، ومهاجمة القصر من البحر؛ لن ينجح رجال الفيالق في الدفاع عن الأرصفة لفترة طويلة.

متفادين حي البروكيون، سار جنود أخيلاس بمحاذاة الشطّ وهم يجرون؛ لا يمكن استعمال الأبراج والآليات الراجمة، لكن المشاة لن يحتاجوا إليها. سيأخذونهم على حين غرة ولن يقدم الرومان سوى بمقاومة يائسة.

*

كان قيصر قد اهتم بتحذير كليوباترا ونقل حوالي مئة من رجال الفيالق الذين تكدّسوا على ارتفاع المرفأ الملكي من أجل حماية ثلاثية المجاديف الرومانية.

لأنهم لم يكونوا يتوقعون هجوماً من مجموعة مندمجة وكثيرة الصياح، تراجعوا محاولين الاختباء، وطالب أحد الضباط على الفور بتعزيزات؛ متمركزين على أسطح القصور، استطاع بعض الرماة إبطاء تقدم العدو.

حذّر روفين قيصر.

- تراجع ضروري! وإلا قُتِل رجالنا.

- بواخرنا؟

- ضاعت.

- إن ضاعت، فكذلك نحن.

- يستحيل الدفاع عنها، أكّد فوتين؛ هل نعلن التراجع؟

لم يكن بإمكان الإمبراتور تأجيل قراره.

- فلنحرقها كلها.

- كلها...

- فلنحرق قواربنا وقوارب بطليموس.

- أنت متأكد أنك...

- إنه المخرج الوحيد؛ فلنسرع.

لم تتدخل كليوباترا؛ بتصرفه على ذلك النحو، كان قيصر يحرم نفسه نهائياً من أي إمكانية هروب محتمل ويؤكد رغبته في أن ينتصر.

وهو يقود فرقة مصممة، أطاع روفين زعيمه؛ قام برمي مشاعل غُطِّست بالزفت، اشتعلت حبال القنّب وألواح السفن التي كانت تقطر بالشمع. بعد ذلك اشتعلت مقاعد المجدفين والحبال التي تثبّت

العوارض في قمم الصواري؛ بعد أن احترقت معظم أجزائها، غرقت البواخر[1].

تجمّد المقاتلون من فظاعة المشهد المخيف، كيف يمكن لأخيلاسَ أن يتوقع تدميراً بهذا الشكل؟ هبّت رياح عنيفة، انتقلت النيران من باخرة إلى أخرى بسرعة مذهلة، وصلت إلى مخازن القمح ومستودع للخشب محاذٍ للمكتبة الكبيرة.

مذعورون، كان الحرّاس عاجزين عن إيقاف مسيرة النيران؛ تدفق العلماء من مساكنهم، لا يدرون ماذا يحملون. انفجرت النوافذ، وجدت النيران عناصر مختارة، البرديات والرفوف؛ حاول علّامة إنقاذ بعض النسخ، لكن رداءه اشتعل وسقط وسط حريق هائل جعل قيصر وكليوباترا وباقي رجال الفيالق ومناوئيهم يقفون متسمّرين.

في أقل من ساعة، تحت تأثير هبوب الرياح التي أجَّجت النيران، دُمِّر المتحف والمكتبة وعدة منشآت أخرى بالكامل؛ لم يعد حي البروكيون سوى راسب ملتهب ووحدها القصور، التي اسودّت واجهاتها، أفلتت جزئياً من الكارثة.

كان قيصر أول من خرج من السبات العام.

- بقي منفذ بين المسرح والمرفأ، فلنستعمله، قال لروفين.

لم يقاوم جنود أخيلاس الذين كانوا متمركزين في ذلك الموقع اندفاع الرومانيين، وقاد الإمبراطور بنفسه مفرزة كاملة إلى هدفه: المنارة. لم يكن باستطاعته الاستيلاء على جزيرة فاروس بأكملها، لكن احتلال النصب الذي يوجد على الحافة سيتيح له مراقبة المرفأ والتحكم في السلاسل التي قد تُستعمَل من أجل إغلاقه.

---

(1) وصف لوكان.

مرة أخرى، قدَّر روفين عبقرية قيصر الاستراتيجية وقدرته على الارتجال في ظروف مأساوية؛ كانت غريزته تتيح له استغلال أي حادث، ولو كان كارثة مثل هذا الحريق الهائل. ضرورة واحده تهم: استعادة زمام المبادرة.

تمّت تصفية الحرّاس المعينين لصيانة المنارة بسرعة، وهرع قيصر إلى الدرج اللولبي الذي يقود إلى الطوابق. بشكلٍ مربع، كان الأول يصل إلى ارتفاع ستين متراً؛ الثاني، ذو ثمانية أضلاع، يضيف ستة وعشرين متراً، والثالث تسعة عشر. كان وضوح الشعلة يلمع باستمرار في قمة البرج الحجري من مئة وخمسة أمتار يمتد إلى حوالي خمسين كيلومتراً. متوفرة على العديد من الغرف، وفَّرت المنارة للرومانيين موقعاً ممتازاً للمراقبة، لإشرافها على المدينة والبحر.

- المكان مؤمّن، أعلن روفين؛ وسيكون من السهل الاعتناء به، ليس لدينا سوى جريحين خفيفين.

راقب قيصر الإسكندرية تحترق. بتعرضه لروما، تسبب بطليموس الصغير في تدمير عاصمته وأفضل ما فيها، المكتبة والمتحف اللذان يجسدان الرغبة في المعرفة الشاملة. انتهت الملايين من الكتب والتقارير العلمية محترقة، أصبحت العديد من أيام البحث عدماً.

لأول مرة، يرى **الإمبراطور**، المتعود على فظائع المعارك، عالماً متكوّناً من علماء، ومهندسين، وأدباء، وشعراء يهلك بسبب غرور وحمق سلالة حاكمة منحطّة. لو استسلم لشراسته لخنق بطليموس الثالث عشر، الوريث الجبان، المهووس الجنسي الفاسد؛ لكن نقطة اللاعودة كان قد تمَّ تجاوزها. حالياً، هدف واحد: الفوز في حرب الإسكندرية.

57

كانت نظرة كليوباترا تقدح شرراً.

- المكتبة، والمتحف، وكنوز الإسكندرية... كيف تجرأت؟

- لست مسؤولاً عن هذه الكارثة، أكّد قيصر؛ بحرق بواخري وبواخر بطليموس، لم أكن أتصور أن النيران ستنتشر بتلك الطريقة. اندلعت العاصفة في لحظة واحدة، والرياح، بقوة نادرة، عبّرت عن غضب الآلهة.

شددت الملكة قبضتها.

- الآن، أنت تتهم الآلهة!

- من غيرها قرر مضاعفة قوة الحريق؟ غباء أخيك، غير الجدير بمنصبه، أثار عِقاب السماء. نواياي كانت واضحة: القضاء على أسطول العدو والتضحية بأسطولي كي أُعلِن عن عدم نيتي الهرب. حالياً، أنا أتحكم في المنارة، ونظام دفاعنا سليم، فشل هجوم أخيلاس، تفوقه العددي لم يمنحه النصر السريع الذي كان يأمله. انسي الماضي، كليوباترا، ولا تفكري سوى في القتال.

- المتحف، والمكتبة...

- إن حكمتِ، ستعيدين بناءهما.

بدت الملكة شكاكة.

- هل تظلين حليفتي، أو تدينين تصرفي؟

تفحّصت عينا كليوباترا الخضراوان اللتان لا يمكن سبر أغوارهما الإمبراطور.

- أنا أحبك قيصر، وأؤمن بنا.

لم يكن منتصر حرب بلاد الغال قد تلقّى أبداً تشجيعاً مشابهاً، في عمق تلك الليلة التي عتّمتها أعمدة الدخان، أحس أنه لا يقهر.

*

- حسناً هذا، حسناً هذا... تمتم العجوز.

حتى ريح الشمال، رابط الجأش عادة، بدا مندهشاً من اتّساع رقعة الخراب، حيث واصل الجمر على التوهّج. شارك العديد رأي قيصر: الحريق في الأصل من صنع الإنسان، لكن كثافته غير الطبيعية تعود إلى تدخّل الآلهة. من تريد أن تعاقب، بطليموس الصغير أو الثنائي المكوّن من الغازي الروماني وملكة مصر؟ الساعات القادمة ستأتي بالجواب.

مخافة هجوم جديد، لم يستطع الرومانيون الاسترخاء؛ منذ الفجر، قام روفين بتبديل الحرس وتأكد من عدم وجود فجوة قد تمكّن العدو من أن يندسّ. على رأس المؤن، وزّع العجوز وريح الشمال حصص الماء والطعام في حين دعّم رجال الهندسة المتاريس مستعملين الأنقاض والحطام المتنوع؛ رغم منظره الحزين، ظلّ حي البروكيون معقلاً منيعاً.

غير مبالين بالخسائر التي تسبب فيها الحريق، كان رجال الفيالق يهنّؤون بعضهم على استراتيجية زعيمهم؛ بدل أن يستسلم لليأس، قلّب وضعاً خطِراً بأخذ مبادرات لا مثيل لها. ذلك النجاح غير المتوقع أزال التعب، واحتل كل واحد موقعه بعزم تام.

من أعلى المنارة، لاحظ روفين اتِّساع رقعة الخسائر؛ كان مشاة أخيلاس يجمعون موتاهم العديدين؛ احترقت الكثير من أبراج الهجوم والآليات الراجمة، وكان فقدان تلك الآليات يضعف قدرات جيش بطليموس الهجومية.

مع ذلك، لا أحد كان يقلل من قدرات الخصم؛ بعد أن خُدِش، لن يتراجع أخيلاس عن تدمير الرومانيين.

*

فحص الطبيب العسكري الجنرال أخيلاس، ضحية لوَعكة عندما أرغم الحريق جنوده على التراجع؛ بعد أن غطتهم ألسنة اللهب، قضى العديد منهم.

- قلبك صلب، قدَّر الممارس.

جلس المحارب العنيد.

- أريد أن أشرب، قال مطالباً.

سارع مساعده الميداني بإحضار الجِعَة؛ شرب الجنرال بشراهة بسبب جفاف حلقه، قام بإبعاد الطبيب وخرج من الفيلا الفخمة التي نُقِل إليها.

أبهره الضوء، ترنح واتكأ على الحائط؛ أحاط به أهم ملازميه.

- أنا بخير، بخير... تقاريركم!

- ليست جيدة، اعترف ضابط من الفرسان؛ لم نتوصل إلى اختراق دفاع الرومانيين. احترقت جميع بواخرهم، وبواخرنا أيضاً. احتل قيصر المنارة.

- المنارة... هل أنت متأكد؟

- يستحيل الاقتراب منها، رماتهم يمتازون بدقة لا متناهية ومشاتهم حصّنوا المنفذ؛ لكننا نسيطر على جزيرة فاروس.

- خسائرنا؟

قدَّم أعضاء أركان الحرب تقديراتهم، ولم ترِح الحصيلة الثقيلة أخيلاس؛ إلا أن تفوقه يبقى ساحقاً. شريطة استعماله بطريقة فعالة.

متعباً، كافح الجنرال الهائج كي يفهم أسباب فشله؛ كان بإمكان موجته الهوجاء أن تغمر الرومان، الضائعين في بلد غريب، لكنهم على العكس تصرفوا بشكلٍ جيد. أسطول بطليموس تمَّ إغراقه، أجمل حي في المدينة التهمته النيران، العائلة الملكية ومستشاروها محبوسون في القصر، قيصر وكليوباترا سالمين... بداية الحرب هذه، التي كان أخيلاس يتمنى أن تكون وجيزة، تثير الرثاء.

أعطاه مساعده الميداني رسالة من فوتان يخبره فيها أن الملك وأهله كانوا على قيد الحياة وهم ينتظرون أن يتم تحريرهم؛ هكذا، كان الخصي يتوفر على من يتواطأ معه ويمكّنه من الاتصال بالخارج. هل كانت كافية لإحداث انتفاضة داخل إقامتهم الجبرية؟

لا شيء سار كما كان متوقعاً، كان أخيلاس محتاجاً إلى نصائح فوتان من أجل وضع استراتيجية جديدة، قادرة على مباغتة الرومان؛ وهو يحس بالضياع، طمأن الجنرال نفسه بالتفكير في عدد رجال الفيالق الذين يقاومونه. على المدى البعيد، سيتحقق النصر... إلا إذا قدم جيش إنقاذ التعزيزات اللازمة لقيصر. ولم يكن بإمكان أخيلاس أن يمنعه من دخول المرفأ.

- أوامرك؟ سأله الضابط.

- حرق الموتى، وإسعاف الجرحى، ومراقبة العدو؛ هذا المساء، سيجتمع أركان الجيش من أجل وضع تصور للعمليات المقبلة.

بظهر منحنٍ، انسحب أخيلاس.

58

طوال الليل، راقب فوتان وثيودوتوس، من نافذة سجنهما الذهبي المشبكة، تقدُّم الحريق. في الصباح، عندما هدأت الرياح أخيراً، لاحظا مدى اتّساع رقعة الكارثة.

- لا ، دمدم ثيودوتوس، ليس ممكناً . . . ليس المتحف، ليس المكتبة!

- أنقاض مشتعلة. . . هذا اللعين قيصر دمّر عاصمتنا!

- ليس المتحف، ليس المكتبة، كرر المؤدِّب وهو يترنح.

- منعه الخصي من السقوط وساعده على الجلوس.

- أعمال شعرائنا وعلمائنا، آلاف النسخ التي جمعت بصبر، نصوص لا مثيل لها، لا تقدَّر. . .

وضع ثيودوتوس يده على قلبه، أحسَّ بصعوبة في التنفس.

- سأطلب المساعدة، قرر فوتان.

- ليس المتحف، ليس المكتبة. . .

طرق الخصي الباب بعنف؛ فتح الحارس، حذِراً.

المؤدِّب ثيودوتوس متوعك، أحضر الطبيب!

بعد أن تمَّ إعلامه، جاء معالج العائلة الملكية مُسرِعاً.

رأسه مائلاً على كتفه الأيسر، كان مؤدِّب بطليموس الثالث عشر قد فارق الحياة.

عندما سُمِح للخدم بنقل الجثمان، دسَّ فوتان رسالة إلى شريكه المعتاد. كان الخصي يقترح على أخيلاس أن يشن هجوماً قوياً جديداً كي يضعف مقاومة الرومان.

*

- كل شيء جاهز، صاحبة الجلالة، قال الخصي جانيميد؛ لكن المخاطر جسيمة، هل ترغبين في خوض المغامرة؟

رفعت الأميرة أرسينوي ذقنها.

- فلنخرج من هذا السجن، قررت.

كانت الفتاة تولي جانيميد ثقة تامة، كان الأب الذي رباها، غليظاً، عدواً لكليوباترا، ماكراً وعنيفاً، كان يحلم بشأن كبير من أجل محميته.

- قمت بشراء أحد حرّاسنا، رجل من بلاد الغال؛ هو مكلَّف بأن يفتح لنا الطريق، من لحظة إلى أخرى.

حدّقت الأميرة والخصي في الباب الثقيل من خشب الأبنوس الذي يُغلِق جناح أرسينوي، وبدا لهما الانتظار لا متناهياً. غير قادرة على تحمّل الحبس وسلبية بطليموس، كانت الفتاة الشابة مقتنِعة بقدرتها على لعب دور مصيري في الكفاح ضدّ الرومان. عشيقة لقيصر، كانت كليوباترا قد خانت شعب الإسكندرية الذي ستعيد له أرسينوي كبرياءه.

فُتِح الباب.

كان الحارس رجلاً خمسينياً فظّاً، شعر بسعادة غامرة للحصول

على مبلغٍ وفير؛ هذه الطفلة وخصيها لا يشكلان أي خطر، وتركهما يهربان لا يرهن انتصار الإمبراتور النهائي.

- في هذه الساعة، أشار الحارس؛ المطابخ فارغة، اعبُراها، واهبطا الدرج الذي يؤدّي إلى الرصيف، ستجدان زورقاً. مع قليل من الحظ، ستفلتان من الرماة.

- عمل جميل، اعترف جانيميد.

- ألا يستحق مكافأة إضافية؟

- أوافقك.

ضغطت يدا الخصي القويتين على عنق الحارس، كان وقع المفاجأة كبيراً حتى أنه بالكاد استطاع أن يقاوم؛ بعد أن اختنق بسرعة، سقط ولسانه متدلٍّ. أنهى عليه جانيميد بخنجره، راقب الممر وأشار إلى الأميرة كي تتبعه.

*

كانت الظلال قد زالت، ستفي كليوباترا بوعدها ولن تعاتب قيصر أبداً على حريق المكتبة. ببقائه في الإسكندرية، واعياً بهشاشة موقعه، كان الإمبراتور قد برهن عن قوة التزامه وعن مدى شجاعته؛ كانت الملكة متأكدة من ذلك: هو الذي ستتوجه الآلهة.

مرَّ اليوم من دون حادث يذكر؛ مسترجعاً نفسه، كان على أخيلاس أن يعيد النظر في استراتيجيته قبل أن يعود إلى القتال. هجوم واسع كان محتملاً، دفعه سيكلِّف الكثير من الرجال. إذا فُتِحت فجوة، سيكون القصر في متناول العدو.

- لم تكن ليلتنا الأخيرة، قالت كليوباترا؛ والجنرال أخيلاس تراجع.

- بعد أن يزول وقع المفاجأة، لن يزداد إلّا غضباً. لا جدوى من أن نكذب على أنفسنا، ملكة مصر: وضعنا ميؤوس منه.

يرافقه فيلقي يجرُّ صبياً مقيَّداً من عنق ردائه، قاطع الحاجب أبولودور قيصر.

- تمكنت أرسينوي وجانيميد من الفرار، قال الصقلي متأثراً؛ قام الخصي بخنق أحد الحراس، واستقلا زورقاً لم نتمكن من إيقافه. على الأقل، تعرفنا على هذا الخائن!

أرغم الفيلقي سجينه على الجثو.

- كان يخفي هذه الرسالة، فسَّر أبولودور.

أخذ قيصر علماً بالوثيقة.

- من أعطاها إياك؟ سأل الخادمَ.

- السيد فوتان... كان علي إعطائها لأحد الطباخين.

- فليتم إيقافه وليتحدث، أمر الإمبراطور؛ أبولودور، أعهد إليك بالقضاء على هذه الشبكة. لا يجب أن يبقى في القصر سوى الرجال الثِّقات.

*

قفز فوتان، نهض واتكأ على الحائط.

- أنت...

- هل تعترف أنك كاتب هذه الرسالة؟ سأله قيصر.

ألقى عليها الخصي نظرة.

- تمّت سرقتها مني...

- رغم تحذيري، كنت تتصل بشريكك أخيلاس، عدو روما. كنت قد أعلمت بنتائج فعل كهذا.

ارتمى فوتان تحت قدمي الإمبراطور.

- اتركني، أرجوك!
- نحن في حرب؛ تغذية أفعى من صنفك سيكون خطأ لا يغتفر.
قام فيلقيان باصطحاب فوتان باكياً، والذي لم يبكِ أحدٌ على موته.
لا أحد، إلا طباخه الذي أقسم بأن يثأر له.

59

أيقظت صيحات فرحٍ أخيلاس الذي كان قد غَفا قبل اجتماع أركان الحرب، والذي لم يكن مساعده الميداني يجرؤ على إزعاجه. خرج من البناية التي اتَّخذها مقراً ورأى حشداً يصيح احتفالاً بقدوم الأميرة أرسينوي ومربيها، الخصي جانيميد، رجل قوي بقامة الجنرال.

«أرسينوي ملكتنا!» صاح أحد الضباط، وكرر الحشد كلماته بانسجام.

أخيراً، وصلت الأميرة ومربيها إلى أخيلاس، الذي كان فريسة للدوار ويشعر بالغثيان.

- أنتما... أنتما أفلتّما؟

ألقت الشابة ذات الوجه الدميم نظرة محتقرة على رئيس الجيش.

- بطليموس يتحمل حبسه؛ وأنا آخذ المبادرات اللازمة! هل تسمع شعبي؟ يعترف بي ملكة عليه! من الآن، ستطيعني.

- اعذريني، صاحبة الجلالة، لكنك لا تتوفرين على أي خبرة في الفنّ العسكري و...

- وخبرتك لم تحقق لك الانتصار الذي كان عليك تحقيقه!

استراتيجيتك لاقت فشلاً ذريعاً، ولا أجدك كفؤاً لتقود. سيعوضك جانيميد ابتداءً من الآن.

- هذا الخصي، هذا...

غرز مربي الأميرة خنجره في بطن أخيلاس.

- مناقشة أوامر الملكة جريمة؛ في حالة الحرب، تعاقب بالموت.

استمتع جانيميد بتفتيش لحم المحكوم؛ سال خيط من الدم من فم أخيلاس، رفّت عيناه، وانهار.

استدار القائد العام الجديد نحو الحشد، المتكوّن من عسكريين ومدنيين.

- حياة مديدة لملكتنا أرسينوي الرابعة التي ستقودنا إلى النصر!

حيّت صيحات هذه الأمنية، ثم نطقت سيدة الإسكندرية الجديدة، ثملة بتلك السلطة التي كانت تتمناها بشدة، أولى كلماتها الرسمية.

- أخيلاس مسؤول عن خسارة العديد من الجنود، استحق عقابه؛ سنقضي على الطاغية الروماني وعشيقته، الساحرة كليوباترا، ثم نعيد بطليموس إلى عرشه!

ألهب ذلك البرنامج حماس الحضور.

- من شأن هجوم مباشر أن يكون مفيداً، أعلنت أرسينوي؛ اقترح علي الجنرال جانيميد طريقة أفضل لمحاربة العدو، وهذه العملية لن تكلفنا أي حياة بشرية.

*

لم يكن غضب كليوباترا ادّعاء.

- أرسينوي، ملكة مصر... خُرقٌ!

- بحسب حليفنا أنتيباتر، أشار قيصر؛ تُوجت من طريق هتافات، وأول قراراتها كان إعدام الجنرال أخيلاس وتعيين جانيميد مكانه. هل تعرفين ذلك الرجل؟

- يعبد أختي الصغرى وهو الذي رباها؛ مخادع، نظرته مراوغة، يقوم بحيل قذرة على الدوام.

- هل مارس مهاماً عسكرية؟

- لا، لكنه قادر على القيادة؛ في القصر، كانت لديه شبكة من الخدم، وكان الآخرون يخشونه.

كان قيصر مرتاباً. من شأن هجوم شامل أن يخترق الخطوط الرومانية، لكن القائد العام الجديد يبدو أنه تراجع عنه؛ نظراً إلى تعطشها للسلطة، لن تسعى أرسينوي إلى السلم. كل ما يهمها هو القضاء على الخصم.

إذن، حيلة؛ ما هي وسيلة الإيذاء التي سيستعملها المعتدي؟

بعد أن أحس قيصر بمرارة كليوباترا، عانقها.

- أنت ملكة مصر الوحيدة، وستدفع الغاصبة ثمن ادّعائها غالياً.

*

كان قيصر يحتل الفنار وحي القصور: المرفأ الغربي، والهيباستاديوم، الطريق الذي يربط الأرض اليابسة بجزيرة فاروس، بقيا بين يدي أرسينوي وجانيميد الوفي لها.

لا أحد عارض استحواذهما على السلطة، وأدهش ذلك النجاح الخصي الذي كان يخشى غضب ضباط أخيلاس؛ بعد أن أحسوا بخيبة أمل تصرُّف زعيمهم، اصطفَّ هؤلاء تحت راية الجنرال الجديد، سعداء لتلقي تعليمات ذكية يسارعون في تنفيذها. حذِراً،

كان جانيميد قد طالب بيمين الولاء وسيعاقب أقل انحراف؛ الطريقة العنيفة الذي قُتِل بها أخيلاس تشهد بقسوته، وحتى القدماء لم تكن عندهم الرغبة في التصادم مع ذلك المحارب ممتلئ الحجم الذي يعد بتحضير مجزرة للرومان وتحرير الإسكندرية.

فخورة بنجاحها غير المتوقع، كانت أرسينوي تنظِّم بلاطها ولا تتحمل أقل عصيان؛ كانت متعة الحكم لا مثيل لها، ولم يكن الأمر سوى في بدايته.

- هل يتقدم هجومنا؟ سألت جانيميد.

- قيصر العظيم بنفسه لن يقاومه.

- متى سنلاحظ النتائج؟

- قريباً، اطمئني؛ وأرغب في أن أريك سلاحاً كان البليد أخيلاس قد نسيه.

حائرة، تبعت أرسينوى الخصي إلى وِرَش الميناء الغربي[1] حيث كان يشتغل بعض النجارين، من دون انقطاع، تحت أوامر جانيميد.

كانت الملكة مندهشة.

- بواخر. . . إنها بواخر!

- يتصور قيصر أنه أغرق كامل أسطولنا الحربي، هو مخطئ؛ هذه المراكب حقاً هي أخف من تلك التي أُتلِفت خلال الحريق، لكنها تمنحنا إمكانية مهاجمة القصور.

مبهورة، داعبت أرسينوي عدة هياكل.

- هل هي جاهزة للإبحار؟

---

(1) إينوستوس.

- الحِرفيون المتاحون يضاعفون من جهودهم ويتناوبون. قيصر لا يفكر سوى في تدعيم متاريسه، جاهلاً بأنها أصبحت غير مجدية.

لمعت عينا الفتاة من الإثارة.

- السخرية من الإمبراطور... سيمتد مجدنا عبر العالم أجمع وسنعيد تشييد إسكندرية تثير حسد مؤسسها! أما بالنسبة إليك، جنرالي المفضل، سوف يتم تكريمك بحسب استحقاقاتك الخاصة.

60

عندما أراد أن يشرب، حوَّل ريح الشمال خطمه وخدش الأرض بحافر رجله الأمامية اليسرى، دليل على تهيج أكيد.

- الماء، ليس شيئاً جيداً، اعترف العجوز؛ لكنه حيوي! هيا، لا داعي لسوء الخلق.

استمر رفض الحمار.

- ماذا هناك. . . انظر، أنا أشرب منه، من هذا الماء!

بصق العجوز في الحال.

- أُفٍّ، يا للقرف! إنه مالح، غير صالح للشرب. . . صهريجنا متعفِّن، أنت على حق. تعال نبحث عن الأفضل.

قصد الحمار والعجوز الصهريج المجاور؛ في القرب، كان النقاش صارماً وكانت الشكوى من المذاق الكريه للسائل الثمين. وفي كل مكان، في المنطقة التي يسيطر عليها الرومان، المعاينة نفسها.

انتشر القلق بسرعة فائقة، وسارع أحد الضباط بإعلام قيصر الذي، رفقة كليوباترا، كان مندهشاً من سلبية الخصم.

- ذلك الطاعون أرسينوي تريد أن تطردنا من المدينة، قالت

الملكة؛ قامت بسدّ الأنابيب والقناة تحت الأرض، والتي تمرُّ تحت الطريق الكانوبي.

كان يحضر إلى القصور وإلى الدور والمنازل بواسطة قنوات تفضي إلى الآبار، كان الماء العذب يوزع بعناية بين سكان العاصمة؛ وكان العديد من الصهاريج يتوفر على مراشِح.

- أمرت أرسينوي بضخ مياه البحر وتلويث الأحواض التي يعتمد عليها حيُّنا، فسَّرت كليوباترا؛ احتياطاتنا غير صالحة للاستعمال.

- يجب أن نغادر الإسكندرية، استنتج الضابط.

- لم نخسر شيئاً، قالت الملكة معترضة؛ فلنحفر آباراً على الشاطئ، وسنجد الماء العذب.

- في هذا القرب من البحر؟

- فلنسرع، قرر قيصر.

تمَّ جمع العديد من الفِرق، وبدأ العمل في ذلك اليوم الحلو من نوفمبر؛ في عمق الصيف، كان تصرف أرسينوي وجانيميد الماهر لتكون له نتائج سريعة. بما أن الحرارة كانت محتملة، قاوم الجنود العطش؛ ساعدهم العجوز بتوزيع مخزونه من جرار الجِعَة بتقتير.

متنقلين من فوج إلى فوج، ساند قيصر وكليوباترا الحفارين معنوياً بإقناعهم بأنهم لا يتعبون عبثاً. استهلكوا العنب، وريح الشمال الرزين أعطى المثال لبني جنسه، للكلاب وباقي الحيوانات، فهي أيضاً حريصة على الشرب.

ومرّت الساعات مقلقة.

*

تركت أرسينوي العنان لابتهاجها؛ أحضرت لها جوقة من الخدم

أطباقاً رائعة وخمور الحفلات والحلوة بحسب الرغبة. كانت الملكة تأكل وتشرب بكثرة، محتفلة بحصولها على السلطة، بينما كان الجيش الروماني يموت من العطش. كما هو متوقع، كان قيصر يرفض تقبل الواقع ويسقي رجاله خمراً وجِعَة، حتى انتهاء الاحتياط.

تقدَّم الجنرال جانيميد أمام ملكته.

- الأشغال تتقدم بسرعة، أعلن لها؛ أسطولنا الحربي سيكون فعالاً ابتداء من الغد. عندما ستصبح وضعية الرومانيين لا تطاق، سيضطرون إلى الخروج من مخبئهم؛ الآليات الراجمة ورماتنا سيقضون على الذين سيتجهون نحو غرب المدينة، وسيقوم بحّارتنا بإغراق المراكب القليلة التي سيستقلها قيصر وكليوباترا وآخر أتباعهم.

استلقت أرسينوي على ظهرها، قريبة من النشوة.

- يا لها من رؤية رائعة! في الأمس، لم أكن سوى فتاة محتقرة ومحبوسة، وكانت أختي تتبختر؛ اليوم، سكان الإسكندرية يبجلونني!

كانت انحرافات محميته تبهج جانيميد؛ بالكاد تخطّت الطفولة، وظلت متقلبة مع طموحها لممارسة السلطة العليا. سيساعدها على أن تتكون وتقاوم الرياح المعاكسة، وستمحي أخطاء سلالة البطالمة. بعد كل سنوات التسكع والانحرافات، ستكون أرسينوي الرابعة، المنتصرة على قيصر الشهير، على قدم المساواة مع الإسكندر الأكبر.

- ألم يحن الوقت لتستريحي، صاحبة الجلالة؟

- ليس هذا المساء! أرغب في أن أتلذذ بهذه اللحظات وأرسّخها في ذاكرتي.

لم يلحّ زعيم الجيش الإسكندري الجديد؛ بينما أرسنوي تثمل، سيحفِّز عمال موظفي الورشة البحرية على مضاعفة الجهود.

عندما سينتشر الأسطول الحربي، سيلاحظ قيصر، مذهولاً، فداحة هزيمته.

*

لم يقطع الليل سير الأشغال، لكن ولا فرقة وجدت ماءً حلواً، والتثبيط يضعف السواعد. كان قيصر يتظاهر بالاعتقاد في النجاح، وكليوباترا، التي لم تكن تشك في نهاية سعيدة، كانت تمنعه من التراجع.

كان البدر التمام يتيح لحوالي عشرة من العنيدين متابعة حصادهم؛ بحافرٍ ملحّ، حفر ريح الشمال حفرة، حوالي مئة خطوة من الشاطئ، قبالة القصر الملكي. طلب العجوز من رجلين قويين بتكبيرها وتعميقها؛ قبل أن يخلدا للنوم، قَبِلا تلك المهمة الأخيرة.

في عمق ذلك البئر الأوَّلي، ماء.

ماء صافٍ وعذب وصالح للشرب!

عند الفجر، وفي الجوار، نجحت فِرقٌ جديدة في الوصول إلى عروق جديدة من الماء العذب: تحت رعاية إيزيس، كانت كليوباترا ساحرة تسهر على الجيش الروماني.

ولم تكن معجزاتها تتوقف هنا.

بعد أن أزالت أول جرعة من النبيذ الأبيض الصِّرف الغشاوة عن عيني العجوز، أخذ يراقب عرض البحر وهو يستنشق هواء الصبح العليل.

فجأة، رؤية غريبة، أدهشته حتى إنه فرك عينيه، شرب جرعة أخرى، وعاد إلى المراقبة.

في قمة المنارة تململ المراقبون.

- لا يصدِّق، دمدم العجوز؛ حوالي ثلاثين باخرة! وإذا كانت إمدادات؟

دليلاً على الموافقة، رفع ريح الشمال أذنه اليمنى.

61

متحمساً، أيقظ روفين قيصر.

- جاءت الإمدادات!

وافت كليوباترا، التي كانت شارميان قد ألبستها وعطرتها بعُجالة، عشيقها إلى شرفة القصر.

بحسب المعلومات التي وصلت من حراس المنارة، كانت الأخبار جيدة وسيئة في الوقت نفسه. جيدة، لأن السفن الأربع والثلاثون، المحملة بآليات الحرب، والأسلحة، والقمح، كانت في ملكية الفيلق السابع والثلاثين؛ سيئة، لأن الرياح الشرقية العنيفة كانت تحبط مناورات الأسطول وترغمه على تخطي الإسكندرية.

سنستعمل كل الزوارق المتوفرة، قرر قيصر، وسنقوم بسحبها؛ فلننشر إليهم بتوجيه الأشرعة بحيث يوقفون السفن. روفين، درعي.

لم يخفِ ملازم الإمبراتور دهشته.

- أنت لا تنوي الذهاب بنفسك. . . الوضع جد خطير!

- ليس أمامنا ثانية لنفقدها.

نظر قيصر إلى كليوباترا.

- في غيابي، خذي المبادرات اللازمة؛ في حالة هجوم بري، امنحي رجالي القدرة على الصمود.

*

رأسها ثقيل، اكتفت أرسينوي بقليل من الماء البارد، ذلك الماء الذي سيُهلِك عدم توفره قيصر وكليوباترا. ذلك اليوم الذي اشتدت فيه الرياح سينشف رِيق الرومانيين الذين سيضطرون إلى الهرب على متن زوارق بئيسة ستغرقها السفن الحربية الإسكندرية بكل يسر.

وهو يدفع الخادمات، دخل الجنرال جانيميد غرفة الملكة.

- كيف تجرؤ!

- جاء جيش إنقاذ لتدعيم قيصر.

قفزت أرسينوي.

- فرقة كبيرة؟

- ثلاثون باخرة ثقيلة على الأقل.

- فلنهاجمهم على الفور!

- الحظ يحالفنا، صرّح الخصي؛ بسبب الرياح الشرقية العنيفة، بواخر الرومانيين لم تستطع أن تدخل مرفأ الإسكندرية. الحل الوحيد: سحبها. انطلق جدافو قيصر لمساعدتها، ونتوفر على معلومة مهمة؛ أسر فرساننا بعض المشاة غير الحذرين الذين كانوا في مهمة التزويد، خلف المتاريس، وأخبروهم أن قيصر بنفسه كان على المركب الأول!

ابتسمت أرسينوي ابتسامة كاسرة.

- أصبح الإمبراطور أحمقاً! هذه المرة، وقّع عريضة موته.

- أخبرنا الأسرى أيضاً أنه بفضل كليوباترا اكتشف الرومان ماءً صالحاً للشرب.

غيّرت ابتسامة حاقدة وجه الفتاة القبيح.

- سأقتلع عينيها وأقطع لسانها! اذهب لتقتل قيصر، جنرالي الوفي، واحضر جثته.

*

بعد أن حفّزهم حضور زعيمهم الأعلى، قطع الجدافون بوقتٍ ممتاز المسافة التي تفصلهم عن أسطول الإنقاذ الذي انحرف على بعد عشر كيلومترات من الإسكندرية، إلى كاب خيرسون.

بعد سلام وتحيات مختصرة، جاءت أعمال السحب مباشرة تحت الأعين المنتبهة لقيصر وروفين الذي كان صوته القوي يحثُّ البحارة على الإسراع؛ لم يقع أي حادث، واتجهت القافلة نحو الإسكندرية.

كان **الإمبراتور** يأمل بتعزيزات أخرى، أكثر أهمية، لكن تلك التي وصلت ستمكّنه من تقوية وضعيته وتعزيز آمال النصر. هذه المساهمة من الرجال والعَتاد ستُخفف عن الشجعان الذين صبروا رغم الظروف المروِّعة.

في مقدمة الباخرة الأميرالية، أثار قيصر، مرة أخرى، إعجاب رجال فيالقه الذين قدَّروا صفاء ذهنه وتصميمه وشجاعته الجسدية. من دون زعيم بتلك المكانة، كانت حرب الإسكندرية لتتحول إلى كارثة.

فترة الرخاوة النسبية كانت وجيزة.

على مستوى المرفأ الكبير، في عُرض البحر، العديد من سفن العدو الحربية.

- كنت أظن أن أسطولهم قد دُمّر، دمدم روفين متشنجاً.

- أفلت مرفأ ووِرَش الغرب من الحريق، ذكّره قيصر.

- هل نحن قادرون على مواجهتهم؟

- برهنت بحريتنا عن قدراتها.

بعد أن تواصلوا من خلال الإشارات، سجّل القباطنة أوامر قيصر: تشكيل جبهة واسعة، وجعل الباخرة الأميرالية في الوسط.

إذا كان هدف السكندريين هو فقط القضاء على **الإمبراتور**، سيحددون معطفه الأحمر وسينقضّون عليه.

أقل عمل أخرق سيقلب الفخ لصالح أرسينوي.

استعد روفين للصدام؛ ممسكاً سيفاً في كلتا اليدين، سيمنع المهاجمين من الوصول إلى البطل الذي كرّس له حياته.

وكان الطُّعم لا يقاوم! مثاراً، بعث جانيميد عشر بواخر للهجوم على السفينة الأميرالية. انغلق فكا الكماشة، صدم الرومان جَنَبات السكندريين وهرعوا إلى المهاجمة.

بينما كانت الرياح تهدأ والشمس تغرب، كان انتصار قيصر يأخذ حجماً غير منتظر؛ بقلب مسعور، اضطر جانيميد إلى الانسحاب من أجل إنقاذ آخر بواخره. كان يكفي قيصر أن يوقف الهروب كي يقضي على خصمه، لكن باخرة رودسية، بعد خطأ في المسار، كانت محاصرة؛ طار **الإمبراتور** لإنقاذها مع جميع قواته وحافظ على طاقم كامل.

مع تقديره لتدخل زعيمه، أسف روفين على إنهاء الأمر.

- فلنقضِ عليهم!

- الليل يجعل الملاحة خطرة، قدَّر قيصر.

- ستضيئنا المنارة!

- فاجأنا ظهور أسطولهم؛ بلا شك ترغب أرسينوي في جرنا إلى فخ. من المرفأ الغربي، الذي لا نسيطر عليه، يمكن أن تخرج سفن كثيرة.

هزّ روفين رأسه؛ لم يغتصب قيصر لقب **الإمبراتور**.

62

كانت كليوباترا تعرف كيف تبدو صريحة، لكنها كانت تفضّل إخفاء مشاعرها العميقة؛ أمام قيصر، كانت عاجزة عن ذلك، لكثرة ما كانت مشاعرها متأجِّجة.

- تعرضت لمخاطر لا معنى لها!

- الصراع كان يقتضي ذلك.

- هل فكرت في؟

- أخشى ذلك.

- تخشى... تخشى أن تحبني؟

- الحرب والحب لا يتعايشان، كما يبدو؛ معك أنت، كل شيء مختلف، مختلف...

أخذهما شغف قبلتهما إلى مملكة حيث وحدها تحكم نشوة العاطفة.

كانت كليوباترا أول من فتح عينيه.

- لسنا في نهاية هذه الحرب، أليس كذلك؟

- حضّرت لنا أرسينوي مفاجأة سيئة، وليست الأخيرة؛ الحل الأفضل هو أن نهاجم المرفأ الغربي من دون تأخير.

- يجب أن تسيطر على الهيباستاديوم الذي يقسم الميناء، لكن المعاقل لن تستسلم بسهولة.

- ما هي الاستراتيجية التي تقترحينها؟

- لا تترك أرسينوي تسترجع أنفاسها.

أصله من جزيرة رودس، كان القائد أوفرانور قد أمضى من الوقت على باخرته أكثر مما أمضى على الأرض اليابسة؛ بشرة داكنة، كتفان عريضتان، ساقان قصيرتان، كان بحّاراً استثنائياً ومبجلاً لقيصر. القتال من أجل قيصر كان يحمّسه، ولا شيء كان يبدو له من دون معنى إذا أملاه الإمبراتور.

أراه قيصر خريطة الميناء، وحددت كليوباترا الخطر الرئيسي.

بين أسطولينا، واحد في الشرق والآخر في الغرب، يوجد كَثيب من الرمال يحمي سفن أرسينوي، والممر ضيق جداً.

- سوف أرتب الأمر؛ تكفيني أربع سفن. بينما أحاصر الخصم، ستقوم باقي بحريتنا بكسح المجال.

- قد تصطدم بمقاومة قوية، عارضته الملكة.

- أتوقع الأسوأ والأفضل؛ الإبحار في مكان ضيق يحتاج إلى كفاءات نادرة، وسيخوض الإغريق في الوحل!

- سنستعمل كامل أسطولنا، قرر قيصر.

*

لم يخفِ جانيميد الحقيقة عن ملكته.

يتوفر قيصر على أربع وثلاثين باخرة، نحن، نملك سبعاً وعشرين؛ هذا التفاوت البسيط لا يجب أن يقلقنا. تلك البواخر ثقيلة وستسقط على كثيب الرمل الذي يحمي مرفأنا.

- لماذا لم تنجح في قتل الروماني؟

- لقد نصب لنا فخاً شيطانياً! من حسن الحظ أننا انسحبنا في الوقت الضروري، وقدراتنا لم تصب.

وهي منفعلة، داعبت أرسينوي حبات قلادتها.

- هل أنت متأكد؟

- تركتُ قيصر يعتقد أنه من اليسير أن يسحقنا؛ عندما سيحاول الهجوم على الميناء الغربي، سوف نكسر أسنانه. الشعب يساندك، وأنا أحضّر استقبالاً جيداً للإمبراطور.

هدّأت ثقة الجنرال الفتاة الشابة؛ مهما كانت كثافة هجوم الرومان، سيفشلون.

*

حضر العجوز وريح الشمال صعود الجنود المتمرسين، المكوَّنين للنخبة من القوات المتاحة لقيصر. خرجت الأربع والثلاثون سفينة من الميناء الشرقي، أحاطت بجزيرة فاروس وأخذت مقاعدها في مدخل الميناء الغربي، مستعدة لمواجهة أسطول الخصم الذي كان يعتقد نفسه في مأمن بسبب كثيب الرمل الذي يجعل المدخل ضيقاً ووعراً.

حينئذٍ حاول القائد أوفرانور وسفنه الأربع مناورة تبدو انتحارية. من جهة، لم يكن متأكداً من اجتياز الحاجز من دون أضرار؛ من جهة أخرى، في حالة النجاح، لن يقاوم هجوماً من السكندريين، وسريعاً ما سيتم سحق رجاله.

لم يكن أوفرانور يهوِّن من المخاطر، لكنه كان يثق في كفاءته الملاحية ويعرف أن تلك الاستراتيجية كانت جيدة. متّبعين تعليماته، تفادت السفن الأربع كثيب الرمل وتجمّعت على بعد مسافة قليلة من العدو الذي انطلق هجومه.

عكس ما كان منتظراً، استطاع البحارة والرماة احتواء السكندريين، في حين دخل باقي الأسطول الروماني، الذي تعقب

خُطى الرودسي، المرفأ الغربي. من ذلك الحين، منع انعدام المكان السفن من المناورة؛ تصادمت، واختلطت، وبدأ صدام شديد العنف. معتادين على هذا النوع من الصراع ومتدربين تماماً، استطاع رجال الفيالق أن ينتصروا، وغادر السكندريون، المنسحبون، بواخرهم، واحتموا في قلب الأحياء المجاورة حيث تجمّع المشاة. كانوا يأملون جر الرومانيين، لكن بعد أن تحقق الانتصار وتمَّ احتلال الميناء الغربي، لم يشأ قيصر أن يغامر أبعد من ذلك.

- غداً، أعلن لروفين، سنُفاجئ الخصم باحتلالنا لجزيرة فاروس ثم الهيباستاديوم، الطريق الذي يربطها بالإسكندرية. عندما نَسُود عليها، سيكون فتح المدينة سهلاً. وأنا ما زلت آمل في وصول تعزيزات جديدة، إذا استطاعت رسائلنا أن تصل إلى حاميات آسيا الصغرى؛ حالياً، ليس لنا سوى أن نعتمد على أنفسنا. هل تظن أن ليلة راحة ستكون كافية؟

- سيكون رجالنا قد تعافوا، أكّد ملازم الإمبراطور؛ هذا النجاح يعطيهم قوة إضافية.

كانت الشمس تغرب، فكّر قيصر في كليوباترا المكلَّفة بحماية القصر؛ ستعرف كيف تصدّ غارة العدو ولن تتخلى ولو عن شبرٍ واحد من الأرض. عشيقة بسيطة، مغامرة إضافية تضاف إلى قائمة النساء اللواتي فتنهن قيصر؟ لا، ملكة حقيقية يفتح حلمها أفقاً جديداً.

كليوباترا، ساحرة إيزيس. . . حبسته في الإسكندرية، مرغمة إياه على خوض حرب كان يتمنى تفاديها. حرب نهايتها مجهولة، ترغمه على التأقلم بلا توقف، بحسب ظروف غير متوقعة.

كليوباترا كانت أوّل امرأة ترغمه على التفوق على ذاته.

63

أذهلت مناورة قيصر الجنود السكندريين الذين يحتلون جزيرة فاروس؛ شنّت البواخر الرومانية هجوماً من طريق البحر، بينما برز بعض رجال الفيالق الذين يستعملون الزوارق من جنب الميناء. مذهولين، مفتقدين لزعيم قادر على تنظيم دفاعهم، استسلم السكندريون للذعر، تخلوا عن مواقعهم وارتموا في البحر، آملين الوصول إلى رصيف حي الراكوتيس سباحة.

تلك المبادرة المؤسفة أسفرت عن مذبحة؛ قتل الرومان أقصى عدد من الهاربين وأسروا ستمئة آخرين. حالياً، أصبح قيصر سيّداً على المنارة وجزيرة فاروس؛ بقي أن يستولي على الطريق الذي يربطها بالمدينة.

الهدف الرئيسي من العملية: منع كل اتصال بين المرفأين الغربي والشرقي، وبالتالي حبس قوات أرسينوي في معزل.

كان السد الكبير يتكون من جسرين؛ استولى قيصر بسهولة على الأول وأمر رجاله بغلق المنفذ الموجود تحت عقد الجسر بالحجارة: ثلاث جماعات تكفي للمهمة.

- كارثة، أعلن أحد الناجين للجنرال جانيميد والملكة

أرسينوي؛ قَتَل الرومان أغلب رجال حامية جزيرة فاروس، أعدموا آخر المقاومين ونهبوا المنازل. قيصر هذا لا يُهزَم!

صفع الخصي الرجل الجريح.

- أنت، جبان وغير كفؤ! خلِّصوني من هذه النفاية.

اختل توازن أرسينوي.

- ألا يجب أن نبتعد من الإسكندرية؟

- هذه النكسات ليست حاسمة، صاحبة الجلالة؛ تبقى أعدادنا أكبر من أعداد الرومان ونحن قادرون على القيام بالضربة القاضية.

جاء أحد الضباط مسرعاً.

- جنرال، يحتل قيصر الجسر الأول من السد وهو يسد الطريق!

- يريد أن يقطع علينا طريق البحر ويحاصرنا... كم فيلقياً يقوم بالعمل؟

- على الأقل ثلاث مجموعات غادرت بواخرها.

- غادرت بواخرها! تعجّب جانيميد؛ وقيصر يوجد ضمن رجاله؟

- نحن نعرفه من معطفه الأحمر.

- هذه المرة، الخطأ المبالغ فيه!

*

كان الممر الأول قد أُغلِق ورجال الفيالق فرحين من إنجازهم عندما تمَّ شن هجوم مزدوج، في اللحظة التي كان فيها قيصر ينهي رسم خريطة مفصَّلة للميناء ومنشآت العدو.

كان جانيميد قد أرسل كل سفنه التي لم تلقَ أي مقاومة، بما أن سفن قيصر كانت شبه فارغة؛ أرسل رماتهم وابلاً من السِّهام على

الرومان الذين لم يكونوا قادرين على موافاة سفنهم. والسد، المنفذ الوحيد للإفلات من الضربات المميتة، اجتاحه المشاة الذين منعوا الانسحاب وقتلوا عدداً كبيراً من رجال الفيالق المضطرين للتراجع.

وهو يرى رجاله يسقطون من حوله، كان قيصر محاصراً؛ كان جنوده يحمونه على قدر استطاعتهم، حاول روفين عبثاً شنّ هجوم مضاد. تسلق البحارة القادرون السد، عازمين على تحرير الإمبراتور، لكنهم اصطدموا مع السكندريين الهائجين، القريبين من تحقيق نصر تام.

- إلى المراكب! أمر قيصر.

كانت الأمل الوحيد للإفلات من الإبادة؛ اختراق ممر تطلّب من رجال الفيالق شجاعة وإرادة نادرتين، لشدة ما كانت كتلة الخصم متماسكة. رغم فداحة خسائرهم، أحدثوا فجوة حيث اندفع قيصر.

قفز الناجون في الزوارق وأمسكوا المجاديف؛ في لحظات أصبحت ممتلئة وابتعدوا ببطء من السد بحيث أصبحوا أهدافاً مثالية للرماة ومستعملي المقالع السكندريين.

لم يفلت زورق قيصر من الطوفان، وبعد أن أصبحت ثقيلة بسبب الجثث والجرحى، انقلبت؛ خلع معطفه وأمسك به بين أسنانه من أجل ألا يترك الرمز للعدو، احتفظ بيده اليسرى مرفوعة، ممسكة بالخريطة التي رُسِمت حديثاً، وسبح بقوة مدهشة.

- اقتلوه! صرخت أرسينوي، ملاحظة أن ذلك الرياضي ذي الاثنتي والخمسين سنة يتجه نحو إحدى سفنه التي كان طاقمها سالماً؛ نظراً إلى المسافة التي كان عليه أن يقطعها، كان هروبه معرضاً للفشل.

لامست سِهام وكُرات من الرصاص السبّاح الذي أُجبِر على

التعرج؛ تافه، هذا الاستعراض الأخير لن يسمح له بالإفلات. بعد أن يُضرَب حتى يقضى عليه، سيموت الغازي الشهير بطريقة بئيسة في ميناء الإسكندرية.

*

لم يعرف أبولودور كيف ينقل الخبر العنيف لكليوباترا، لكن مسألة إخبارها كانت حيوية؛ هزيمة الرومان ستتبعها هجوم قوات أرسينوي، وستتم تصفية ما تبقى من رجال الفيالق. حلم الحكم سينهار، والمنفى سيكون حتمياً.

كانت الملكة راجعة من جولة تفقدية للحواجز التي تضمن الحماية لحي القصور؛ ماذا تعني الهتافات الآتية من الميناء الغربي؟ هل سيطر عليه قيصر؟

أقلق وجه الصقلي المنغلق كليوباترا.

- ماذا يحدث؟

- قائد إحدى السفن الرومانية سرد لي الأنباء الأخيرة.

أصبح صوت الحاجب أجشاً.

- إذن تحدث!

- استولى قيصر على جزيرة فاروس، ثم أراد أن يسد الطرق بين جزأي الميناء. كان النصر يبدو مكتسباً...

- ولم يكن ذلك سوى ضرباً من الوهم؟

- استفاد أتباع أرسينوي من تراخي خصومهم وقاموا بمحاصرتهم؛ أصبح السد مقبرة حقيقية. لقد هُزِمنا، صاحبة الجلالة، يجب أن نغادر الإسكندرية.

- قيصر؟

أحنى أبولودور رأسه.

- أين هو؟

- مات قيصر غرقاً، صاحبة الجلالة.

بقيت كليوباترا هادئة.

- لا، هو حي.

64

راقبت كليوباترا المرفأ وذراعاها متشابكين؛ في الغرب، سفينة تحترق.

- مات قيصر، صاحبة الجلالة، وأنت في خطر كبير، ألحَّ الحاجب.

- أنت مخطئ؛ لو انتزع القدر عشيقي، لكنت عرفت.

- لوَّح جانيميد بمعطفه الأرجواني!

- عمل حقير، لم يكن معطفه! لا أحد يأسر قيصر، لا أحد يسرق منه شعار سلطته.

- صاحبة الجلالة...

- أنا ذاهبة لملاقاته.

دون أن تغيّر ثيابها، خرجت كليوباترا من القصر ومشت نحو المرفأ الملكي.

سفينة في حالة سيئة دخلت إليه، كان البحارة يقومون بحركات واسعة؛ رست السفينة عنوة، وُضِع جسر، وظهر.

منهكاً، محتفظاً برأسه مرتفعاً، يرتدي معطف الإمبراطور ووثيقته في يده، كان قيصر سالماً.

رؤية الملكة، معانقة المرأة التي يحب أعادا له كل قوته.

- اؤمُر بالتراجع التام، قال لروفين، الذي كان هو أيضاً قد نجح في الإفلات من النزاع الدموي.

*

بفضل مهارة القائد أوفرانور، لم يدمَّر الأسطول الروماني بأكمله، لكن حصيلة هزيمة الهيباستاديوم كانت ساحقة. قتل ثمانمئة فيلقي، فُقِد العديد من البحارة، جُرِح الآلاف، خسارة الميناء الغربي وفقد السيطرة من البحر؛ بعد أن كانوا قريبين جداً من النصر، كان قيصر ورجاله على وشك أن يلاقوا حتفهم.

لم تبدِ كليوباترا أي علامة تدل على التشاؤم، وكان نشاطها مُعْدٍ؛ كونهم لا يتنازلون أبداً، دعم الرومان مواقعهم، أحسوا بالأمان واسترجعوا أنفاسهم. رغم الضعف الذي أصابهم، كانوا لا يزالون قادرين على الدفاع عن أنفسهم، والخصم، لإحساسه بخيبة أمل لعدم قيامه بالضربة القاضية، كان يخشى إحدى تلك المبادرات الجنونية التي كان قيصر وحده يعرف سرها.

دفن السكندريون والرومان أمواتهم، وتجمّدت خطوط القتال؛ انقسمت المدينة الكبيرة نصفين، وعسكر كلا الجيشين كل على ممتلكاته. كان أتباع أرسينوي يمسحون جراحهم، ويعيدون إنشاء بحريتهم ويعدّون هجوماً حاسماً.

كونهم بناة مهرة، أقام الرومان معاقل حقيقية لن تستطيع أي قوة مهما كانت متدرِّبة أن تهدمها دون أن تتكبد خسائر ثقيلة؛ وكان قيصر يأمل بوصول تعزيزات جديدة. بعد أن تمَّ إعلامه منذ أكتوبر سنة (48-)، استغرق حليفه ميثريدتس دو برغامس لتكوين جيش، لكنه لن يتأخر عن تقديم العون له. ضرورة واحدة: الصمود.

أبدت كليوباترا رغبة أخرى؛ رغم تدخّل طبيبها الخاص ومساعديه، مات العديد من الجرحى. أقنعت قيصر بالذهاب إلى كانوب من أجل طلب مساعدة إيزيس، المعالِجة الكبيرة.

*

كانت هناك قناة تربط الإسكندرية بكانوب، في الماضي كانت مدينة ملذات حيث يحيي السكندريون حفلاتهم التي يكثر فيها الشرب؛ على حافة شريط رملي، يحميها من الرياح السيئة رأس زفريون، كانت البلدة الصغيرة تفتخر بوجود مزارين مخصصين لسيرابيس وإيزيس. قبل الحرب، كانا يجذبان جموعاً من الحُجّاج، حيث يقيم المرضى في غرف مظلِمة؛ هناك، خلال نومهم، تقوم الآلهة بشفائهم.

على عتبة معبد إيزيس، قدَّم هرمس إناء كبيراً يمثل غطاؤه رأس أوزوريس، الذي انبعث خلال الفيضان.

- لقد تأخرت، أعلَن بصوتٍ جَهوري؛ لكن الإلهة لا ترفض مساعدتك بما أن ملكة مصر لم تنسها. هذه المياه المُنقِذة، التي ولدت من دموع الشمس، ستمسح معاناتك.

قدّمه هرمس لكليوباترا، أدار ظهره للثنائي ودلف إلى المزار.

- بواسطة هذه المياه المقدسة، أكدت الملكة؛ سنعيد صحة الجرحى.

- هل يرفض هذا الكاهن المجيء إلى البلاط؟

- هرمس لا يمكن الإمساك به؛ هو وحده يقرر تدخلاته.

تذكر قيصر أنه قرأ كتاباته في مكتبة الإسكندرية؛ كما يؤكد ذلك القدامى، كانت مصر الأرض التي تحبها الآلهة ووطن أسرارهم.

*

كان الجنرال جانيميد غاضباً. أن يفشل بهذا الشكل، بعد أن كان قاب قوسين من النصر! الهجوم المفاجئ على السد كانت فكرة عبقرية، والخصي لا يفهم كيف استطاع قيصر أن يفلت من ذلك الفخ؛ هل تُحرِّك قوة خارقة ذلك الرجل الشيطان؟ أثار إنجازه كسبّاحٍ السكندريين إلى درجة أن البعض منهم أصبح يخشى العودة إلى القتال.

محترماً ومعتبراً كفؤاً، اشتغل جانيميد على رفع معنويات جنوده ومعنويات السكان الذين تأثروا بعدد الموتى والجرحى؛ تمَّ دفن جزء من الجثث في المقبرة الغربية، في حين تمَّ حرق الجزء الباقي. بالكثير من مساحيق التجميل والمجوهرات المبهرجة، أظهرت أرسينوي غضبها.

- لماذا لا تقوم بشن الهجوم النهائي؟

- لأنه لن يكون كذلك، صاحبة الجلالة! سنعرِّض أنفسنا لفشلٍ ذريع.

- هل يشلُّك الخوف؟

- قيصر ليس عدواً عادياً، ودفاعه لا يسهّل تقويضه؛ لن يسمح بأن يأخذ عنوة مرة أخرى. الانتصار عليه يتطلب إعادة تكوين قواتنا والزيادة فيها؛ بما أن الرومان قد خسروا التحكم في المرفأ والبحر، سنصنع سفناً خفيفة وسريعة.

- ألا تضيع وقتاً ثميناً؟

- أؤكد لك العكس.

- وإذا قمت بتغيير الجنرال؟

غاب صوت جانيميد بشكل أكبر.

- كما يحلو لك، صاحبة الجلالة.

عدّلت أرسينوي من وضعية خصلة ثائرة ورمقت الخصي بنظرة محتقرة.

- أن أمنحك ثقتي امتياز كبير؛ لا تخذلني. فليقم جيشي بسحق الرومان وتلك الأفعى كليوباترا.

65

لم يكن شتاء الإسكندرية تنقصه القسوة؛ كانت الشمس نادراً ما تغيب، لكن الرياح الشمالية والغربية كانت تهبُّ غالباً بقوة وتلطّف الجو. موجات كبيرة كانت تتكسر على السدود والجزر، جاعلة الملاحة مستحيلة.

حتى رداءة الأيام لم تكن تقلل من حماس الرومان الذين كانوا يواصلون تقوية حي القصور بغلق كل منافذه؛ محتلين مواقعهم في أعلى البنايات والمنازل، كان المراقبون مستعدون لإصدار تنبيه في حالة الهجوم.

ذُهِل العجوز، كانت مياه إيزيس قد شفت جروح جنود قيصر، الذين نسبوا تلك المعجزة إلى كليوباترا، التي أصبحت تُعتبر مثل ساحرة ستقهر قدراتها العدو.

عمَّ هدوء غريب؛ كل صباح، كان رجال الفيالق يتوقعون هجوماً لا يحدث. وكان الوقت، بحسب قيصر، يلعب لصالحهم، لأن جيش الإنقاذ سينقذهم في النهاية.

لم يكن الرومان ينقصهم شيئاً؛ كان الحاجب أبولودور والعجوز يمارسان تعاوناً مثالياً، يضمنان إيصال المواد التي تفد من المناطق النائية. وكانت كليوباترا تنظِّم ولائم رائعة تقدم فيها عشرات الأطباق

في صحون فاخرة بلمسات الأزرق والأخضر؛ مزهريات، وأطباق، وصحون مزينة بمشاهد إراقة الخمور، تمثيلات اللَّبلاب، والغار، والوريدات، وحيوانات تتصارع في مناظر خضراء، وآلهة قديمة، مثل بِس، والقزم الملتحي، حامي المواليد.

ذواقاً، كان قيصر يستمتع بمتعة أخرى؛ في نهاية الوجبات، كانت كليوباترا تعزف على إحدى الآلات، الناي، أو السيتار، أو القيثارة، بموهبة موسيقية محترفة؛ مسحورين، كان الحضور يصمتون ويتذوقون الألحان المرحة أحياناً، والواهنة أحياناً أخرى.

كانت الملكة تعرف كيف تُنسي الإمبراطور القلق من الغد؛ جمال القصر، وأناقة منحوتاته ولوحاته وفسيفسائه كانت تخلق إطاراً مضللاً، عالماً مصطنعاً، محمياً من اضطرابات الخارج.

مصطنعاً... باستثناء كليوباترا.

كان قيصر يحب أن ينظر إليها وهي نائمة؛ جميلة جداً، مسترخية جداً، بعيدة جداً من فظائع حرب يريد ذلك الثنائي غير المتوقع الفوز بها.

رؤى مرعبة كانت تسكن ليالي قيصر. أجساد مشوهة، جنود يصرخون من الألم، عذابات لا تنتهي... كانت كليوباترا الشباب والأمل. لم تكن ترفض تلك الحقيقة، لكن كانت لديها قناعة أن عالماً جديداً يمكن أن يولد، عالم مُستمدّ من مصر القديمة والمضيئة، اليوم، يغذي روحها.

عندما استيقظت، كانت نظرتها الأولى من أجل عشيقها، وتلك الهبة توسع قلبها. لم يتصور أبداً من قبل أن يعيش حباً جنونياً، والملكة الشابة ذات الذكاء الثاقب تمنحه تلك المعجزة.

الكثير من المعارك، الكثير من المعاناة، الكثير من الجثث،

وبعد أن تخطّى الخمسين، الهدية التي لا تقدر بثمن من راعيته، الإلهة فينوس، ملكة الحب السماوي والأرضي المجسَّدة في كليوباترا.

برفضه مغادرة الإسكندرية، كان قيصر على وشك أن يخسر كل شيء ولم يندم على قراره. أن يكون محبوباً أبعد من الشغف، أن يحس بالثقة، أن يقتسم لحظات لا تنمحي... كم من أحد كان له هذا الحظ؟

كابوس كان يهاجمه: مكتبة الإسكندرية تلتهمها النيران، الآلاف من الكتب فريسة لألسنة اللهب، رجال فيالق اخترقتهم السِّهام، آخر الشجعان يرضخون أمام ضغوط جموع هائجة، القصر الملكي محتلاً، كليوباترا ترمي طعاماً للمرتزقة...

يتصبب من العرق، نهض قيصر جالساً.

كانت سالمة، وعيناها الخضراوان تتأملانه.

التصقت به كليوباترا، فانسجمت انحناءاتهما.

- حلمك المزعج تبدد، همست بصوت نغماته آسرة؛ هل تتذكر حلمي؟

- إحياء العصر الذهبي...

- سننتصر، حبيبي، وسنذهب إلى دندرة.

*

كان بناء معبد دندرة يتقدم بخطوات كبيرة. تحت قيادة مقاول يقظ، يهتم بأقل تفصيل، كان البنّاؤون يشعرون بفرحٍ عميق لرفع أسوار مزار سيثير اتّساعه وجماله المراقبين السكندريين.

المحافظة بأكملها كانت مبتهجة لامتلاك مثل هذه العظمة، مصدر الرخاء؛ اعتباراً من بنائها وإرفاقها بالمباني الملحقة من وِرَش

ومصنع جِعَة وفرن، أصبحت دندرة مركزاً اقتصادياً يجذب ساكنة تشتغل بكدٍّ.

رافضة أن تستسلم للابتهاج، كانت الرئيسة تكتفي بالاهتمام بإقامة الطقوس اليومية بشكلٍ صحيح؛ كان قديس القديسين والمعبد المغطى يوفران لها إطاراً استثنائياً للاحتفال بالحضور الإلهي والحفاظ على نفوذه على الأرض. كان النحّاتون يحولون الأسقف إلى سماء حجرية حيث تبحر قوارب الليل والنهار التي تنقل شمس المساء كي تحييه في الصباح؛ كان المنجِّمون يكشفون فيه رسالة النجوم الخالدة التي لا تعرف الكلل، وكانت نظرة الممارسين للطقوس تحمل إلى أبعد من الأفق البشري.

بمناسبة الاحتفالات التي تقام من أجل الاحتفال بإحياء أوزوريس، أقامت العجوز مأدبة على شرف الحرفيين.

لم تنخدع الرئيسة بصفاء المقاول الظاهر.

- ما هو سبب قلقك؟

- الأخبار التي جاءت من الإسكندرية سيئة، سيئة جداً.

- ومع ذلك تلقيت رسالة رسمية من الملكة كليوباترا! ليس فقط هي تأكد رغبتها الأكيدة في تمويل استكمال معبدنا، لكنها أيضاً ترغب في رؤيته بعينيها في أقرب فرصة ممكنة.

- ذلك الحلم لن يتحقق وتلك الرسالة ليست سوى وهماً. عشيقة للجنرال الروماني يوليوس قيصر تصطدم كليوباترا بجيش شقيقتها أرسينوي. الحرب الأهلية على أشدِّها، الرومان يواجهون السكندريين، انقسمت العاصمة نصفين، ولا أحد يمكنه أن يتكهّن بنتيجة الصراع الذي سبّب الآلاف من القتلى. مهما يكن، سيحكم المنتصر على حقل من الخراب، بما أن المكتبة والمتحف قد دمرهما

حريق، كما أصبحت بعض الأحياء مشوهة؛ تأكدي من هذا، ستكون دندرة منسية.

- رواتب فرقك هل هي متوفرة؟

- بحسب تعليمات القصر الملكي، يقوم رئيس المحافظة بواجباته.

- إذن، كليوباترا تحكم وتفي بالتزاماتها! لاحظت الرئيسة.

- اعتقدت أنها ستنتصر، لكن جانيميد، الجنرال القائد لقوات أرسينوي، قلب الوضع لصالح ملكة الإسكندرية الجديدة. قيصر وكليوباترا محاصران؛ فلتكوني حذرة واتلفي تلك الرسالة التي يمكن أن تورطك.

- هل معبدنا. . . مهدد؟

لم يخفِ المقاول تشاؤمه.

- أرسينوي تكره شقيقتها الأكبر وستهدم كل ما بنته. رمز في الجنوب لحكم كليوباترا، لن تفلت دندرة للعاصفة، قريباً، ستظهر ميليشيات الإسكندرية من الرصيف.

وهي تحس بالأسى، لم تستخف الرئيسة بكلام المقاول.

- بفضل بعض المخبرين، سأعلمك ذلك عشية. أنت وكليتك الكهنوتية، يجب أن تهربوا.

- وأنت؟

- لن أشاهد عملي يُدمَّر وأنا مكتوف الأيدي. سيكون لحرفيي الاختيار: أن يغادروا، أو أن يبقوا بجانبي.

تأملت المرأة العجوز مزار الإلهة حتحور.

- هل تتصور أني سأغادر معبدي؟

66

بناءً على دعوة من اليهودي أنتيباتر، اجتمع تجار الإسكندرية الرئيسيون في سرية تامة في فيلا وضِعت تحت حماية حرّاس لا ينتمون إلى جيش جانيميد. تحدّث المشاركون بحرية، وكان مُصَدِّرُ القمح الرئيسي هو أول من تناول الكلمة.

- هذه الحرب تفلسنا: تعيش الإسكندرية دماراً عنيفاً، مات العديد من الرجال، وخزائننا فارغة. يجب أن يتوقف هذا الهراء.

- بعضكم يساند قيصر وكليوباترا، وآخرون أرسينوي، ذكّرهم أنتيباتر.

- دعونا نخرج من هذا المأزق، اقترح صانع أمفورات؛ إذا استمر هذا الصراع، ستكون نهاية مدينتنا. دعونا ننسى آراءنا الحزبية ولنحاول الحصول على السلم.

- لن تقبل أرسينوي وجانيميد أي مفاوضات! عارض رئيس بائعي العطور؛ يريدان موت كليوباترا وهزيمة قيصر.

- إذن، فلنتخطَّهما! وليذهب عميدنا للقاء الروماني وليطلب منه تحرير بطليموس؛ بهذه الطريقة، سيتم احترام إرادة الملك الراحل. الزوج الملكي الشرعي، المكوَّن من كليوباترا وبطليموس الثالث عشر، سيحكم من جديد، وستتم إعادة النظام.

- سيضحك قيصر من هذا الاقتراح، أكد أحد كبار مالكي مصانع الزجاج.

- هذا الروماني ليس متعصباً وسيخشى الموت في أرض أجنبية! بالعكس، سيقدِّر اعتدالنا وسيتقدم كوسيط.

وأعقب ذلك مناقشة حامية؛ لم يكن لأنتيباتر سوى هدف واحد: يجب ألا يُعلِن الاجتماع العداء لقيصر. تحققت أمنيته السرية، وبالإجماع عيّن التجار عميدهم سفيراً، مالك سفن غني كلَّفوه بمهمة محددة: تحرير بطليموس، المرادف لعودة السلم والازدهار.

*

مرور العجوز من المنطقة التي يسيطر عليها أتباع أرسينوي إلى معزل قيصر وكليوباترا كان محفوفاً بمخاطرٍ عدة؛ متوفراً على الشبكة اللازمة لإبلاغ حلفائه، قام أنتيباتر بتلك العملية الحساسة.

بعد أن تمّت مرافقته بحسب الأصول، تقدَّم دبلوماسي المناسبة أمام قيصر وكليوباترا. بصوت متهدج، عبّر عن قلق تجار الإسكندرية واعتراضهم على استمرار الأعمال العدائية.

- أفكار جميلة، قدَّرت الملكة؛ لكن كيف تريد تهدئة أرسينوي الهستيرية؟

تشجّع العجوز.

- الحل في يدك، أنت، الزوجة الرسمية لملكنا بطليموس. فلتعيدا له، أنت وقيصر، سلطته الشرعية، وستتوقف انتفاضة الأميرة أرسينوي.

- هل تعني... الإفراج عن بطليموس؟

- بالتأكيد، صاحبة الجلالة.

- وضع قيصر يده على يد كليوباترا، التي كانت ترتعش من الغضب.

- لماذا سنأخذ هذه المجازفة؟ سأله **الإمبراتور**.

- تحتاج التجارة إلى الاستقرار؛ سيجبر ملكنا أرسينوي على نزع السلاح، وستستعيد الحياة مجراها الطبيعي.

- سندرس اقتراحك أنا والملكة.

انسحب الثنائي، وقدَّم الحاجب أبولودور الجِعَة للعجوز، الذي كان سعيداً لأنه لم يثر غضب قيصر.

*

- إنه فخ واضح! عبّرت كليوباترا؛ هذا العجوز رسول أرسينوي التي تحس أنها غير قادرة على خرق دفاعنا!

- أنت مخطئة، لقد أرسله حليفنا أنتيباتر.

غلبت الحجة المرأة الشابة.

- يخشى التجار أن يفتقروا، قدَّر قيصر، وضعفهم لا يفاجئني؛ أما بالنسبة إلى السكندريين، ألا يفكرون بطريقة ويتصرفون بأخرى؟ أنت في وضع يؤهلك لمعرفة نفاق سكان عاصمتك!

استعادت الملكة هدوءها.

- محبوساً في القصر، كان الملك ذو الأربع عشرة سنة حِملاً ثقيلاً؛ بالإفراج عنه، ستثبت شهامتك واحترام قوانيننا. بالإضافة إلى أن ظهوره من جديد سيثير البلبلة في المعسكر الخصم وسيظهر أرسينوي مخطئة.

ابتسم قيصر.

- لم أكن أنتظر أقل من هذا من يقظتك.

- استعمال بطليموس الصغير كسلاح. . . أليست استراتيجية محفوفة بالمخاطر؟

- هل يوجد أفضل منها؟

*

كان بطليموس الذي أصابه الهُزَال، والتعب، والخرج من الطفولة، يبدو تائهاً. الفيلقيان اللذان أخرجاه من سجنه الذهبي ألا يقودانه إلى الموت؟ رغبة منه في الانتقام لمقتل بومبي، ألن يقطع قيصر رأسه؟ حقودة، ألم تطالب كليوباترا باختفاء شقيقها!

خائفاً، اجتاز المراهق عتبة قاعة الاستقبال الكبيرة في القصر. كان قيصر وكليوباترا جالسين جنباً إلى جنب، على وسائد وثيرة، كليوباترا ترتدي فستاناً أزرق أنيقاً، بينما قيصر رداءً أحمر، كانا يتناولان حلويات ويشربان نبيذاً أبيض.

لا جنود ولا تهديد واضحاً.

- اقترب، صاحب الجلالة، أمره قيصر ودياً.

متردداً، اقترب بطليموس؛ مسترخية، لم تُظهِر كليوباترا أي عداء.

- هذه الحرب استمرت لفترة طويلة، أعلن الإمبراتور، وليس جيداً أن يؤخذ الملك رهينة. هذا الحدث التعيس أخلَّ بفكر أرسينوي والعديد من سكان الإسكندرية؛ حان الوقت لنعيد إليك حريتك وصلاحياتك.

- أنت. . . أنت تسخر مني؟

- أبداً، أكدت كليوباترا؛ أليست هذه الوسيلة الوحيدة لاستعادة السلم؟

- أجل، أجل، أنا مقتنع. . .

- طيب، قرر قيصر؛ فلنعلنه!

يحيطان ببطليموس الصغير، مصعوقاً، اصطحبه قيصر وكليوباترا إلى قاعة العرش حيث كان يجتمع الحرّاس الرومان وموظفو القصر.

ممسكاً بوضوح بيد الملك الشاب اليمنى كأنه أب، قدم الإمبراطور بياناً رسمياً.

أحثَّ بطليموس الثالث عشر على السهر على عرش أسلافه، لاستعادة الازدهار الذي قوّضه هذا الصراع العنيف وأن يعيد أتباعه إلى رشدهم. بهذه الطريقة سيحميهم من الويل ويدعّم صداقته مع روما.

أفلتت أعصاب المراهق، سكب دموعاً؛ وبدا قيصر نفسه متأثراً.

- أفضِّل البقاء هنا، بالقرب منك، أستفيد من حكمتك ومن حمايتك، قال بطليموس للروماني؛ ما زال أمامي الكثير لأتعلمه!

- هذا التواضع يشرِّفك، صاحب الجلالة، وسأشعر بفرحٍ عارم لرؤيتك بعد أن تقنع أرسينوي وجنرالها بنزع السلاح. هذه المهمة المقدسة ستمنحك تقدير شعبك.

مجففاً دموعه، اعتمد الملك الصغير هيأة وقورة، وأطلق قيصر يده.

- سأقوم بهذه المهمة، إمبراطور، وستكون فخوراً بي.

مرفوقاً بحامية، غادر الملك القصر؛ أعلن النذيرون إطلاق سراحه، ووصل الخبر بسرعة إلى أذني أرسينوي وقواتها.

من شرفة القصر، راقب قيصر وكليوباترا الموكب يتجه نحو معسكر الخصم.

- أثار قرارنا مشاعر أخيك الصغير، قدَّر قيصر.

- لا تكن ساذجاً، أوصته الملكة؛ هذه الأفعى ليس له سوى فكرة في رأسه: أن يلحق بنا الأذى.

- ألم يبكِ؟

- كانت دموع فرح! حراً أخيراً، سيبدأ معركة حتى الموت.

67

حيّا جمع غفير وصول بطليموس، وأثنى عليه عميد التجار الذي كان مرفوقاً بزملائه الرئيسيين بطريقة مبالغة. متحمساً، هتف شعب الإسكندرية لملكه الذي استمتع مطولاً باستعادة هيبته قبل أن يدخل رفقة حوالي عشرة من الضباط الكبار إلى المنزل الفاخر حيث تتحصن أرسينوي والجنرال جانيميد.

متبرجة، ومتزينة، وترتدي أفخر الملابس، انحنت.

- هذه زوجتي العزيزة، ملكة مصر! هتف الملك الصغير؛ من الآن، ستطيعني وستلزم مكانها.

بقلب مستعر، لم تجرؤ أرسينوي على الاعتراض؛ كان صوت بطليموس قد تغيّر، كانت حدّته محمّلة بالوعيد. من الأفضل ألا تغيظه.

- سيفي في خدمتك، أعلن جانيميد؛ وأنا أنتظر أوامرك.

رمى المراهق الخصي بنظرة محتقرة.

- لا يوجد سوى قائد عام واحد: أنا، ملكك؛ وكان من واجبك أن تخدمني قبل الآن بسبب عدم كفاءتك، العدو سالم.

- صاحب الجلالة، أنا...

- اقتلوا هذا العاجز، أمر الملك ضباطه.

تحت عيني أرسينوي المرعوبتين، قاموا بقتل جانيميد. وأرغم الملك زوجته على تأمل الجسد المدمّى.

- هذا هو المصير الذي أحتفظ به لخصومي، عزيزتي؛ لا تنسيه.

هربت المرأة لتحتمي في جناحها.

- هل سنواصل القتال، صاحب الجلالة؟ سأله رئيس فوج المشاة.

- هل تشك في ذلك؟ بإطلاق سراحي، ارتكب الروماني المدّعي والساذج خطأً فادحاً! خلال فترة احتجازي، كان عندي الوقت لأفكر؛ لن نخرق خطوط دفاعه، لكننا سنلتف حولها. هل نتوفر على ما يكفي من السفن؟

- لقد قمنا بصناعة أسطول حربي جميل، أكّد الأميرال.

- سنهاجم في كانوب، حدد بطليموس، فنغرق السفن الرومانية ولنأخذ قيصر من الخلف. مفاجأة جميلة. . . إذا رفض الاستسلام، سنقطع رأسه، سأعرضها للشعب، وسترتعد روما! في المستقبل، لن تجرؤ على إزعاجنا. أما بالنسبة إلى كليوباترا، أريدها حية! تجرّأت على خيانتي، أنا، ملكها، وأحتفظ لها بأسوأ أنواع التعذيب. ستموت ببطء، ببطء شديد.

*

كان القائد أوفرانور يقدِّر السكندريات. قليلات الشراسة، بمزاجٍ نشيط، كنّ يستسلمن عن طيب خاطر لنزواته المتعددة ويعجبن برجولَة المحارب الداكن اللون، العريض الكتفين، التي لا تنضب. مستغرقاً في موجات من المتعة، كان مولود جزيرة رودس يحتفظ

بصفاء ذهنه؛ متأكداً من أن إطلاق سراح بطليموس لن يقود إلى السلم، كان يخشى هجوماً من أسطول العدو.

ميناء الإسكندرية؟ ممكن، لكنه أرضية صعبة؛ نقطة الضعف بحسب أوفرانور، كانت كانوب. شاطئ مسطَّح، أفق خالٍ يسمح بنشر السفن، وهدف: الاستيلاء على الذراع الكانوبي لنهر النيل واكتساح الإسكندرية.

ربما كان قيصر في خطر كبير؛ لذا، بموافقته، قرر القائد وضع جزء من سفنه أمام كانوب.

بمجرد أن انتهى العمل، في ذلك اليوم، العاشر من مارس سنة (47-)، حتى صاح المراقب محذِّراً.

بحرية بطليموس تُحضِّر هجوماً.

- نحتاج إلى تعزيزات، قدَّر مساعد أوفرانور.

- ابعث رسالة لقيصر؛ نحن، ليس لدينا وقت للانتظار! منذ بداية خدمتي، كنت دائماً أول من يبدأ القتال.

فاجأ ردّ فعل أوفرانور الخصم.

سريعاً، أبقرت سفينته سفينة معادية وأغرقتها؛ مرعوبين تراجع السكندريون إلى الخلف.

مثاراً، أراد أوفرانور تأكيد ذلك الانتصار الأول وتبع الفارين، دون أن ينتظر التعزيزات التي أبطأت في موافاته؛ لكن سرعته التي كانت منبعاً لانتصاراته، انقلبت ضدّه. تخطّى الرودسي ثلاثاً من سفن العدو وأمسك بالرابعة التي أراد أن يخرقها، لكنه وجد محاصراً في شِباك.

ثم كان الاشتباك.

رغم بسالته ومقاومة رجاله المستميتة، سقط أوفرانور تحت كثرة
د المهاجمين؛ عندما تمكن الإنقاذ من تفرقتهم، كان القائد
لشجاع، الذي اخترق صدره سهم، قد فارق الحياة.

*

- أنقذ أوفرانور حياتنا، أعلن قيصر وهو يحتفل بجنازة خادمه
لمخلِص؛ لو لم يكشف ضعف نظامنا الدفاعي، لكان بطليموس قد
ق النصر.

بعد أن استخلص الدرس من الحادث، قام الإمبراطور بتأمين
يق الفرع الكانوبي، مانعاً كل محاولة هجوم؛ بينما أخذ ملازمه
ين يراقب يومياً المتاريس والتحصينات.

- شكراً لأنك قمت بتحذيري، قال قيصر لكليوباترا؛ دموع
ك العقرب الصغير خدعتني تقريباً.

- أنضجه أسره وحوله إلى زعيم جيش؛ مهما تكن الصعاب،
لن يتراجع. العديد من السكندريين سيتبعونه حتى الموت.

هذا الاحتمال لم يُسعِد قيصر الذي كانت أعداد قواته أقل بكثير
قوات ملكٍ صغير، تحول إلى وحش، قادر على السيطرة على
ش. بعد أن تمّت تصفية الخصي جانيميد وتمَّ حصر أرسينوي في
خادمة، فرض بطليموس نفسه على رأس المشاة والبحارة الذين
نعهم بالقتال.

على المدى القصير، ستلهم استراتيجية المحارب الشاب:
جوم من كل ناحية بالزجِّ بكل قواته في المعركة الأخيرة.

لن يعيق رجال الفيالق ولا السفن الرومانية هذا الاندفاع.

- هل تقرئين أفكاري؟ سأل قيصر كليوباترا ذات النظرة الثاقبة.

- هل تهاب نهاية الطريق؟

أخذها إلى طرف الشرفة؛ ذلك المساء، كانت الرياح ضعيفة والبحر هادئاً. كانت أشعة الغروب تضفي على زبد الأمواج لوناً ذهبياً.

- تبدو عاصمتك نائمة، ملكة مصر؛ لكنها تستعد لتلتهمنا.
- إيزيس تقودني، فينوس تحرسك؛ حلمي سيتحقق.

68

في معسكر قيصر، حلَّ القلق؛ رغم مهاراته الاستراتيجية، لم يكن الإمبراتور يتوفر على الأعداد اللازمة كي يرد هجوماً كاسحاً من بطليموس الذي كان غضبه يحرك السكندريين. من يوم إلى آخر، ستهبُّ العاصفة، وسيأمر الملك الصغير بمجزرة.

- هذه المرة، حان الوقت لنغادر، قال العجوز لريح الشمال.

عبّر الحمار عن رفضه برفع الأذن اليسرى.

- لا أفهم عنادك! ليس لدينا أدنى فرصة للإفلات، الأعداد أكثر قوة وعدداً.

رافضاً النقاش، حمل ريح الشمال البريد للضباط الكبار الموزعين على خطّ الدفاع. مستسلماً، كان العجوز يستعد للنزول إلى القبو، حيث سيختار النبيذ الذي سيقدمه على مائدة كليوباترا، عندما لمح رسولاً يجري في اتجاه القصر الملكي، إقامة قيصر.

لم يشك العجوز: وقع حادث مهم؛ شرب جرعة من النبيذ الأبيض وأسرع بدوره. لن يتأخر بيان رسمي.

في الواقع، تحوَّل القصر إلى خلية نحل، تحركه شائعات مختلفة؛ ظهر قيصر ترافقه كليوباترا.

رسالة من صديقي وحليفي ميثريدتس دو برغامس: جيش الإنقاذ سيكون قريباً على مرأى من الإسكندرية.

*

كان بطليموس الصغير قد كبر وأصبح قوياً؛ وكانت القيادة قد منحته قوة غير متوقعة، ولم يكن أحد من الضباط يتحدّى سلطته. رغم أن هجومه البحري الأول قد فشل جزئياً، فالقائد الشهير أوفرانور فَقَدَ حياته خلال المواجهة، وفقدَ قيصر واحداً من أفضل بحّارته.

كانت هناك حاجة إلى هذه الاستراتيجية: هجوم مكثّف، بحري وأرضي في الوقت نفسه. القلة العددية عند الإمبراطور تحكم عليه بالهزيمة.

- رسالة عاجلة، قال مساعد ميداني وهو يقدِّم للملك الصغير بردية صغيرة ملفوفة ومختومة.

كانت صادرة من مركز مراقبة في الدلتا، وجعل محتواها دم بطليموس يغلي: الجيش الذي حشده ميثريدتس دو برغامس جاء لإنقاذ قيصر!

واجب حيوي: تدمير هذا الأجنبي اللعين الذي يقف أمام انتصار وريث البطالمة الشرعي.

*

الأخبار الأخيرة كانت مشجِّعة: أفلت ميثريدتس دو برغامس من أحد أفواج بطليموس وهو يقترب من الإسكندرية؛ لكن الملك الصغير يزجُّ بكل قواته في المعركة من أجل منع التقاطع مع قيصر، الذي كان مضطراً لاستعمال كل قواته. من تلك المواجهة الأخيرة سيخرج المنتصر.

- تفادَ الاقتتال في الماء، أوصت كليوباترا؛ السكندريون مهرة فيه.

- جنود ميثريدتس يقيمون مؤقتاً على ضفة بحيرة مريوتيس؛ كيف كنتِ ستوافينهم؟

- سيذهب بطليموس عبر قناة وسينصب لك فخاً. أنت، اختر الطريق البري؛ سَير حثيث لقرابة ثماني ساعات سيمكّنك من الوصول إلى هدفك.

بفضل انضباطهم المعتاد، استعد رجال الفيالق بسرعة للانطلاق؛ كان المساء يهبط، وسيوفر لهم الليل الحماية.

لم يخفِ قيصر الحقيقة عن كليوباترا.

- نواجه كلانا خطراً كبيراً. أنا أقود رجالي إلى معركة صعبة، أمام عدو رهيب، وربما لن أرجع من أرض تلك المعركة؛ أنت عليك أن تدافعي عن مواقعنا مع حفنة من الشجعان الذين سيغمرهم أقل هجوم.

- لم تتركنا لا فينوس ولا إيزيس؛ سنرى بعضنا ثانية، وسيتحقق حلمي.

أراد قيصر أن يصدِّق كلام تلك الساحرة، لكن عناقهما كان شبيهاً بعناق عاشقين مضطرين للافتراق إلى الأبد.

*

على رأس الطليعة، أصدر روفين أمراً بالتوقف. بينما كان الفجر يطلع، لمح معسكراً.

أصدقاء أو أعداء؟

بعد أن تمَّ إعلامه، سار الإمبراطور، الذي كان يرتدي معطفه الأرجواني، جنباً إلى جنب مع ملازمه.

- فلنرسل كشافة، اقترح روفين.

- لا داعي إلى ذلك، أعلن قيصر الذي تقدم بخطواتٍ عدة، مشكّلاً هدفاً مثالياً.

أطلق أحد الحرّاس صيحة، تململ المعسكر.

خرج منه عملاق ملتحٍ، أشعث الشعر.

- قيصر! قال الرجل متعجباً.

أسرعا من وتيرة سيرهما، التقى الرجلان وتعانقا.

- لم تتغير، الإمبراتور!

- وأنت، ميثريدتس، تبدو في صحة جيدة.

- تعبت حتى أجمع حفنة من المحاربين الذين يجب تأطيرهم بالضربات! إذا أطعمناهم جيداً سيكونون فعّالين؛ كان بطليموس يأمل أن يعترض سبيلهم، لكنه عض على أصابعه! قيادتك ستمنحنا نصراً مدوياً.

- العدو؟

- وصلت قوات بطليموس مساء أمس واستقرت على مرتفع، يحدّه مستنقع من جانب ومن الجانب الآخر قناة. موقع استراتيجي جيد، من النوع المنيع! في رأيي، كان على الملك الصغير أن يواصل مهاجمتي، لكنه فضَّل إقامة معسكره؛ تقاطعنا ووجودك غيّرا ميزان القوى! حالياً، يمكن أن نمر إلى الهجوم.

أضاءت الشمس مشهداً كان الماء فيه هو الغالب؛ اختار بطليموس موقعاً ممتازاً، وطرده منه لم يكن سهلاً.

- سنعبر النهر، نتسلق الهضبة ونمحي عش الأفاعي، اقترح ميثرديتس.

الطرق السريعة جيدة أحياناً، وافق قيصر على تلك. وجد

فرسان جرمانيون معابر في القناة، قطع فيلقيون أشجاراً وصنعوا جسوراً بدائية؛ نظَّم اعتداء أول، صدّه بطليموس بسهولة.

مصاباً بخيبة أمل، اعترف ميثرديتس بفشله.

- رجالنا في حاجة إلى الراحة، قدَّر قيصر؛ فليقم الكشافة بفحص المكان من جميع الزوايا. إذا اكتشفوا نقطة ضعف، سنستغلها غداً.

69

مرعوبة، ارتعدت شارميان ووجدت صعوبة في تسريح الملكة.

- جماعة من المتسكعين ستكتسح القصر، ستغتصب النساء وتلحق بنا أفظع العذاب!

- طبعاً لا، أجابت كليوباترا بصوتٍ هادئ.

- صاحبة الجلالة، نحن تقريباً لوحدنا!

- لن يعتدي شعب الإسكندرية أبداً على ملكته.

تلك الثقة هدّأت من روع الخادمة. لا تجرؤ كليوباترا على التأسف على قلة قواتها: حاجبها الوفي أبولودور وأقل من مئة فيلقي! إذا أمر ذلك الأفعى بطليموس باعتداء، ستكون المقاومة تافهة، وتكون الملكة عرضة لانتقام أخيها الصغير.

لا، لن يكون الأمر كذلك! فكرت كليوباترا في هرمس الذي لم تره منذ مدة طويلة؛ بما أنها لا تهمل إيزيس، حماية الساحر لن تتركها.

حمل إليها أبولودور رسالة من قيصر.

عصبية، فردت الملكة البردية.

- أخبار سعيدة، صاحبة الجلالة؟

- انضم الإمبراطور إلى جيش الإنقاذ! قواتهما كافية لمواجهة قوات بطليموس.

- المواجهة الأخيرة، قدَّر الصقلي. فلنثق في قيصر، صاحبة الجلالة، لقد سبق أن حقق العديد من الانتصارات!

- وحده هذا الانتصار يهمني، دمدمت المرأة الشابة.

*

كان بطليموس مبتهجاً. باختيار الارتفاع الذي أقام فيه معسكره، أصبح يحتل موقعاً منيعاً؛ بسبب قلة معرفتهم بالميدان، سيتعب الرومان وحلفاؤهم في محاولة تسلُّق المنحدر. علاوة على ذلك، هجومهم الأول كان فشلاً ذريعاً! ضحك المشاة من ادِّعاء خصومهم الذين سيتسبب عنادهم في خسارتهم.

مع ذلك، لم يكن بعض الضباط موافقين على استراتيجية الملك؛ ألم يكن عليه مهاجمة ميثريدتس قبل وصول قيصر، ثم سحق هذا الأخير؟ إنشاء المعسكر كان مضيعة مؤسفة للوقت، والامتياز العددي لم يعد يلعب دوراً.

استدعى اليافع ذو الأربع عشرة سنة أركان حربه، الذي يتكون من جنود متمرسين؛ أحس بشكوكهم، وحتى بعدائهم.

- قراري هو الأفضل! بمحاولته طردنا، سيخسر الرومان مئات من الرجال؛ عندما سيتراجعون، سنلاحقهم، وسنبيدهم.

أدهشت قوة إقناع اليافع ضباطه؛ بعد أن انمحت شكوكهم، وافقوا على استراتيجيته.

*

مستفيدين من صباح طويل من الراحة، استعاد جنود قيصر وميثريدتس طاقتهم، وكان العديد منهم يستعجل المعركة؛ ألم يكن وجود الإمبراطور، ذو الهدوء المطمئن، يضمن لهم النصر؟

جمع رئيس الكشّافة تقارير رجاله وقدَّم النتيجة لقيصر.

- لقد كشفنا نقطة ضعف العدو، أكّد له؛ يجب أن نلف على المستنقعات ونأخذ المعسكر من الخلف. هناك المنحدر منخفض والدفاعات غير كافية.

قام قيصر بتكتيك لتشتيت الانتباه وجعل بطليموس يعتقد أن الرومان يسعون دون جدوى؛ معظم القوات ستتبع رئيس الكشّافة وتتجنب أن يلحظها المراقبون.

- نتمسك جيداً! قال ميثريدتس، مرحباً بفكرة مذبحة لطيفة، تجعل ذلك البلد اللعين يتغنى بمجد **الإمبراتور**.

كان قيصر يفكر في كليوباترا؛ هل ستحميها إيزيس من أعمال شغب السكندريين؟

*

كان بطليموس فاقداً للصبر؛ لماذا لا يشن الرومان هجوماً جديداً؟

- ها هم! حذّر أحد الحراس.

- الحمقى، همس اليافع؛ تصرفوا كما هو متوقع.

حتى تحت حماية رماتهم ومستعملي المقالع، لم يكون للمشاة أي فرصة للوصول إلى أعلى التل، وسيتم القضاء عليهم.

كان بطليموس يهنّئ نفسه بنجاحه عندما تناهت إلى مسامعه صيحات جاءت من معسكره وجعلته ينتفض.

جاء ضابط يركض.

- صاحب الجلالة، لقد أخذونا من الخلف!

- صدوهم!

- مستحيل، إنها الهزيمة؛ يجب أن نهرب.

غير مصدِّق، رأى الملك الصغير رجاله يتركون القتال ويجرون

إلى أسفل التل على أمل الوصول إلى النهر؛ سقط أغلبهم ضحية السِّهام الرومانية.

- يجب أن نهرب، ألحَّ الضابط.

لم يجد رجال الفيالق وحلفاؤهم سوى مقاومة تافهة وأبادوا جيش العدو.

منهكاً، ترك بطليموس نفسه يُقاد: درعي الذهبي سيكون ثقيلاً، لكنه سيشكل حماية فعالة.

*

رغم كونه محارباً قاسياً، أحس ميثريدتس بقلبه يصعد إلى فمه بسبب كثرة الجثث المشوَّهة؛ مدركين أن ضربتهم كانت قاضية، قام المنتصرون بارتكاب مذبحة حقيقية.

ولم يكن الفارون أفضل حظاً؛ بإسراعهم نحو قوارب محمّلة بما يفوق طاقتها، غرقوا عندما انقلبت. السبّاحون المهرة القلائل الذين استطاعوا عبور النهر تمَّ قتلهم على الضفة.

لم يتبقَ أحد من جيش بطليموس.

- أريد جثته، أمر قيصر.

كان البحث صعباً، لكن لمعان ضوء غريب جذب انتباه أحد المشاة.

- هناك، درع مذهَّب!

بمساعدة رفيق له، خلَّص جسماً من الوحل، وقام الجنديان بوضعه عند قدمي قيصر.

كان الأمر يتعلق فعلاً ببطليموس الثالث عشر، الذي مات من الحقد والغرور؛ لكن الإمبراتور لم يبكِ عليه.

70

عقد قائد الميليشيا الذي كلفه بطليموس بالسهر على أمن الإسكندرية اجتماعاً مع مساعديه.

- نستطيع أن نحقق ضربة لامعة، اقترح عليهم؛ وحدهم بعض رجال الفيالق يحرسون القصر الملكي. فلنقتحم الحاجز، ولنقتلهم ثم لنمسك كليوباترا. عند عودته، سيهنئنا الملك وسيكافئنا.

- إنها مخاطرة، عارض رجل ملتحٍ.

- سنرسل العبيد في المقدمة، مع وعد بمكافأة جيدة؛ هم لن يفلتوا، لكنهم سيقضون على أهم الرومان، ونحن سنقوم بالباقي. بعد ذلك، سنضع اليد على كليوباترا، وسنأتي بها مقيَّدة! هل تتصورون سعادة بطليموس؟ ونحن، سنصبح أبطالاً!

نالت الحجج موافقة رجال الميليشيا، وأعدّت الإرسالية في حمى. أمام فكرة إذلال الملكة التي لا تقهر أحسَّ عدة مرتزقة بإثارة شديدة.

بينما كانت الحزمة تتجه نحو حي القصور، اصطدمت بحشد من المدنيين المسلحين بالعصي والرماح.

- اليهود! صاح قائد الميليشيا مندهشاً.

خرج أنتيباتر من الصف.

- إلى أين أنتم ذاهبون؟ سألهم.

- دعونا نمر، أو...

- أو ماذا؟ جبناء وأغبياء، تريدون الحصول على كليوباترا وإلحاق الأذى بها! غضب قيصر سيكون بدرجة أنه سيمحي المدينة.

- مات قيصر، وانتصر بطليموس! وأنت، ستتهم بالخيانة.

- بطليموس ينتصر على قيصر... حماقتك أعمق من البحر.

- اخلِ طريقي، أنتيباتر.

- لن يتم ذلك.

- ستموت، مثل صديقك قيصر.

لم يقبل أي من الطرفين أن يتراجع، المواجهة كانت تعد بأن تكون قاسية. خشي أنتيباتر ألا يكون أتباعه قادرين على مقاومة رجال الميليشيا، لكنه كان قد أقنعهم أن مستقبل طائفتهم يتوقف على ذلك.

- لقد وصل، لقد وصل! صاح أحد رجال الميليشيا.

- قيصر أو بطليموس، همس أنتيباتر، وهو يحس بانقباض في حنجرته.

جامدين، أذرعهم مكتوفة، نظر رجال الميليشيا واليهود ناحية الطريق الكانوبي.

على فرسه، متقدماً جنوده، عرض الإمبراتور الدرع المذهَّب لبطليموس المتوفّى.

تدفق الآلاف من السكندريين من منازلهم؛ رجال ونساء وأطفال سارعوا لتأمل الرجل الذي يستولي على عاصمتهم.

تجمّد قيصر، منتظراً أن يتعلق حشد كبير بشفتيه. عندما رفع الدرع، عمّ الصمت.

عارض ملككم روما وملككم مات، متسبباً في خسارة جيشه.
حرب الإسكندرية انتهت. هل تريدون الترحيب بالسلم المستعاد؟
كان اليهود هم أول من وضع السلاح، قلدهم رجال الميليشيا وشقّ رئيس كهنة سيرابيس جموع مواطنيه وقدَّم إناء من فضة للمنتصر.
- هذا هو تكريم الآلهة ومدينتنا، أعلن بصوت قوي؛ ونحن نخضع لإرادتك ونلتمس عفوك.
توقف التنفس؛ كم من إعدام سيقرر، إلى أي مدى سيصل انتقامه؟
- أمنحكم عفوي، بشرطين: سلموني الأميرة أرسينوي واعترفوا بسلطة كليوباترا. هي وحدها من سيحكم مصر.
- إذا وافقنا، سأله رئيس الكهنة؛ هل ستترك حياتنا ومدينتنا؟
- كان هنا الكثير من الأموات، وحده السلم سيعيد الازدهار للإسكندرية؛ وقيصر ليس له سوى كلمة واحدة.
- سأجمع فوراً سلطات المدينة.
- أنتظر جوابكم في القصر الملكي.

*

كان العجوز أول من رأى الإمبراطور، على رأس قواته، وهم يشيدون به.
- باسم جميع الآلهة، لقد انتصر الروماني وهذه الحرب اللعينة انتهت!
انتصبت أذن ريح الشمال اليمنى.
- بما أنك تعلن خبراً جيداً... هذا يستحق الاحتفال!
سارع العجوز إلى القبو واختار نبيذاً أحمر عليه علامة «جيد

ثلاث مرات». متوفراً على حسٍّ أخلاقي رائع، امتنع عن تذوقه قبل قيصر وكليوباترا. بمجرد أن صعد الدرج حيّت هتافات **الإمبراطور** الذي ترجّل من فوق الحصان وأخذ يتأمل كليوباترا. هذه الأخيرة كانت ترتدي فستاناً أحمر طويلاً وتتزين بحلي باذخة.

للحظة طويلة التقت عيونهما؛ وأنارت الابتسامة نفسها وجهيهما.

- مات بطليموس، أعلن قيصر؛ وأبيد جيشه.

- إذن، النصر تام!

- ليس بعد.

- ماذا تخشى؟

- قرار وجهاء الإسكندرية. إذا ساندوا أرسينوي ولم يعترفوا بسيادتك، سأفرضه بالقوة.

- أرفض ذلك! سالت العديد من الدماء.

- ليس أمامك خيار، كليوباترا؛ إذا أظهرت أقل علامة ضعف، ستثير شقيقتك الشعب وستلتهمك. ذلك الحلم... ذلك الحلم الذي يستحوذ عليك، هل ترغبين فعلاً في تحقيقه؟

- أنت محق، ليس أمامي خيار.

احتفل الرومان بانتصارهم بالغناء والشرب والتهنئة، جاهلين أنها ربما كانت فاتحة مواجهة جديدة سيمسح اتساعها سابقاتها.

عندما حمل العجوز الجرة، كانت غرفة الطعام في القصر فارغة؛ من الواضح، أنه لا وليمة ولا احتفال! «هذا لا يبشر بخير»، فكّر، «كنا نعتقد أننا انتصرنا، والعاصفة تهبُّ».

71

هل سينتهي يوم السابع والعشرين من مارس، الذي بدأ جميلاً بكارثة؟ لفكرة ثورة من ساكنة الإسكندرية يقمعها رجال الفيالق بطريقة عنيفة أحست كليوباترا بحزنٍ عميق، قريب من اليأس. هل ستعرف أرسينوي أن تذكّي الكره ضدّ شقيقتها والرومان بحيث تمدد المعاناة الشنيعة؟

صامتاً، كان قيصر يستعد للأسوأ. بعد صراع طويل وقاسٍ فقد خلاله العديد من الرجال، لن يترك الفوضى تعم الإسكندرية. وامرأة واحدة تتوفر على القدرة على الحكم: كليوباترا.

في صفوف الجيش المنتصر، كان التوتر محسوساً؛ بفضل يقظة العجوز، لم يكن أحد تنقصه الجِعَة الباردة، لكن لا أحد كان منخدعاً: بما أن قيصر لم يفتح سوى طريق واحد نحو القصر، يبقى السلم هشاً. هدنة بسيطة قبل استئناف الصراع؟

اقترب موكب مهيب، أخطر روفين الإمبراطور في الحال؛ في ثياب الحداد، كان الوجهاء يحملون تماثيل الآلهة. ركعوا أسفل درج القصر الضخم، وتوجه كبير الكهنة إلى كليوباترا وقيصر.

– نحن نادمون على تصرفنا ونرجو صفحكم؛ يعترف الشعب بسلطتك ويدين تمرد أرسينوي.

أحضر جنديان الأميرة، ويداها مقيَّدتان؛ شعرها مبعثر، وملامحها محفورة، لم تجرؤ على تحمل نظرة شقيقتها الكبرى.

على قيصر أن ينطق الحكم.

- سترسل أرسينوي إلى روما وستربط بعربتي خلال الاحتفال بانتصاري.

محطَّمة، لم تصدر السجينة أي اعتراض، ثم قام سجّاناها بإخراجها.

- لقد اخترتم ملكتكم، أعلن الإمبراطور؛ وأنا أهنئكم، بفرحٍ وارتياح عميق أمنحكم مغفرة روما وحمايتها. دعونا نفكر كلنا في مؤسِّس هذه المدينة اللامعة، الإسكندر الأكبر، ورؤيته الرائعة للمستقبل؛ هذه الحرب ضربت عاصمتكم بعنف، لكنها ستتعافى، وغداً ستكون أجمل. حان الوقت لتتويج كليوباترا.

*

كانت الإسكندرية تحتفل؛ أخيراً، انتهت الحرب! بعد أن تمَّ إنقاذهم من المتاعب والقلق والخطر، لم يتحدَّ سكانها سلطة كليوباترا التي يساندها قيصر على رأس جيش منتصر. في الأمس مكروهة، واليوم متملَّقة، كانت الملكة ذات الاثنتي والعشرين سنة تجسِّد مستقبل البلاد.

مستمتعة بنجاحها، تذكرت المرأة الشابة منفاها، عبورها للصحراء، شكوكها، لحظات اليأس، انهزاماتها... وحدود المستحيل تمَّ تجاوزها.

أن تحكم الأرضين، مصر العليا والسفلى، لم يكن وهماً؛ حب قيصر يمنحها هدية لا تُقدَّر وعليها أن تكون جديرة بها.

- هل تشكين في ذلك؟ سألها صوت عميق.

- هرمس!

- هل تشكين في ذلك؟
- لقد صنعت قدري وأريد أن أحكم!
- أليس القدر من صُنع الآلهة؟
- لو لم أساهم فيه، هل كنت لتمنحني أقل اهتمام؟
- الإسكندرية نطاق ضيق؛ تذكّري أن الإسكندر الأكبر لم يتوج فرعوناً سوى بموافقة الإله آمون. ابحثي عن حمايته.
- أين أجده؟
- في معبد هيراكليون.

*

كان الأعيان قد هللوا لملكتهم عندما ظهرت في قاعة الرياضة قبل ذهابها إلى مدينة هيراكليون الساحلية، شرق كانوب؛ هناك كان يسود آمون، الإله المخفي، الذي كان يبجّله الفراعنة اللامعون من عصر الدولة الحديثة، مثل رمسيس العظيم.

كان قيصر قد طمأن سلطات الإسكندرية واعداً إياهم أنه تبعاً للتقاليد ستضمُّ الملكة إلى العرش بطليموساً جديداً، شقيقها الصغير، الرابع عشر، وأنه سيتم الحفاظ على المؤسسات.

على تاج من البرونز حُفِر ميثاق ضمان حقوق المواطنة لليهود؛ كان قيصر يشكر أنتيباتر وأصحاب ديانته على الدعم القيّم الذي قدموه له، حتى في أسوأ اللحظات.

يرافقها الإمبراطور، اجتازت الملكة عتبة معبد آمون[1]؛ طهّر اثنان من ممارسي الطقوس الثنائيَّ بماء النيل الذي أتوا به من

(1) يتعلق الأمر بمعبد آمون المحلي (Gereb) يعني الوثيقة التي حددت المخزون الإلهي الذي يقدَّمُ للفراعنة. بقايا هيراكليون، المدينة التي اختفت تحت الماء، عثر عليها، مؤخراً، فرانك جوديو.

الفيضانات السابقة، والتي ترمز إلى قوة التجديد في العمل عند إحياء أوزوريس.

خارجاً من عتمة المزار، ظهر هرمس، يحمل حقيبة جلدية تحتوي على بردية مختومة.

- ها هي وصية الآلهة التي تمنح للفرعون كامل أرض مصر وتجعله مسؤولاً عن ازدهارها. كي يؤدّي هذه الوظيفة الساحقة، عليه أن يتبع القاعدة الأبدية ماعت، عدالة الفكر، واستقامة الفعل، وانسجام الكون. هل تقبلين هذه الوصية، كليوباترا، والتبعات التي تنتج عنها؟

- ألتزم بتنفيذها.

- هذا القسم يؤدّى بحضور الإله آمون، المبدأ المخفي الذي يعطي نفس الحياة لكل الكائنات. من الآن، أنت خادمة مصر وشعبها، أمينة المملكة المزدوجة، السماوية والأرضية.

وهي تتلقى الوثيقة التي تنتقل من جيل إلى جيل، ارتعدت يدا كليوباترا؛ كانت تتصل بتقاليد أسلافها عبر الفكر، تعيش اندفاع السلالة الأولى ورغبتها في الإبداع.

كان المزار يوصف بـ«منزل البهجة»، وتلك التي أحست بها كليوباترا كانت بقيمة المعجزة؛ جزء من حلمها الجنوني يتحقق، كانت الأمل يتجسد. هي، الإغريقية، أصبحت فرعوناً لمصر، تُسجّل في سلالة أسلافها الأسطوريين.

رغم ذلك، لم تستسلم للنشوة، لأن المهمة التي حددتها لنفسها تبدو وهمية: استعادة عظمة الإمبراطورية المتلاشية، جعل بلدها ندّاً لروما.

روما، مملكة قيصر المستقبلية.

72

في ذلك الربيع المنعش من سنة (47-)، انتقل البلاط إلى القصر الذي شُيّد على ضفاف بحيرة مريوتيس، جنوب الإسكندرية؛ كان المكان آهلاً بالفيلات الفاخرة المغروسة في حدائق شاسعة مشجّرة. الصيف، مياه النيل العذبة خلال الفيضانات تملأ البحيرة من حيث تنطلق العديد من القنوات؛ ميناء يستقبل كمية مهمة من السلع، والكروم المنتشرة على الضفاف توفر نبيذاً ذي جودة استثنائية وقابلاً للتخزين.

لشدة حرصه، كان العجوز قد طلب أن يتحقق بنفسه من تلك السمعة ولم يعتبرها غير مبررة؛ راضٍ، سيقدِّم على المائدة الملكية نبيذاً أحمر عمره عشر سنين. كانت الوليمة التي أقامتها كليوباترا على شرف قيصر تستحق كل الاهتمام.

الإعلان عن تلك الاحتفالات لم يدخل السرور على روفين، ملازم الإمبراطور الوفي؛ الأخبار المتعلقة بروما كانت مقلقة، كان المتشائمون يذكرون حرباً أهلية لا مفر منها. لماذا يتأخر قيصر هنا، بدل أن يذهب بسرعة إلى بلده ويفرض الأمن؟ الحب لا يبرر ذلك التصرف! كان منتصر فارسالوس والإسكندرية زير نساء، وكليوباترا، رغم كونها ملكة، لن تكون سوى نزوة عابرة؛ معنى الدولة يجب أن

يُملي على قيصر سلوكه وينتزعه من سحر مصر. معرضاً نفسه لتلقي عتاب شديد، سيجرؤ روفين على التحدث مع قيصر وسيبدي له رأيه.

*

كان الحاجب أبولودور، بمساعدة العجوز ولفيف من الخدم، قد نظَّم أفخم وليمة. وكانت شارميان تحس بالفخر من عملها: لم تكن كليوباترا أبداً بمثل تلك الأناقة والجمال. عندما ظهرت، تضع عرشاً من الذهب وأكاليل من الورود، ترتدي فستاناً من قماش صيدا يتيح تخمين نهديها الأبيضين، كان المدعوون مبهورين، وأحس قيصر بانجذاب عميق نحو تلك المرأة التي لم يكن يعادل ذكاءها سوى سحرها.

كانت كليوباترا قد دعت الفلاسفة والعلماء الذين نجوا من حرب الإسكندرية، معيدين جو المتحف حيث تتبادل العقول اللامعة الاكتشافات والفرضيات؛ لفت أحدهم، أكوري، عالم فلكي وهيدرولوجي، انتباه قيصر.

حدّثه عن اختراع أساسي، موروث من السلالات القديمة يحكم وجود المصريين منذ آلاف السنين: التقويم. سنة الاثني عشرة شهراً من ثلاثين يوماً التي تبدأ عندما يلمع سيريوس، نجم الكلب، الذي يجعل مياه النيل تتصاعد وتسبب الفيضان؛ بين سنتين، فترة من خمسة أيام كريهة، والتي تشهد ولادة آلهة مثل إيزيس وأوزوريس. هذا التقويم كان من تصميم حكماء العصر الذهبي، ولا يمكن تعديله؛ طلب قيصر من العلماء السكندريين تكييفه من أجل روما[1].

---

(1) هذا التقويم، المسمى اليولياني، سوف يستخدم في أوروبا حتى نهاية القرن السادس عشر، وسيتم إصلاحه من طرف البابا غريغوريوس الثالث عشر.

موضوع ثانٍ كان يثير حيرة **الإمبراتور**: منابع النيل. قدَّم أكوري، مُطنِباً، خلال ساعات النظريات المتعددة التي تذكر المستكشفين والجغرافيين. لم تكن أي نتيجة نهائية تفرض نفسها، الحل الوحيد: القيام برحلة لحل هذا اللغز. ومن أفضل من قيصر يستطيع ذلك؟

التفت نحو كليوباترا.

- هل ستعجبك هذه الحماقة؟

- كنت أنوي دعوتك إلى اكتشاف بلدي، على طول النهر؛ هل تتوفر على الوقت اللازم؟

- كيف يمكن مقاومة دعوة مشابهة؟

وضعت الملكة يديها بلطفٍ على يدي عشيقها.

- أنتظر طفلاً، طفلنا. هل تقبل أن يحمل ابننا اسمك؟

- ابن...

- أطباء البلاط قاطعون، اختباراتهم تتفق. سيولد قيصرون في نهاية شهر يونيو.

- قيصرون...

- ابنك، فرعون المستقبل، الذي سأمرر له وصية الآلهة من أجل أن يحكم مصر غنية وقوية.

كان قيصر أمام واقع لم يتصوره؛ هو، الروماني، أب مصري موعود بالسلطة العليا! سعادة لم يسبق لها مثيل اختلطت بدوار، وابتسامة كليوباترا واصلت أسره.

*

في دندرة، كان الربيع فرحة؛ في محيط المعبد الذي كان في طور الإنشاء، أَثْل وجميز وأفوكادو وأشجار مثمرة تعبِّر عن حياة

جديدة، مرتبطة بتفتح أرضيات الزهور. رغم آلام الظهر، كانت حتحور، رئيسة الكهنة والكاهنات، تقدِّر تلك السعادة وتخرج في نزهة بعد غداء بسيط. كانت لحظات الوحدة والتأمل تمنحها الطاقة اللازمة لمواجهة أيام العمل الطويلة والاهتمام بحلٍّ ألف مشكل ومشكلة. مهما كانت الصعوبة، حتى لو صغيرة، كانوا يلجؤون إلى الرئيسة التي كان رأيها أساسياً.

مفضِّلة الابتسام، كانت حتحور تشكر إلهتها الراعية التي منحتها حياة مميزة؛ إقامة قداس مخصص للحفاظ على الأرض بالوجود الإلهي، كل صباح، أليس هذا أكبر سعادة؟

كان الحِرفيون يشتغلون بهمة عالية؛ تحت رئاسة مقاولهم الدقيقة، كانوا يجمعون الأحجار التي ستشكل نطاق إلهة الحب، ذلك الحب السماوي الذي يرسم خارطة السماء.

وهي عائدة نحو المعبد، مشت الرئيسة بخطوات بطيئة من أجل أن تتذوق جمالها. كان المقاول في انتظارها؛ بحسب هيأته، فهمت أنه كان يحمل معلومات أساسية.

هل تغلق الإدارة الإسكندرية الوِرَش؟

قلقة، اقتربت حتحور.

- أخبار من العاصمة، أعلن المقاول؛ مات بطليموس الثالث عشر، انتصر قيصر، وكليوباترا تحكم.

- تلك الحرب المرعبة انتهت... هل تلقت الإدارة الإقليمية تعليمات مقلقة؟

- رواتب جنودي ما زالت مؤمّنة، يمكننا أن نواصل بناء المعبد.

- كليوباترا تحكم! إذن، ستحترم التزاماتها.

- هل تظنين أنها تهتم بدندرة؟ البطالمة لا يحبون سوى الإسكندرية.

تأملت الرئيسة البناء الذي غمرته الشمس.

- ستأتي... أنا متأكدة أن كليوباترا ستأتي لتُعجَب بمنزل الإلهة.

73

- هل قرأت الرسائل التي أرسلها أصدقاؤنا؟ سأل روفين قيصر.

- بالتأكيد.

- الحرب الأهلية تهدد... وحدها عودتك ستمنع الكارثة!

- أنت شديد التشاؤم.

- أتباع بومبي يتحركون في الظلّ؛ تضييع الوقت سيؤدي إلى الهلاك.

- اطمئن، سأتدخل في الوقت المناسب؛ قبل أن أعود إلى روما، أرغب في تأمل منابع النيل.

بقي روفين مذهولاً.

- أنت لا تخطط... أسابيع من الملاحة؟

- ستجعلني ملكة مصر أكتشف روائع بلدها.

- أنت... أنت لا تفكر!

- لقد حسمت قراري، روفين.

- من المستحيل ضمان سلامتك! السكندريون منافقون، يدّعون الاستسلام ولا يفكرون سوى في القضاء عليك! سيمنحهم هذا السفر فرصةً لا تقدَّر.

- لست قلقاً، لأنك ستأخذ الاحتياطات اللازمة.

*

كان ميثريدتس دو برغامس قد غادر مصر، لكن بقي ما يكفي من رجال الفيالق، والبحارة، والمرتزقة كي يكونوا جيش غزو مثيراً للإعجاب. سيترك روفين في الإسكندرية قوات الشرطة، الحليفة مع الميليشيا اليهودية؛ كانت المدينة قد أصبحت هادئة، الأنشطة التجارية كانت في أوجها، وهذه المرة، لم تثر إصلاحات كليوباترا النقدية والإدارية أية معارضة.

وافق الوجهاء على تلك الرحلة التي كانت، وفقاً للتقاليد القديمة، تتيح لفرعون جديد أن يجعل كل عاصمة إقليمية وكل معبد كبير يعترف بسيادته؛ بتلك الطريقة كانت تنسج الروابط العميقة بين الملك والبلد بأكمله ورعيته.

بقيت مشكلة سلامة قيصر إذن بعدد السفن المكلَّفة بمرافقته؛ بعد استشارة العجوز، لأنه لا يجهل شيئاً عن الرحلة، توجّه إلى ريح الشمال. وكان الحمار قاطعاً: ليس أقل من أربعمئة!

مرافقة كتلك كانت لتكون رادعة، شرط جمعها! بفضل إرادة السكندريين وفعالية الوِرَش البحرية، حصل قيصر في قليل من الوقت على ذلك الأسطول الذي سيطبع مروره ذاكرة المصريين.

جاءت اللحظة، عشية الانطلاق، التي قدّمت فيها كليوباترا لقيصر الباخرة الأميرالية: ثلاثمئة متر في الطول، خمس وأربعون في العرض، ستون في الارتفاع. مثل باقي المتفرجين، استسلم قيصر للانبهار. سيتمتع الثنائي بأجنحة فخمة، الحاجب أبولودور والخادمة شارميان بغرف مريحة، العجوز بقبو يليق بقصر ملكي. جنود وخدم وأطباء وفلاسفة وعلماء أكملوا الطاقم.

وانطلقت السفينة تحت هتافات شعب الإسكندرية.

*

على الدوام في حالة تأهب، كان روفين بالكاد يستمتع بالمشاهد والاستراحات الوجيزة التي يلتقي خلالها قيصر وكليوباترا الوجهاء المحليين، ويستمعون إلى شكاويهم ويزورون المعابد لتكريم الآلهة. كان ملازم الإمبراتور الوفي يشك في كل شيء وكل أحد، خوفاً من محاولة جماعية، أو قاتل وحيد: لذا كان الحرس القريب من الملك يتكون من رجال الفيالق المدربين، المستعدين للتضحية بأنفسهم كي ينقذوا زعيمهم. في كثير من الأحيان، مع الأسف! كان الثنائي يذهب أمام الشعب، يتحدث مع المزارعين الذي يرزحون تحت وطأة الضرائب ويعانون من ثقل الإدارة. لم يكن روفين يسترخي سوى عندما يعرف أنه على سطح الباخرة الاستعراضية، وأيضاً! كان عليه مراقبة نوبات الحراسة والتأكد من أن لا أحد من الدخلاء قد تسلل. وبدا ذلك السفر كأنه لا منتهٍ! في كوابيسه، كان روفين يرى قيصر مطعوناً؛ لم يكن يستطيع كسر ذراع القاتل، وكان وجهه يفلت منه. على الأقل، ذلك التحذير كان يدفعه إلى الحفاظ على حالة تأهب دائمة وألا يرخي حذره.

كان يستمتع قيصر بأجمل ساعات وجوده؛ بعيداً من الحرب وعذابات السلطة، كان محباً ومحبوباً، يتأمل بساتين النخيل، وضفاف النيل، ويشرب من نبيذٍ لا يُضاهى، ويتذوق المأكولات اللذيذة، ويتناقش مع الفلاسفة والعلماء، يدرس قوة وضعف سياسة البطالمة، ويستمع إلى ساكنة مهمَلة، ويكتشف عمل الفراعنة المعماري بخاصة. معابد كبيرة، المصليات، ومصليات الأرياف. . . الأرض التي تحبها الآلهة كانت منقطة بالمنشآت ذات الأحجام

المختلفة، والتي تستقبل القوات الخالقة التي تمنح القدسية للنشاط البشري؛ نَفَس خاص كان يُفعِم بالحياة تلك المنشآت المشرّبة بخلود هادئ. بجانب كليوباترا، المشرّبة بوظيفتها، كان قيصر يتعلم أن يُحس بروح الملوك القدامى ويتغذى من مثالهم. غداً، إذا منحته روما ثقته، سيضع حدّاً للصراعات الداخلية، سيدوس على الوضعاء وسيُنشِئ إمبراطورية.

كانت كليوباترا مشعة؛ ألم يكن حلمها يتحقق أبعد من كل أمل؟ واعية أخيراً بالبُعد الحقيقي لبلدها وإرثها، اقتسمت تلك التجربة التي لا مثيل لها مع رجل استثنائي، والد فرعون المستقبل. كانت إيزيس تمنحها سعادة ببُعدي السماء والأرض، سعادة ستروي مصر وشعبها.

*

- بريد ملكي، أعلن الساعي وهو يقدم لرئيسة دندرة بردية مختومة.

هل كانت نهاية الوِرَش، هل سيبقى المعبد غير مكتمل البناء؟

هشّمت السيدة العجوز الختم واستطلعت محتوى الوثيقة. مشككة، قرأت النص مرات عدة وبحثت عن المقاول من أجل أن تعلمه بالمحتوى. متفحصاً مخططه، كان يستعد لإعطاء التعليمات للنحّات؛ يجب أن تنقش النصوص بطريقة دقيقة، لأن كلام البشر تعيش أبعد من حياة البشر. عندما سيذهب هؤلاء، ستستمر الحروف الهيروغليفية في الاحتفال بالطقوس.

- رسالة من الملكة كليوباترا، بخطّ يدها، أعلنت الرئيسة.

- خبر جيد أم سيئ؟

- اقرأ بنفسك.

تصفح المقاول النص.

- هكذا، ملكتنا وقيصر سيتوقفون في دندرة! إنها سعادة كبيرة.

- وليس أمامنا سوى قليل من الوقت كي نستعدّ لاستقبالهما.

74

خادم سابق للخصي فوتان، استطاع الطباخ أن يجد شغلاً على إحدى السفن الأربعمئة المرافقة حيث كان يحمِّر الدواجن من أجل رجال الفيالق. منذ موت رئيسه المأساوي، لم تكن له سوى فكرة في رأسه: الانتقام من كليوباترا.

لكن كيف السبيل للاقتراب منها؟ مستغلاً بضع ساعات من الراحة في توقف دندرة، نزل إلى اليابسة مخبئاً سكيناً حادة واختلط بالجموع السعيدة بالسلام على الملكة والإمبراطور. إذا سنحت الفرصة، سيطعن الطباخ تلك الساحرة وعشيقها.

بموقعها على بُعد حوالي ستين كيلومتراً شمال طيبة، كانت دندرة تشاهد جريان النيل بشكلٍ استثنائي، من الشرق إلى الغرب وليس من الشمال إلى الجنوب؛ أما بالنسبة إلى المعبد، الذي كان جغرافياً قبالة الشمال، كان رمزياً موجهاً في اتجاه الشرق. بالفعل، في عهد خوفو، باني هرم الجيزة الكبير، أُقيم المعبد تكريماً للإلهة حتحور؛ تمّت العناية به على مرِّ الأُسر الحاكمة، كان يحتفل بالسيادة الأنثوية. وفي السادس عشر من يوليو (54-)، حددت كليوباترا لقيصر، سمح بطليموس الثاني عشر ببناء معبد جديد بأبعاد هائلة.

هنا، إلهة السماء تولِّد الضوء، مجسَّدة في قرص الشمس الذي

يحرك إشعاعه جميع أشكال الحياة؛ منظمة سير النجوم وضامنة انسجام الكون، كانت حتحور تعلِّم الطريق الصحيح للمؤمنين بها.

بين رصيف الميناء والمعبد، كوَّن رجال ونساء وأطفال حاجزاً صاخباً ومبتهجاً أسر قيصر وكليوباترا، وأيأس روفين؛ مستحيل، في مثل هذه الظروف، أن يضمن أمناً تاماً! يمكن لقاتل أن يختبئ، ويضرب، ويستغل الارتباك كي يختفي.

غير مدرك للمخاطر التي يتعرض لها، كان الثنائي يستمتع بشعبيته ويتقدم ببطء مزعج. محاولاً أن تكون عيناه في كل مكان، كان روفين مستعداً للقفز، وتلك الهيئة أثنت الطباخ الذي خاف أن يخطئ ضربته.

في الساحة، تجمّع الكهنة والكاهنات حول الرئيسة التي ارتدت ثوباً فضفاضاً من الكتان الأبيض؛ على يمينها وقف المقاول. انحنوا أمام الإمبراطور والملكة التي رفعت الرئيسة في الحال.

- ألا يقولون إنك أكثر نساء مصر حكمة؟ أدين لك بالاحترام وأتوسل إليك أن تفتحي بوابات معبدك.

- إنه معبدك، صاحبة الجلالة؛ بفضلك شيّده المقاول من أجل أن يتيح لنا الاحتفال بالطقوس التي تلهم حب الإلهة.

- ما اسمك؟ سألت كليوباترا الحِرفي.

- إمحوتب، سليل سلالة طويلة من البنّائين. أكمل البنّاء إمحوتب؛ لعلَّ دندرة تجعل الحب الخلّاق للإلهة حتحور يشع إلى الأبد.

قادت الرئيسة الملكة والإمبراطور نحو المعبد.

«في الداخل سيكونان في أمان»، فكّر روفين. بينما قدَّر الطباخ أن الفرصة كانت مواتية؛ لأن الحرس المقرَّب من الملكة سيبقى في

الخارج، سيكون أمامه وقت ليتصرف. تسلل مثل ثعبان، استعمل باباً جانبياً صغيراً يفضي إلى القاعة الكبيرة الأولى.

مبهورين، اكتشف قيصر وكليوباترا المعبد، مكان الولادة اليومية للإلهة التي كانت أسماؤها المتعددة معروضة على الجدران، التي تغطيها الحروف الهيروغليفية؛ مشاهد تصف مراسم تأسيس والهبات للآلهة المستقبلة في النطاق المقدس للإلهة.

- هنا يتم الكشف عن أسرار السماء، حددت الرئيسة؛ حتحور هي الحب الذي يحكم حركة النجوم والكواكب، وحالياً روابط انسجامها. منذ بدايات المعبد، نسجل دورات الكون، مثل دورة سوثِس[1] (Sothis)، بفترة 1460 سنة، وحددنا ظاهرة مبادرة الاعتدالين؛ كُتُب علم الفلك هي أحد كنوزنا الثمينة.

فهم قيصر أن الإغريق والرومان لم يكونوا سوى أطفال، في مقابلة حكمة وعلم قدماء المصريين؛ وعندما اصطحبت الرئيسة **الإمبراتور** أمام قديس القديسين، تحيط به إحدى عشرة صومعة، حيث تنكشف، بخاصة، أسرار النار والماء الأصلي. أحس الزائر، في غضون لحظة، مدى رؤيتهم.

- دعونا نبجّل حتحور، طلبت حتحور؛ إلهة الذهب، وعين الضوء الإلهي، وسيدة المحيط الأصلي والسماوات، هي التي تهيمن على الحياة والموت، هي التي تمنح التفكير الصحيح للمؤمنين بها.

بينما كان ضيفا حتحور مستغرقين في التأمل، كان الطباخ يستعد للطعن، ممسكاً بقبضة سكينه؛ مختبئاً خلف باب إحدى الصوامع المهداة لإله الأعماق، سوكر الذي يحمل رأس صقر، كان يستمتع

---

(1) باللاتينية Sirius. وهو أسطع النجوم في السماء ورابع ألمع جرم بعد الشمس والقمر وكوكب الزهرة.

بتلك الظروف المثالية. سيموت قيصر الأول، والمرأتان ستكونان عاجزتان عن مقاومة المعتدي الذي تحركه رغبة مسعورة في الانتقام.

كان الطباخ يدير ظهره لتمثال الصقر ولم يره يتحرك. بينما كان القاتل يفتح الباب، تحرك منقار الكاسر بسرعة البرق واخترق رقبة المدنِّس؛ استولت المخالب على جثته ورمتها إلى الهاوية، بعيداً من متناول الضوء.

*

كان ممارسو الطقوس قد ألبسوا كليوباترا ثوباً مذهَّباً، يغطيه معطف حافته مهدبة يعقد ذيليه على الصدر؛ بذلك الشكل ظهرت على هيئة إيزيس الجديدة، المنحدرة من تلٍّ دندرة المقدس. تجسيد الأم الكونية، المانحة لفوائد لا تحصى، ستلد حورساً جديداً، حامي المملكة الفرعونية، وستعيد قوة الفراعنة القديمة.

دون أن يفتر اهتمامه، أخذ روفين يتنفس بشكلٍ أفضل؛ خلال الوليمة التي ضمّت أعيان المحافظة، سيصدّ حرس قيصر المقربون كل محاولة اعتداء.

أحست كليوباترا باضطراب عشيقها؛ منغمساً فجأة في تقليد قديم، فقد بوصلته وتساءل عما إذا لم تكن روما، رغم عظمتها، سوى أمة صغيرة في ظلٍّ حضارة إشعاعها لا يضاهى.

حلم كليوباترا، الطفل الذي تحمله، مستقبل البلد الذي يعود ثانية من ماضيه ومعابده... ألم يكن الإمبراطور يشارك في معجزة عليه أن يقوم بتوسُّعِها؟

ابتسامة الملكة أتمّت إغواءه؛ استكشاف هذا العالم أصبح من أولوياته.

75

كانت طيبة ذات المئة باب قد عانت من الدمار والنهب تحت الاحتلال الفارسي؛ حرص محرر مصر، الإسكندر الأكبر، الفرعون الذي اعترف به الإله آمون، على إعادة جزء من نطاقها الضخم بإحياء عدة مزارات، في الكرنك والأقصر.

أبراج، وأعمدة، وباحات مفتوحة، وقاعات عملاقة ذات أعمدة مزينة، نقوش لا تُعد ولا تحصى زاهية ومتعددة الألوان، تعدد وتنوع المزارات. . . مندهشاً، ترك قيصر نفسه تغمره هذه الأشياء.

هو، الإمبراتور، اعتبر نفسه ضعيفاً مقابل مكانة عمالقة الحجارة الذين عبرت وجوههم القرون. لماذا لا يحاول أن يرتقي إلى درجتهم بالزواج من كليوباترا ويحيي الوظيفة الفرعونية بجانبها؟

قاده القدر إلى مصر، واضطره إلى التعرض لمخاطر لا معنى لها؛ ألم يكن على وشك أن يفقد الحياة في حرب الإسكندرية التي كسبها بشق الأنفس؟ هنا، على هذه الأرض، يستطيع رئيس دولة أن يدرك القوة الحقيقية، وربما هنا كان قيصر يستطيع أن يحقق ذاته بممارستها.

*

كانت شارميان تقدِّر روعة قصر الكرنك حيث سبق أن أقام

العديد من الملوك اللامعين؛ بالتأكيد، كانت قد أدخلت بعض التعديلات لضمان الراحة وتفكر غالباً في مسقط رأسها الإسكندرية، لكنها استمتعت بتلك الرحلة التي وضعت تحت شعار الحب. رغم تفاوت السن، كان قيصر وكليوباترا ثنائياً رائعاً، وكان شغفهما المشترك، المتحمس دوماً، يؤثِّر في الخادمة المعتادة على أنانية الذكور وضعف شخصيتهم. لم يكن فيه شيء من الحُملان، كان الديكتاتور الروماني صادقاً في حبه وجدّ معجب بالملكة الشابة؛ بفتحها أبواب مصر له، هل ستنجح في إقناعه بالبقاء فيها؟

أمضى الثنائي ساعات طوال في الكرنك، معبد المعابد؛ كان الحاجب أبولودور يراقب نوعية الطعام الذي يقدَّم على المائدة الملكية، بينما يهتم العجوز بالنبيذ. هو وريح الشمال كانا سعيدين بالعودة إلى الجنوب ويستغرقان في قيلولات طويلة، بينما استمر روفين على حالة من القلق، مسكوناً بالفزع من وقوع هجوم.

أثار وصول باخرة مجهولة رد فعل عنيف؛ محترمين تعليمات السلامة، قام البحارة الرومان بالصعوْد إليها وأحضروا قائدها إلى روفين الذي تعرف في الحال على واحد من قدماء المحاربين الجديرين بالثقة.

- جئت بالبريد الذي وصل إلى الإسكندرية، شرح له؛ الرسائل الرسمية الموجهة إلى الإمبراطور.

*

كانت الشمس تلمع عالياً في السماء، والحرارة في تزايد؛ جلست كليوباترا تستريح، ومن إحدى نوافذ القصر، كان قيصر يتأمل مجال الكرنك المقدس.

قدَّم له ملازمه روفين بعض الوثائق.

- تبدو مستاء؟
- هل تأذن لي أن أكون صريحاً؟
- أنا أحثك على ذلك.
- حتى لو صدمتك؟
- تحدث، أرجوك.
- منذ ثلاثة أشهر، تبدو وكأنك نسيت روما! رجالنا مضطربون ويتساءلون متى سيذهبون إلى وطنهم. هم ينتظرون قرارك.
- هل الأمر مستعجل؟
- أظن ذلك.
- دعنا نطّلع على تلك الرسائل.

لم يخفِ أنصار قيصر قلقهم، كانت الأخبار تُنذر بالخطر. لم يكن مجلس الشيوخ يستسيغ علاقة الإمبراتور بأجنبية ويتمنى أن تنتهي في أسرع وقت؛ راضية بجرعة مكثفة من النفاق، تبقى الأخلاق العامة معياراً مهيمناً في السياسة الرومانية. وقيصر، مهما كانت قوة نفوذه، لن يستطيع تجاهل رأي مجلس الشيوخ.

لم يستسلم أتباع بومبي؛ رغم غياب زعيمهم، كانوا يتجمّعون في نوميديا[1] ويحشدون لقضيتهم رجال الفيالق غير الراضين عن رواتبهم. مكنّين الكره لقيصر، كانوا يحاولون إعادة تكوين جيش قادر على السير نحو روما.

في آسيا الصغرى، كان الوضع يسوء؛ ذبح متمردون فوجاً رومانياً وكانت السلطات تشتكي من غياب تعليمات قيصر، قيصر الذي استسلم لسحر كاهنة جعلته يهمل واجباته.

---

(1) الجزائر الحالية.

الرسالة الأخيرة كانت الأسوأ؛ بحسب أنطوان، ممثل قيصر في روما، كانت الشرطة تجد صعوبة في قمع حروب الشوارع، وداخل الثكنات كانت الصرامة تتآكل. في غياب رأس مدبِّر، ألم تكن تلك الاضطرابات تعلن عن بداية الفوضى؟

*

كانت عذوبة تلك الأمسية الربيعية تمتِّع القلوب والأجساد، وكان الجميع يستسلم طواعية مثل العجوز وريح الشمال لسُبات لذيذ؛ وحده روفين كان يشجب، معرِّباً عن أسفه من كون قيصر وكليوباترا غير مباليين بتحذيراته، يتنزهان على ضفة النيل. كان بعض رجال الفيالق يحرسونهما من بعيد، لكن الخطر يمكن أن يخرج من أي مكان.

أمام وجه عشيقها المنغلق، أحست المرأة الشابة بخطورة الوضع.

- أخبار مقلقة؟

- روما، وشمال أفريقيا، وآسيا الصغرى يطالبون بوجودي.

- ألا ترغب في اكتشاف منابع النيل؟

- القدر لا يتيح لنا إمكانية تلبية جميع رغباتنا.

- ألا ترغب في أن تكون بالقرب مني، عند ولادة ابنك؟

- إذا لم أتدخل بسرعة من أجل إخماد النيران المخرِّبة، ستكون حرب الإسكندرية غير مجدية، لن تكون معاركي العديدة قد أفادت في شيء، وسيتحطم حلمك. أن أهرب سيكون خطأ لا يغتفر، وسأفقد كل كرامة في عينيك.

قللت براعة الحديث من حزن كليوباترا، التي اضطرت إلى الاعتراف بصحة حجج قيصر.

سأعود إلى الإسكندرية من حيث سأبحر مع جيشي؛ سأترك هناك ثلاثة أفواج تحت أوامر روفين. ستحفظ الأمن وستدعم سلطتك.

عانق الإمبراتور الملكة.

- عندما أنتصر، ستأتين إلى روما وستقدمين ابننا لشعبي.

76

صباح الثالث والعشرين من يونيو سنة (47-)، لم يعد من مجال للشك: كانت بالفعل آلام المخاض. كانت كليوباترا في أرمنت، قرب طيبة، وحاولت الحفاظ على وجه هادئ.

- لا تخشي شيئاً، صاحبة الجلالة، أوصتها الخادمة شارميان؛ أنت تتوفرين على أفضل المُولِّدات.

عندما دخلت جناح التوليد، المُزهِر والمُعطَّر، فكرت الملكة في قيصر الذي كان يخوض حرباً في أفريقيا. توسّلت إلى الإلهة حتحور كي تحميها وتمنحها ابناً في صحة جيدة.

كانت المولدتان ممتلئتان وسحنتهما توحي بالاطمئنان؛ مثل جميع المصريات منذ الأسرة الحاكمة الأولى، ستلد كليوباترا واقفة، ستسندها مُساعِدَتَي المولدتان اللتان ستمليان عليها التصرفات المناسبة ولن تتوقفا عن دهنها بالزيوت الأساسية والمخدِّرة.

*

متوتراً، كان أبولودور يذرع المكان ذهاباً وإياباً. وهو يشتكي:

- هذا الأمر لا ينتهي.

- أنت مخطئ، عارضته شارميان، واثقة؛ الإله بِس والإلهة إيبة يرعيان ملكتنا.

- هذا الأمر لا ينتهي، ردد الصقلي.

أخيراً، فُتِح باب جناح التوليد! خرجت إحدى القابلتين مبتسمة.

- إنه ولد، أعلنت؛ هو والملكة في حالة جيدة.

لاحظت شارميان وأبولودور بأعينهما أن الملكة كانت متعَبة، لكن سعيدة ومسترخية، أعطت الحياة لرضيع جميل سيتم تسليمه لمرضعة ذات حليب وفير.

مستمتعة بتلك السعادة، كانت كليوباترا تعرف أن عليها خوض معركة صعبة؛ خسرانها سيجعل تلك الولادة كأنها لم تكن.

*

تجتمع في أرمنت مدرسة فكرية تتضمن ممارسي الطقوس المحليين، والسلطات الدينية التابعة للمحافظة، وممثلي الإدارة السكندرية.

كانت رئيسة دندرة، حتحور، مكلَّفة بتسييرها واختتام المناقشات.

كان طلب الملكة بسيطاً: سيحمل ابنها اسم بطليموس قيصر، بما أنه عند ممارسته الوظيفة الفرعونية، سيجمع السلطة المستعادة في مصر وسلطة روما. واعية بأن السياسيين السكندريين سينكرون أبوة الإمبراطور، كانت كليوباترا تعني بذلك أنه، هو، يعترف بابنه، ملك الأرضين، مصر العليا والسفلى، في المستقبل.

كان هناك شرط أساسي: اتفاق تام من قبل الآلهة. بطليموس قيصر لم يكن طفلاً مثل باقي الأطفال وعليه أن يستفيد من دعمها.

في نهاية نقاشاتها، وصلت المدرسة الفكرية إلى نتيجة من شأنها أن تقوم مقام قوة رمزية ولا جدال فيها: رع، سيد الضوء الإلهي،

اتّخذ شكل قيصر ليتحد مع كليوباترا، تجسد إيزيس، الأم الإلهية التي وضعت حورساً جديداً، جاء لينشر النظام في مكان الفوضى وهو يحكم مصر.

لإضفاء طابع رسمي ومقدس لهذا الحدث الرئيسي سيتم نقش مشاهد وحروف هيروغليفية تسرد ولادة بطليموس قيصر ومجيئه على جدران المعابد في دندرة وأرمنت. في الإسكندرية سيتم سبك عملات حيث ستظهر كليوباترا على شكل إيزيس، تضم بين ذراعيها ابنها حورس؛ خلال القيام بأقل صفقة تجارية، سيُذكَر أن بطليموس قيصر سليل حقيقي للفراعنة ووريث عهد الآلهة. أما بالنسبة إلى الثالث والعشرين من يونيو، سيصبح عطلة رسمية ومناسبة للاحتفال بكل من إيزيس وعيد ميلاد الملك قيصر.

*

كانت كليوباترا حريصة على أن تقدم ابنها للثور بوخيس، الذي منحها، في بداية مغامرتها، قوّته. اقترب الحيوان القوي من ضيوفه بخطوات معدودة، والتقت نظرته المهددة نظرة الملكة.

تعرّف إلى محميته، شمّ الطفل ورفع قرنيه إلى السماء.

- أنت روح الملكية، أعلنت كليوباترا، وسأرفع على شرفك مزاراً للولادة سيكون اسمه «صومعة الضوء».

بعد أن شعر بالرضا، عاد الثور إلى مذوده.

ظهر خيال حتحور، رئيسة دندرة، الضعيف من شعاع ضوء.

- في الضراء، صاحبة الجلالة، الكل يتذكر؛ لكن في السراء، لا أحد يتذكر. لو كنا في السراء نتذكر، أي حاجة كانت للضراء؟

حفرت كليوباترا تلك الكلمات في قلبها؛ مهما حصل، ستحتفظ بهذه اللحظة من النعمة حيث تجسَّد حلمها.

- أحن إلى شخصين، اعترفت الملكة؛ قيصر الذي يغامر بحياته من أجل الحصول على السلطة العليا، وهرمس الذي من دونه لم أكن لأتغلب على الصحراء.

- لا تهملي تعليمه أبداً.

- البقاء وفية لإيزيس! لقد التزمت به ولن أحنث بقسمي.

- الغرف المخصَّصة لأسرارها الكبرى ستكون مكتملة البناء في ديسمبر، كشفت الرئيسة؛ ستنتظرك فيها إيزيس.

*

كان الصغير بطليموس قيصر ينمو بوضوح؛ مستمتعاً بحليب مرضعته وحنان والدته، كان يبتسم لعالم مُشرِق. لكن الكثيرين كانوا لا يزالون يشككون في قدرة كليوباترا على أن تحكم ولن يثقوا سوى في علامة: ارتفاع الفيضان.

في حالة ارتفاع غير كافٍ لمنسوب المياه، المرادف للمجاعة والفقر، سيُلاحظ الجميع عدم كفاءة الطموحة؛ مذللة وتنصلت منها الآلهة، يجب أن تستقيل، وسيختار البلد زعيماً جديداً. كانت التماثيل الإغريقية للنيل تمثله على شكل عجوز ملتحٍ، متوجاً بالقصب، متوفراً على قرن الوفرة؛ ستة عشر طفلاً يلعبون حوله. ستة عشر ذراعاً[1]، الارتفاع المثالي للفيضان.

قلقين، كان الحاجب أبولودور والخادمة شارميان يتعجبان من هدوء الملكة؛ لابنها كانت تتحدث عن الحب الذي تكنّه لقيصر وعن الأيام السعيدة التي تلوح في الأفق.

---

(1) 8,32 متراً.

كانت الأرض تتصدع، والصيف قائظاً؛ والرسالة الصادرة من المتخصِّصين المعنيين بمقياس النيل في إلفنتين، في أقصى جنوب مصر، وصلت إلى طيبة: الفيضان سيكون بارتفاع ستة عشر ذراعاً.

77

عندما وصلت كليوباترا إلى دندرة، في الثامن والعشرين من ديسمبر سنة (47-)، كانت قد تلقت أخباراً سارة من قيصر. حملته في شمال أفريقيا حققت نجاحاً باهراً، تمَّ كسر شوكة آخر أتباع بومبي، أغلبية أعضاء مجلس الشيوخ كانوا يصطفون إلى جانب **الإمبراتور**. قريباً، سيتم الاحتفال في روما بانتصار لا ينسى، عرض فخم ستحضّره كليوباترا وابنهما، بطليموس قيصر.

لم تنسَ الملكة وعدها؛ وحدها إيزيس التي كانت هي ممثلتها على الأرض، يمكن أن تجعلها تتغلب على الشدائد وتحرر طريقها.

وتَجَسَّد حلمها أمامها: معبد الإلهة حتحور كان قد اكتمل تقريباً وهو يحتفل بحكمها. أحجار الأبد الجميلة، المتوفرة على حياة لا تتغير، تعبر القرون.

جاءت الرئيسة لملاقاة الملكة.

- الفراعنة والزوجات الملكيات الرفيعات كانوا يلقّنون أسرار إيزيس وأوزوريس، ذكّرتها الرئيسة؛ إذا استطعت اجتياز أبواب الموت سالمة، ستبدئين فعلاً في الحكم.

بمساعدة اثنين من ممارسي الطقوس، قادت الرئيسة كليوباترا إلى مدخل أول السراديب، غرف سرية موزَّعة تحت الأرض، في نفس المستوى، وفوق داخل البناء كانت تضم الأرشيف، «قوة

صياغة الضوء»، أدوات من أجل الطقوس، تماثيل آلهة وملوك، قطع أثرية لا تقدَّر بثمن، مثل مِزهَر، آلة موسيقية باسم بيبي الأول، فرعون من الدولة القديمة.

فوجئت كليوباترا باكتشاف وجهها منحوتاً، بصفتها «سيدة الأرضين، مصر العليا والسفلى»، وتمّت دعوتها للتأمل أمام حتحور بأربعة أوجه، حب الإلهة ينتشر في الاتجاهات الأصلية. ثم قادتها الرئيسة إلى سطح المعبد حيث تمَّ نصب صوامع صغيرة، مخصَّصة للاحتفال بالأسرار.

رجل طويل القامة كان يحرس المدخل.

- هرمس...

- هذا يوم استثنائي، كشف الساحر؛ إحياء أوزوريس يتزامن مع صعود البدر التمام إلى الذروة، هذه الظاهرة لا تتكرر سوى كل 1500 سنة. تأملي أسرار السماء، ملكة مصر.

اصطحب هرمس كليوباترا تحت دائرة أبراج[1] تُعَظِّم إحياء أوزوريس النجمي، الذي مرَّ من ظلام الموت إلى ضوء النجوم؛ السماء، والدب الكبير، والأبراج الاثني عشر، والأقسام، والكواكب، تُعيد الحياة للإله الذي قُتل وتمَّ إحياؤه، نموذج «وزن قلوب العابرين» الذي يقرِنُه بخلوده.

تمّت دعوة كليوباترا لتعيش عاطفة أوزوريس، محنه، مروره عبر الموت، تشتت عناصر ذاته وإعادة تكوينها بفضل سحر إيزيس. محاطة بممارسي طقوس يحملون أقنعة الآلهة، تمددت الملكة في تابوت أوزوريس، المقارن بباخرة تُبحِر في قلب السماوات، وتغذت أفكارها بالقوات الخلَّاقة.

---

(1) دائرة أبراج دندرة توجد حالياً في متحف اللوفر.

كي تولد من جديد مثل أوزوريس، كان عليها مواجهة جيش من الشياطين في خدمة سيث المدمِّر؛ كان عدة أموات يحومون، ووحدها عبارات الرقية التي رددها هرمس والرئيسة قامت بتبديدهم.

مرفوعة خارج العدم، تعلمت المبتدئة تحويل الشعير إلى ذهب وتشكيل حجر الفلاسفة، تجسَّد أوزوريس الذي تغيرت طبيعته ومصر المجددة.

- أمّك السماء كانت حبلى بك، قالت الرئيسة لكليوباترا؛ جعلت عظامك تنمو، أعطت الصلابة للَحمِك، جمعت أعضاءك؛ وها أنت قد ولدت من جديد، من شعاع ضوء. انطفأت الدموع، الذهب والأحجار الكريمة توفر حمايتك.

في نهاية الطقوس قُدِّمت لأوزوريس كليوباترا أوانٍ تحتوي على قطع جسم الإله التي ترمز لأقاليم مصر والتي يُعدّ جمعها من واجب كل فرعون؛ حينئذ أدركت المرأة الشابة مدى ضخامة مهمتها، الروحية والمادية في آن.

من الآن، معبد دندرة، حلمها من الحجر الذي تحقق، سيسكن في أقصى أعماق قلبها.

*

كان بهاء الليلة استثنائياً، وكان توهج النجوم يخطف الأبصار. جالسة على سطح المعبد، كانت كليوباترا تمجّد أمها السماء بتذكرها مراحل الطريق الطويل الذي قادها إلى هذا الشروع في تعلم الأسرار العظيمة.

افتتان الكون أخذ روحها خارج المكان والزمان؛ ما تعلمته وأحسته، حب قيصر، ولادة ابنها، رغبتها في أن تحكم لم تكن شيئاً، مقارنة مع ضخامة ما كشفت عنه المعابد الخاصة بأوزوريس في دندرة.

ألم يكن هذا المعبد هو النهاية السعيدة لطريقها، المكان الذي حلمت به والذي يجب ألا تغادره؟ لكن الإسكندرية لا تحكم نفسها لوحدها، وشعبها يطالب برجوعها ورجوع بطليموس قيصر، مستقبل مصر.

- هذا المستقبل مكتوب في النجوم، أعلن هرمس؛ هل ترغبين في معرفته.

نهضت كليوباترا.

- هل سأُمنَع من بنائه؟

- النجوم تميل ولا تقرر؛ كوني سيدة الفعل، واعرفي كيف تستعملين المواد التي توضع تحت تصرفك.

- مما سأخاف؟ بتفضّله علي بالنعم، حررني القدر من القلق؛ هل لي من خيار آخر غير واجباتي كملكة؟

تأمّل هرمس الكون.

بلدنا على صورة السماء، هذه الليلة، إنه معبد جميع الآلهة.

عندما بزغ الصبح، كان الساحر قد اختفى؛ تركت كليوباترا أشعة الشمس تغمرها، الشمس التي تحمل رجاء لا يصدَّق، قادراً على الانتصار على الظلام. بعد أن لم تعد مستقلة بنفسها، ستحاول أن تمدده وتكون أداة له، بالاستماع إلى كلام الأسلاف، الذي تمَّ نقله من خلال أسرار إيزيس وأوزوريس.

الغد لا يهم، بما أن المرأة الشابة كانت قد وصلت إلى نوع من التمام؛ لكن هل ستكون في مستوى قدرها؟

جواب واحد: أن تكون.

أن تكون كليوباترا.

خاتمة

في مساء السادس عشر من أكتوبر 1828، وصلنا أخيراً إلى دندرة. كان ضوء القمر رائعاً، وكنا على بعد ساعة من المعابد؛ هل يمكن أن نقاوم الإغراء؟

حذّرني الدليل:

- سيد شامبليون، المكان ليس آمناً، من الأفضل أن نخلد للنوم.

- متأسف، أفضِّل أن نواصل.

لم أندم على قراري؛ كان المعبد الكبير يجسِّد السمو والعظمة إلى أقصى درجة. بقينا هناك ساعتين في حالة نشوة، نجوب القاعات الكبيرة رفقة فانوسنا المسكين، نحاول أن نقرأ النقوش الخارجية على ضوء القمر. لم ندخل إلى المخيم سوى في الثالثة صباحاً كي نعود إلى المعبد في السابعة، هناك أمضينا طوال نهار السابع عشر. الأشياء التي كانت رائعة على ضوء القمر أصبحت أكثر روعة عندما أتاحت لنا أشعة الشمس تبيُّن التفاصيل. معبد دندرة قاوم الزمن وتدمير الإنسان وخرج منتصراً، ونحن نلاحظ أن خلوده قد تجد[1].

(1) نص مقتبس من مذكرات جان-فرانسوا شامبليون خلال رحلته الوحيدة إلى مصر.

رفقة حماره، رمادي رائع بعينين عميقتين ونبيهتين، اقترب مني رجل عجوز.

- هل تعرف أن تقرأ العلامات المقدسة؟ سألني مشككاً.

- لقد كرّست حياتي كلها كي أجد مفتاح قراءتها.

- ونجحت؟

- في سنة 1822؛ هذا السفر يؤكد اكتشافي، أنا أقرأ الهيروغليفية وكتاب مصر القديمة الضخم ينفتح من جديد.

- هل تسدي لي معروفاً؟

كنت محتاراً؛ ماذا يمكن أن يطلب مني الرجل.

قادنا الحمار إلى الجدار الخلفي لمعبد دندرة الكبير وتوقف أمام شكل نافر يمثّل ملكة وملكاً. كانت الملكة تستعمل المِزهَر، الآلة الموسيقية الخاصة بالمبتدئين في معرفة أسرار إيزيس، وقلادة ترمز إلى الإحياء[1]؛ هو كان يستعمل مبخرة. بينهما شكل صغير لمفتاح الحياة العنخ الملكي، القوة الخالدة التي يتناقلها الفراعنة.

- هذه المرأة جميلة جداً، قال العجوز؛ هل تكشف الرموز المقدسة عن اسمها؟

لم أجد أي صعوبة في قراءته.

- يتعلق الأمر بكليوباترا وابنها بطليموس قيصر، الملقب قيصرون.

كليوباترا... بنطق ذلك الاسم الأسطوري، أحسست بنوع من الانبهار وفكرت في الأوقات القوية من حياتها. البعض يدّعي أنها ليست إغريقية وليست ابنة بطليموس الثاني عشر، لكن ابنة كاهن

---

(1) القلادة «Menat».

مصري؛ هل يفسر ذلك السلف رغبتها في أن تُعيد لمصر مجدها الماضي، هي التي كانت تُعتبر بحق آخر الفراعنة؟

بمنحها ابناً لقيصر، حبها الكبير، أنشأت سلالة جديدة؛ وخلال انتصار الإمبراتور المدهِش، سنة (46-)، تمَّ استقبال الملكة وابنها في روما بكل التشريفات التي تليق بمقامها. كان المستقبل يبدو مبتسماً، كانت طموحات كليوباترا تتحقق. اغتيال قيصر، في مارس سنة (44-)، فرض إعادة النظر في كل شيء؛ مضطرة إلى أن تبقى حليفة روما، أخطأت الملكة في منح حبها وثقتها لمارك أنطونيو، عقل ضعيف مقارنة مع قيصر. بعد هزيمة معركة أكتيوم، في الثاني من سبتمبر سنة (31-)، كانت كليوباترا قد فضَّلت الانتحار كي لا تسقط بين يدي المنتصِر، أغسطس عديم الرحمة، قاتل ابنها قيصرون.

تحطّم الحلم بالطريقة الأكثر وحشية، لكن، لسنوات عدة، كانت الفرعون كليوباترا قد أحيت حقاً مجد مصر. وأنا، بفكِّ رموز اسمها، أعيدها إلى الحياة، في هذا المعبد الرائع حيث كانت تعيش إلى الأبد!

- تبدو مضطرباً، قال أحد مساعدي.

- انظر إلى هذا الشكل النافر! بعد أن شرعت في تعلم أسرار إيزيس، كليوباترا تحمي ابنها بطريقة سحرية، الفرعون، إلى الأبد. مليئة بالقوة، تغلّبت الهيروغليفيات على النسيان والزمن.

هو أيضاً، أدرك مساعدي أهمية الاكتشاف وترك نفسه تسحرها تلك الملكة التي كانت الحجارة المنحوتة، التي تضيئها شمس حانية، تحتفظ بشكلها.

- وأنت، ما رأيك؟ سألت العجوز الذي قادني إلى المكان.

بعد أن لم أتلقَّ أي جواب، استدرت ولم أرَه.

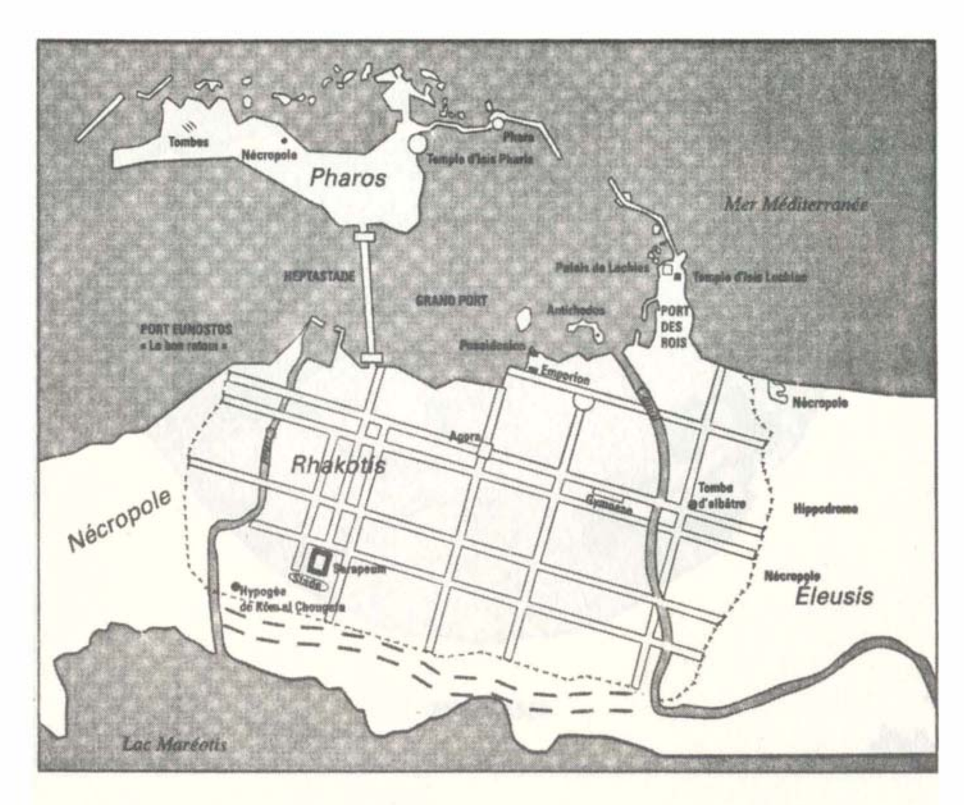
- غريب، لقد انصرفا...

- عمن تتحدث؟

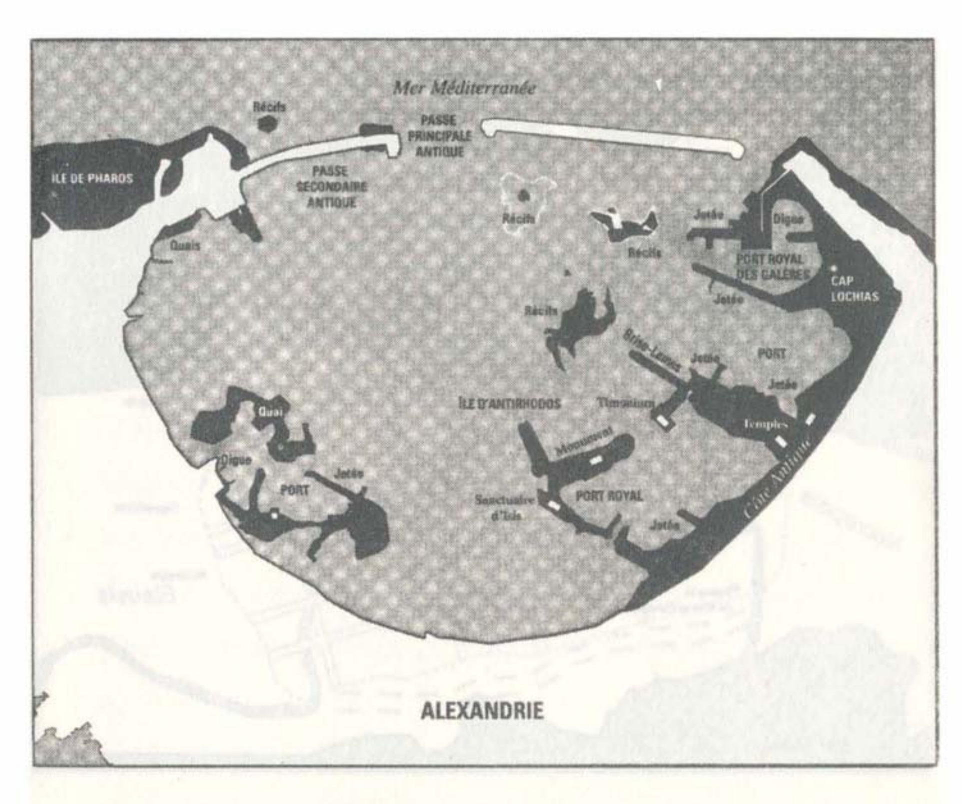
- عن رجل عجوز وحماره.

بعد أن اعتبرني ضحية ضربة شمس أو تعب شديد، أبدى مساعدي ودّاً وتفهماً.

- لم يكن هنا أحد، سيد شامبليون؛ كنت تحلم.



الإسكندرية القديمة



موانئ الإسكندرية القديمة

كريستيان جاك

آخر أحلام كليوباترا

أن تصبح ملكةً وهي في الثامنة عشرة، أن يُحكمَ عليها بالمنفى من قِبل أخيها، غلامٌ غِرٌّ يعتبر نفسه ملكاً، وأن تموت يائسة بعيدة من مملكتها: هذا ما كان يجب أن يكونه مصير كليوباترا. مصير لم تقبل به.

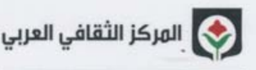
لكن كيف يمكن استعادة «الإسكندرية اللامعة» في شرق يعيش تحت الحديد والنار، بسبب الصراع الدامي بين قيصر وبومبي؟

في ذلك الحين، التقت هذه الملكة، ذات الثقافة النادرة والجمال الأخّاذ، قيصرَ، القائد الجذّاب صاحب ذكاء وسحر لا يقاومان، فوحّدهما حبٌّ قوي وعمِلا سويةً على إعادة البهاء لمصر، إلى أن أصبحت كليوباترا الإغريقية كليوباترا المصرية.

من دون قيصر، ما كان لكليوباترا أن تستعيد مصر؛ ومن دون كليوباترا، ما كان لقيصر أن يُرسي سلاماً دائماً في الشرق. مع قصّة حبهما العاصف يتداخلُ واقعٌ سياسيٌّ يضع حدّاً لسنواتٍ من الصراعات والأزمات: يتحالف الشرق والغرب ويعود الازدهار.



كريستيان جاك، المفتون بمصر القديمة منذ صغره، والحاصل على شهادة الدكتوراه في علم الآثار وعلم المصريات من جامعة السوربون، اختار أن يشارك القرّاء حبَّه لمصر عبر كتاباته. فالشغف الشعبي الذي أرسته رواياته أصبح غنيّاً عن التعريف: ملايين النسخ بيعت في جميع أنحاء العالم وترجمت إلى 28 لغة... ما جعل كريستيان جاك الكاتب الفرنسي الأكثر مقروئية في العالم.



المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

ISBN 978-9953-68-835-0

